النظرات

بقلم المرحوم
مصطفى لطفي المنفلوطي

الجزء الثالث

الطبعة الخامسة

أول أغسطس سنة ١٩٢٦

يطلب من مكتبة الهلال بشارع الفجالة بمصر

المطبعة الرحمانية بمصر
لصاحبها عبد الرحمن محمد موسى شريف

البيان

أعرف أديباً من أفضل الادباء فى هذا البلد المضطلعين باللغة وفنونها ، الحافظين للكثير المتيسع من منظومها ومنثورها ، إلا أنه لا يكتب كلمة فى صحيفة ، ولا ينشر فى الناس كتاباً ، إلا أعجم كتابته وأبهمها ، وتعمَّل فيها تعمُّلاً يأخذ على القارئ عقلَه وفهمه ، فلا يدرى أىّ سبيل يأخذ بين مسالكها وشعابها ، وكنت أحسبها غريزةً من غرائزه الغالبةِ عليه ، الآخذةِ من نفسه مأخذ الطبيعة الثابتة ، والملكة الراسخة ، فلا سبيل له الى التخلص منها ، والنزوع عنها ، حتى اطلعتُ لهُ عند بعض أصدقائهِ على كتاب صغير كان قد أرسله اليه فى بعض الشؤون الخاصة وكتبهُ بتلك اللغة السهلة البسيطة التى يسمونها اللغة العادية ، فأُعجبتُ بأسلوبه فى كتابه هذا إعجاباً كثيراً ، ورأيت أن مأ...

ماقرأت له فى حياتى من كتب ورسائل ، وعلمت أن الرجل فصيح بفطرته ، قادر على الابانة عن أغراضه ومراميه ، كأفضل مايَقتدر مقتدرٌ على ذلك ، إلا أنه يتكلف الركة والتعقيد فى كتابته تكلفاً ، ويأخذ نفسَهُ بهما أخذاً ، ولو أنه أرسل نفسه على سجيتها فكتب جميع رسائله ومؤلفاته بتلك اللغة الجميلة العذبة التى كتب بها كتابه هذا لكان من أعظم الكتاب شأناً ، وأكثرهم نفعاً ، وأرفعهم صوتاً فى عالم الكتابة والأدب ، ولكن هكذا قدر له أن يقضى بنفسه على نفسه

وقرأت منذ أيام لأحد الشعراء المتكلفين ديوان شعر فلم أفهم منهُ غير خطبتهِ النثرية ولم يعجبنى فيهِ سواها ، وما أحسبها أفلتتْ من يده ، ولا جاءت على هذه الصورة من الجودة والحسن إلا لأنه أغفل العناية بها ، والتدقيق فى وضعها ، فأرسلها عفو الخاطر إرسال من يعلم أنه انما [illegible] من الاجادة فى الشعر ، لاعن البراعة فى النثر ، وأن

الناس سيغتفرون له ضعف الكاتب، أمام قوة الشاعر ، غير عالم أنه كاتب من أفصح الكتاب وأبينهم ، ولو شاء لكان شاعراً من أقدر الشعراء وأفضلهم ، وأنه ماأحسن إلاحيث ظن الاساءة ، ولا أساء إلا حيث ظن الاحسان

ووالله لا أدرى ما الذى يستفيده هؤلاء الادباء من سلوكهم هذا المسلك الوعر الخشن فى أساليبهم الكتابية والشعرية ، وتكلف الاغراب والتعقيد فيها ، وهم يعلمون أنهم إنما يكتبون للناس لالأنفسهم ، وان الناس خصوصاً فى هذا العصر عصر المدنيةِ والعمل ، والحركة والنشاط ، أضنّ بأنفسهم وبأوقاتهم من أن يقفوا الوقفات الطوال أمام بيت من الشعِر يعالجون فهمه ، أو سطر من النثر يعانون كسر صخور ألفاظه عن معانيه ، ولم لايؤثِر أحدُهم إن كان يكتب للمنفعة العامة أن يستكثر من سواد المنتفعين بعلمهِ وفضله ، أو للشهرة والذكر ، أن ينتشر له ما يريد من ذلك بين جميع طبقات الأمة عامتها

وخاصتها ، علمائها وجهلائها ، وهل الشعرُ والكتابة إلا أحاديث سائرة يحادث بها الشعراء والكتابُ الناسَ ليُفضوا إليهم بخواطر أفكارهم ، وسوانح آرائهم ، وخلجات نفوسهم ، وهل يَعنى المتحدثَ فى حديثه شىء سوى أن يَعىَ عنه الناسُ ما يقول ، وأن يجد بين يديه سامعاً مصغياً ، ومقبلاً محتفلاً ، وأى فرق بين أن يجلس الرجل الى جمع من أصدقائه ليقص عليهم بعض القصص ، أو يفضى إليهم ببعض الآراء ، فيتلطف فى تفهيمهم ، وايصال معانيه الى نفوسهم . ويفنّ فى اجتذاب ميولهم وعواطفهم ، وبين أن يجلس الى مكتبه ليبعث اليهم بهذه الأحاديث نفسها من طريق القلم ، ولم لا يَعنيه فى الأخرى مايعنيه فى الأولى

ليس البيان ميداناً يتبارى فيه اللغويون والحفاظ أيهم أكثر مادة فى اللغـة ، وأوسع اطلاعاً على مفرداتها وتراكيبها ، وأقدر على استظهار نوادرها وشواذها ، ومترادفها ومتواردها ، ولا متحفاً لصور الأساليب ،

وأنواع التراكيب، ولامخزناً لاحمال المجازات والاستعارات، وحقائب الشواهد والأمثال، فتلك أشياء خارجة عن موضوع البيان وجوهره، إنما يُعنى بها المؤلفون والمدونون وأصحاب القواميس والمعاجم وواضعو كتب المترادفات ومصنفو فقه اللغة وتاريخ أدبها، أما البيان فهو تصوير المعنى القائم فى النفس تصويراً صادقاً يُمثلهُ فى ذهن السامع كأنهُ يراهُ ويلمسهُ لايزيد على ذلك شيئاً، فان عجز الشاعر أو الكاتب مهما كبر عقله وغزر علمه واحتفل ذهنه عن أن يصل بسامعه الى هذه الغاية، فهو ان شئت أعلم العلماء، أو أفضل الفضلاء، أو أذكى الأذكياء، ولكنه ليس بالشاعر ولا بالكاتب

ماأشبه الجمود اللغوى فى هذه البيئة العربية بالجمود الدينى، وما أشبه نتيجة الأول بنتيجة الآخر

لم يزل علماء الدين يتشددون فيه ويتنطعون، ويقتطون من هضبته الشماء صخوراً صماء يضعونها عقبة فى سبيل

المدنية والحضارة حتى صيروه عبئاً ثقيلاً على كواهل الناس وعواتقهم، فمله الكثير منهم، وبَرِموا به، واخذوا يطلبون لأنفسهم الحياة الطيبة من طريق غير طريقه، ولو أنهم لانوا به مع الزمان وصروفه، وتمشوا بأوامره ونواهيه مع شؤون المجتمع وأحواله، لاستطاع الناس أن يجمعوا بين الأخذ بأسباب دينهم، والأخذ بأسباب دنياهم

ولم يزل جماعة اللغويين وعبدة الألفاظ والصور يتشددون في اللغة ويتحذلقون، ويتشبثون بالأساليب القديمة والتراكيب الوحشية، ويغالون في محاكاتها واحتذائها، ويأبون على الناس إلا أن يجمدوا معهم حيث جمدوا، وينزلوا على حكمهم فيما أرادوا، ويحاسبون الكاتبين والناطقين حساباً شديداً على الكلمة الغريبة والمعنى المبتكر، ويقيمون المناحات السوداء على كل تشبيه لم تعرفه العرب، وكل خيال لم يمر بأذهانهم، حتى ملّهم الناس وملّوا اللغة معهم، فتمردوا عليهم، وخلعوا طاعتهم،

وطلبوا لأنفسهم الحرية اللغوية التامة فى جميع مواقفهم وعلائقهم ، فسقطوا فى اللغة العامية فى أحاديثهم ، وشبهِ العامية فى كتاباتهم ، وكادت تنقطع الصلة بين الأمة ولغتها ، لولا أن تداركها الله برحمته ، فقيض لها هذا الفريق العامل المستنير من شعراء العصر وكتابه الذين عرفوا سر البيان وأدركوا كنهه ، فاتخذوا لأنفسهم فى مناحيهم الشعرية والكتابية أسلوبا وسطاً معتدلا جمعوا فيه بين المحافظة على اللغة وأوضاعها وأساليبها ، وبين تمثيل روح العصر وتصوير صورة الحياة ، ولولاهم لبقيت اللغة فى أيدى الجامدين فماتت ، أو غلبت عليها العامية فاستحالت

***

قال لى أحد الأدباء المتكلفين فى معرض الاعتذار عن نفسه وقد عتبت عليه فى هذا المنهج الخشن الوعر الذى ينهجه فى أسلوبه : أنت تعلم أن الناس فى هذا البلد قد أَلِفوا

من طريق خطأ الحس أن ينظروا بعين الاجلال والاعظام إلى كل أسلوب شعرى أو كتابى معقد غامض ، وإن تفهت معانيه وهانت أغراضه ، وبعين الازدراء والاحتقار إلى الأساليب السهلة البسيطة ، وان اشتملت على أشرف الأغراض وأبرع المعانى ، أى انهم لا يرون السهولة والانسجام حتى يتوهموا التفاهة والسفولة ، ولا يرون الركاكة والمعاظلة حتى يظنوا الحذق والبراعة وسموّ المعانى وشرفها ، وهى حالة طبيعية فى جميع النفوس البشرية أن تزدرىَ المبذول لها ، وتستسنى قيمة الممنوع عنها ، وليس هذا شأنهم مع أدباء العصر الحاضر فحسب ، بل مع أدباء كل عصر وجيل ، فهم يسمون البحترى وأبا نواس والشريف الرضى ، وأمثالهم شعراء الألفاظ ، ويسمون المتنبى والمعرى وابن الرومى وأشباههم شعراء المعانى ، وليس بين الأولين والآخرين فرق فى جودة المعانى وشرفها الا أن الأولين أمطروها على الناس وبعثروها تحت أقدامهم فهانت عليهم،

وضن بها الآخرون ووعّروا سبيلها فعظمت فى أعينهم ، وجلّت فى صدورهم ، قال ولقد عرضتُ السلعتين فى سوق الأدب فكتبتُ أتفه المعانى وأدوَنها فى أخشن الأساليب وأوعرها فنفقَتْ فى تلك السوق نَفاقا عظيماً ، وكثر المعجبون بها والمكبرون لها ، وكتبت أشرف المعانى وأبرعها فى ألطف الأساليب وأعذبها فما أبَهَ لها إلا القليل من الناس ، وربما لم يأبه لها أحد ، فلم أر بداً من أن أنتهج لنفسى فى الكتابة الخطة التى أعلم أنها أجدر بى وأجدى علىّ

فعجبت لرأيه هذا عجباً شديداً وقلت له أمّا هذا الذى تذكره فانى لا أعرفه إلا لفئة قليلة من القراء فاسدة الذوق لا يعبأ بها عابئٌ ، وليس هذا رأى جمهور المتأدبين ، بل ولا رأى العامة من أبناء هذه اللغة ، وهب أن الأمر كما تقول ، فالأدب ليس سلعة من السلع التجارية لا همّ لصاحبها سوى أن يحتال لنَفاقها فى سوقها ، إنما الأدب فن شريف يجب أن يخلص له المتأدبون بأداء حقه والقيام على

خدمته إخلاص غيرهم من المشتغلين ببقية الفنون لفنونهم ، والأدباء هم قادة الجماهير وزعماؤهم ، فلا يجمل بهم أن ينقادوا للجماهير وينزلوا على حكمهم فى جهالاتهم وفساد تصوراتهم ، ولم أزل به حتى أذعن للرأى الذى رأيتـه له ، فحمدت الله على ذلك

***

ليس من الرأى ولا من المعقول أن ينظم الشعراء الشعر ويكتب الكتاب الرسائل فى هـذا العصر عصر الحضارة والمدنية وبين هذا الجمهور الذى لا يعرف أكثر من العامية إلا قليلا باللغـة التى كان ينظم بها امرؤ القيس وطرفة والقطامى والحطفى ورؤبة والعجاج ويكتب بها الحجاج وزياد وعبـد الملك بن مروان والجاحظ والمعرى فى عصور العربيـة الاولى ، فليس عصرنا كعصرهم ، ولا جمهورنا كجمهورهم ، وأحسب لو أنهم نُشروا اليوم من أجداثهم لما كان لهم بُدٌّ من أن ينزلوا إلى عالمنا الذى نعيش

فيه ليخاطبونا بما نفهم أو يعودوا الى مراقدهم من حيث جاءوا

ليست الاساليب اللغوية ديناً يجب أن نتمسك به ونحرص عليه حرص النفس على الحياة . إنما هى أداة للفهم وطريق إليه . لا تزيد على ذلك ولا تنقص شيئاً

يجب أن نحافظ على اللغة باتباع قوانينها والتمسك بأوضاعها ومميزاتها الخاصة بها ، ثم نكون أحراراً بعد ذلك فى التصور والتخيل واختيار الاسلوب الذى نريد

يجب أن يشف اللفظ عن المعنى شفوف الكأس الصافية عن الشراب حتى لا يرى الرائى بين يديه سوى عقل الكاتب ونفس الشاعر ، وحتى لا يكون للمادة اللفظية شأن عنده أكثر مما يكون للمرآة من الشأن فى تمثيل الصور والمخائل

يجب أن يتمثل المعنى فى ذهن المتكلم قبل أن يتمثل اللفظ ، حتى إذا حسن الاول أفاض على الثانى جماله ورونقه ، فاللفظ لا يجمل حتى يجمل المعنى ، بل لا مفهوم للفظ الجميل إلا المعنى الجميل

لو لم يكن للفصاحة قانون يرجع اليه من يريد معرفتها ومقياس تقاس عليه لوجب أن يكون قانونها العقلى أن يترك القائل فى نفس السامع الاثر الذى يريده ، فان عجز عن ذلك فلا أقل من أن يصور له المعنى القائم فى نفسه،فان لم يكن هذا ولا ذاك فاحتراف أية حرفة من الحرف مهما صغر قدرها ، واتضع شأنها ، أعود بالنفع على الامة وأجدى عليها من حرفة القلم

لا يبكِ شاعرٌ بعد اليوم ولا كاتبٌ سقوط حظه فى الامة ، ولا يقضى حياته ناعياً عليها جهلها وقصورها كلما رآها منقبضة عنه غير حافلة به ولا مصغية اليه ، فالامة قد ارتقت واستنارت ، وأصبحت طامحة متطلعة ، لا يقنعها من قلم الشاعر أن يرنّ على صفحة القرطاس دون أن يطربها ويملك عواطفها ، ولا من قلم الكاتب أن يسود بياض الصحف دون أن ينير لها أذهانها ، ويغذى عقولها ومداركها ، فان كان لابد باكياً فليبك على نفسه ، وليَنعَ

عجزه وقصوره ، وليعلم أنه لو استطاع أن يكتب للأمة ما تفهم لاستطاعت الأمة أن تفهم عنه ما يقول

إنني لا ألوم على الركاكة والفهامة الأغبياء الذين أظلمت أذهانهم ، فأظلمت أقلامهم ، وظلمةُ القلم أثر من آثار ظلمة العقل، ولا الجاهلين الذين لم يدرسوا قوانين اللغة ، ولم يمارسوا أدبها ، ولم يتشبعوا بروح منظومها ومنثورها . ولا العاجزين الذين غلبتهم إحدى اللغات الأعجمية على أمرهم فأصبحوا إذا ترجموا ترجموا ترجمة حرفية ليس فيها مميز واحد من مميزات العربية ، ولا خاصة من خواصها ، وإذا كتبوا كتبوا بأسلوب عربى الحروف أعجمى كلّ شىء بعد ذلك ، فهؤلاء جميعاً لا حول لنا فيهم ولا حيلة ، لأنهم لا يستطيعون أن يكونوا غير ذلك ، إنما ألوم المتأدبين القادرين الذين عرفوا اللغة ، واطلعوا على أدبها ، وفهموا سر فصاحتها ، وأنقم منهم عدولهم عن المحجة فى البيان إلى الجمجمة والغمغمة فيه ، وأنعَى عليهم نقص القادرين على التمام

الناشىء الفقير (١)

لى ولد وحيد فى السابعة من عمره لا أستطيع على حبى إياه وافتتانى به أن أتركه من بعدى غنياً لأنى فقير ، وما أنا بآسف على ذلك ولا مبتئس ، لأنى أرجو بفضل الله وعونه ، ورحمته وإحسانه . أن أترك له ثروة من العقل والأدب ، هى عندى خير ألف مرة من ثروة الفضة والذهب

أحب أن ينشأ معتمداً على نفسه فى تحصيل رزقه وتكوين حياته ، لا على أى شىء آخر حتى على الثروة التى يتركها له أبوه ، ومن نشأ هذا المنشأ وألف ألا يأكل إلا من الخبز الذى يصنعه بيده نشأ عزوفاً عيوفا مترفعاً لا يتطلع إلى ما فى يد غيره ، ولا يستعذب طعم الصدقة والاحسان

(١) كتبت هذه الرسالة جواباً عن سؤال هذا نصه « أيهما أصلح للانسان أن يولد فقيرا أو غنيا »

أحب أن ينشأ رجلاً ، ولا سبيل الى الرجولة إلا من ناحية العمل ، وقلما يعمل العامل إلا بسائق من الضرورة ، ودافع من الحاجة ، وفرقٌ بين الغنيّ الذى يعمل لتنمية ثروته وتعظيم شأنها شرهاً وفضولاً ، وبين الفقير الذى يعمل لتحصيل قوته ، وتقويم أود حياته

أحب أن يعيش فرداً من أفراد هذا المجتمع الهائل المعترك فى ميدان الحياة ، يصارع العيش ويغالبه ، ويزاحم العاملين بمنكبيه ، ويفكر ويتروَّى ، ويجرب ويختبر ، ويقارن الأمور بأشباهها ونظائرها ، ويستنتج نتائج الاشياء من مقدماتها ، ويعثر مرة ، وينهض أخرى ، ويخطىء حينًا ، ويصيب أحيانًا ، فمن لا يخطىء لا يصيب ، ومن لا يعثر لا ينهض ، حتى تستقيم لهُ شؤون حياته

ذلك خير لهُ من أن يجلس فى شرفة من شرف قصره مطلاً على العاملين والمجاهدين يمتع نظره بمرآهم كانما يشاهد رواية تمثيلية فى أحد ملاعب التمثيل

أحب أن يمر بجميع الطبقات ، ويخالط جميع الناس ، ويذوق مرارة العيش ، ويشاهد بعينيه بؤس البؤساء، وشقاءَ الاشقياء ، ويسمع بأذنه أنات المتألمين ، وزفرات المتوجعين ، ليشكر الله على نعمته إن كان خيراً منهم ، ويشاركهم في همومهم وآلامهم إن كان حظهُ في الحياة مثل حظهم ، ولِتنموَ في نفسه عاطفة الرفق والرحمة ، فيعطف على الفقير عطف الاخ على الاخ ، ويرحم المسكين رحمة الحميم للحميم

أما الغنيّ الذي لم يذق طعم الفقر في حياته فقلما يشعر بآلام الناس ومصايبهم ، أو يعطف على بأسائهم وضرائهم ، فان حاول يوماً أن يمد يده بالمعونة الى بائس أو منكوب ، فعل ذلك متفضلاً ممتناً ، لا راحماً ولا متألماً

والالم هو الينبوع الذي تتفجر منه جميع عواطف الخير والاحسان في الارض ، وهو الصلة الكبرى بين أفراد المجتمع الانساني ، والجامعة الوحيدة التي تجمع بين طبقاته وأجناسه ، بل هو معنى الانسانية وروحها

وجوهرها ، فمن حُرِمهُ حُرم كلَّ فضيلة من فضائل النفس ، وكلّ مكرمة من مكرماتها ، وأصبح بالصخرة الصلدة أشبه منه بالانسان الناطق

أحب أن يجوع ليجد لذة الشبع ، ويظمأ ليستعذب طعم الرى ، ويتعب ليشعر ببرد الراحة ، ويسهر لينام ملء جفونه ، أى إننى أحب لهُ السعادة الحقيقية التى لاسعادة فى الدنيا سواها

وما السعادة فى الدنيا إلاّ لمحات كلمحات البرق تخفق حينا بعد حين فى ظلمات الشقاء ، فمن لايرى تلك الظلمات لايراها ، وأشقى الاشقياء أولئك المترَفون الناعمون الذين يوافيهم الدهر بجميع لذائذهم ومشتهياتهم ، فلا يزالون يمعنون فيها ويتقلبون فى جنباتها حتى يستنفدوها ، فيستولى على عقولهم مرض السآمة والضجر ، فيتألمون من الراحة أكثر مما يتألم التعب من التعب ، ويقاسون من عذاب الوجود أكثر مما يقاسى المحروم من عذاب الحرمان ، وقد

تدفعهم تلك الحالة إلى الالمام بمشتهيات غريبة لاتتفق مع الطبيعة البشرية ولا تدخل تحت حكمها ، تفريجاً لكربتهم ، وتنفيساً عن أنفسهم ، وما هؤلاء المساكين الذين نراهم سهارى طوال لياليهم فى ملاعب القمار ومجالس الشراب ومواقف الرهان إلاّ جماعةَ الفارين من سجون السآمة والملل ، يعالجون الداء بالداء ، ويفرون من الموت إلى الموت

أحب أن يكون غنيًا بالمعنى الحقيقىّ ، لا بالمعنى الاصطلاحى ، أى أن يكون مستغنيا بنفسه عن غيره ، لا كثير المال والثراء ، وما سمى المال غنًى إلاّ باعتبار أنه وسيلة إلى الغنى وطريق اليه ، وهو اعتبار خطأ ما فى ذلك ريب ، فان أكثر الناس فقراً إلى المال وأشدهم ولعاً باحرازه وأعظمهم مخاطرة بكرامتهم وفضائل نفوسهم فى سبيله هم الأغنياء ، أصحاب المال والثراء ، وان كان فى الدنيا شيء يسمى قناعة واعتدالا فهو فى جانب الفقراء المقلين ، أكثر منه فى جانب الاغنياء المكثرين ، ولا

يزال المرء يعتبر المال وسيلة إلى الحياة وذريعة من ذرائعها حتى يكثر في يده فاذا هو في نظره الحياةُ نفسها ، يجمعه ولا يدري ماذا يريد منه ، ويعبده وهو لا يرجو ثوابه . ولا يخشى عقابه ، ويستكثر منه وهو على ثقة من نفسه بأنه لا ينتفع بقليله ، فضلا عن كثيره ، وإذا بلغ المرء في حالته العقلية إلىٰ درجة أن تنقلب في نظره حقائق الكون وتتغير نواميسه ، فيرى الرءوس أذناباً ، والاذناب رءوساً ، والوسائل غايات ، والغايات وسائل ، فقل على عقله السلام

لا أكره أن ينشأ ولدي غنياً ، ولا أُحب أن أُعرّضه لمخاطر الفقر وآفاته ، ولكني أخاف عليه الغنى أكثر مما أخاف عليه الفقر

أخاف عليه أن يعتد بالمال اعتداداً كثيراً ، ويقدُره فوق قدره . ويعتبره الكمال الانساني كله ، فلا يهتم باصلاح أخلاقه وتهذيب نفسه ، وألاّ يجد من حوله من عشرائه وخلطائه مرآة يرى فيها هناته وعيوبه ، لان عشراء

الاغنياء متملقون مداهنون ، يطوون سيئاتهم ، ويزخرفون حسناتهم

أخاف عليه أن تستحيل نفسه إلى نفس مادية جامدة ، لا تفهم من شؤون الحياة غير المادة ، ولا تُعنى بشيء سواها ، فيصبح رجلا قاسياً صلْباً ، ميت النفس والعواطف ، لا يرحم بائساً . ولا يعطف على منكوب ، ولا يرثى لأمة . ولا يبكى على وطن ، ولا يشترك فى شأن من الشؤون العامة خيرها وشرها ، ولا يَعنيه ما دام راضياً عن نفسه ، مغتبطاً بحظه ، أسقطت السماء على الأرض ، أم بقيت فى مكانها

أخاف عليه أن يحتقر العلوم والآداب ، ويزدرىَ المواهب والعقول ، والفضائل والمزايا ، فيصبح عار أمته وشنارها ، ووصمتها الخالدة التى لا تزول ، ومن أُشرب قلبُه حبَّ المال ، ونزل من نفسه إلى قرارتها ، لا يحترم غيره ، ولا يقيم إلا لأربابه وزناً ، ويخيل اليه أن من عداهم من الناس لاقيمة لهم فى الحياة ، بل لا حق لهم فى الوجود

أخاف عليه إن تزوج أن يأبى الزواج إلاّ من غنية يرى أنها هي التي تليق بمقامه ومنزلته ، ومن اشترط الغنى في زوجة قلما تنزع نفسه إلى اشتراط شيء سواه ، فيسقط في زواجه سقطة يشقى بها طول حياته من حيث لا ينفعه ماله ولا جاهه

أخاف عليه أن وَلَد ألا يجد بين أوقاته ساعة فراغ يتولى فيها النظر في تهذيب ولده وتربيته ، فيتركه صغيراً في أيدي الخدم ، وكبيراً في أيدي عشراء السوء ، فيصبح نكبته الكبرى في حياته ، وعاره الدائم بعد مماته

أخاف عليه أن يقضي أيامه ولياليه مروَّعا مذعوراً خافقَ القلب مستطار الفؤاد تقتله الخسارة إن خسر ، ويَصعقه فوتُ الربح ان فاته ، ويطير بنومه وهدوئه هبوطُ الاسعار ، ونزول الاسهم ، وتقلبات الاسواق ، وخسران القضايا ، ومنازعات الخصوم ، والآفات السماوية والجوائح الارضية

وما حزنُ الفقير الذى أنفق آخر درهم بيده من حيث لايعرف له طريقاً إلى سواه على نفسه وعلى مستقبله بأشد من حزن الغنى الشحيح على الدرهم الذى نقص من مليونه ، أو الذى كان يؤمل أن يتمم به مليونه فلم يُتَحْ له

وما ليلة البائس المسكين الذى يتصايح أولاده من حوله جوعاً ، ولا يجد مايسد بهرمقهم ، باطول من ليلةالغنى الذى يسقط اليه الخبر بأن سِلعة من سلعه قد نَفَقت ، أو أن سهما من أسهمه قد نزل

وحدثنى من رأى بعينه من جُنَّ وهو واقف ينظر إلى قصر من قصوره يحترق ، وسمعت كثيراً من حوادث المنتحرين والمصعوقين على أثر النكبات المالية والخسائر التجارية التى لاتفقرهم ولا تصل بهم إلى درجة الاملاق ، وكلُّ أثرها عندهم انها تنقلهم إلى منزلةٍ فى الغنى أدنى من منزلتهم الاولى

أخاف عليـه أن يصبح واحداً من أولئك الوارثين.

المستهترين الذين لاعمل لهم فى حياتهم سوى هدم حياتهم بأيديهم ، وهدم ماترك لهم آباؤهم وأجدادهم من مال وجاه ، فأندب حظى فى قبرى ، وأقرع السنّ على أن لم أكن فارقتُ هذه الحياة ولا مال لى فيها ولا ولد

ولا أزال أذكر حتى الساعة أنى مررت بأحد شوارع القاهرة من بضع سنين فرأيت فى مكان واحد منه منظرين مختلفين ، رأيت غلاماً من الوارثين جالساً باحدى الحانات يمرح فى نعمائه ، وآخر من المتشردين نائماً تحت الرصيف على مقربة منه يضطرب فى بأسائه ، أما الاول فقد كان جالساً بين مائدتى شراب وقمار ، تسلب الاولى عقله ، والاخرى ماله ، وقد أحاط به جماعة من الخلعاء الماكرين يلعبون بعقله لعب الغلمان بالكرة فى ميدانها ، يضحكون لنكاته ، ويؤمنون على أقواله ، ويصدقون أكاذيبه ، ويتحركون بحركته ، ويسكنون

بسكونه ، وهو يقهقه بينهم قهقهة المجانين ، ويصيح صياح الثعالب ، وأما الثانى فقد كان عارياً إلا قليلا ، يفتح إحدى عينيه من حين إلى حين كلما رنّت فى أذنه ضحكات هؤلاء السكارى وضوضاؤهم ، ويضم ركبتيـه إلى صدره كلما أحس صوتَ مركبة مارة بجانبه ، وقد يبسط كفه أحياناً وهو مغتمض إن خُيل اليه أن يداً تمتد إليه بالاحسان ، ولا يد هناك ولا احسان.

رأيت هذين المنظرين الغريبين المتناقضين ، فثارت فى نفسى فى تلك الساعة عاطفتان مختلفتان ، عاطفة البغض والاحتقار للاول ، وعاطفة الرحمة والشفقة على الثـانى ، وقلت فى نفسى : لو كان لى ولد وكان لابد له من أن يكون أحد هـذين الغلامين ، إما الوارثَ الجالس فوق الرصيف ينثر الذهب نثراً ، أو المتشرد النائم تحتـه يسأل الناس لقمة فلا يجدها ، لفضلت أن أراه بين فئة المتشردين ، على أن أراه بين فئة الوارثين ، لانى أرجو له فى الاولى ان

يجد بين الراحمين راحماً يحسن اليه ، ويستنقذه من شقائه ، ويأخذ بيده فى طريق الحياة الطيبة الصالحة ، أما فى الثانية فانى لا أرجو له شيئاً

ان للرحمة طيشاً كطيش القسوة والشدة ، وأطيش الراحمين ذلك الذى يستنفد أيام حياته فى جمع الثروة لأولاده دائباً ليله ونهاره لايهدأ ولا يفتر من حيث يُغفل النظر فى شأن تربيتهم وتعليمهم ضناً بهم أن يزعج نفوسهم بشىء من تكاليف الحياة وأعبائها ، فاذا ذهب لسبيله وخلى بينهم وبين ذلك المال الذى جمعه لهم لايكون لهم من الشأن فيه أكثر مما يكون لجماعة الحمالين فى الاثقال التى يحملونها من مكان إلى آخر ، فهم ينقلونه من خزائنه شيئاً فشيئاً إلى خزائن الخمارين والمرابين والعاهرين حتى ينفد ، فاذا فرغوا منه جلسوا فى عَرَصاتهم المقفرة جلسة الباكى الحزين ، صفر الأكف ، فارغى الجيوب ، مطرقى الرؤوس ، لاحول لهم ولا حيلة ، قد أضاعوا حياتهم وحياة آبائهم

وأجدادهم ، وهدموا فى عام واحـد أو عامين قرناً كاملا مجيداً من أعلاه إلى أسفله ، ولا يعلم إلا الله ماذا يكون شأنهم بعد ذلك

ولو أن أباهم كان يرحمهم رحمة حقيقية ويشفق عليهم إشفاقا صحيحاً لرحمهم من هذا المصير المحزن ، وضن بهم على هذا التراث المشؤوم .

يقولون إن الفقر يدفع إلى الجرائم والقتل وارتكاب السرقات ، وأنا أقول إننا إذا استطعنا أن نفهم الجريمة بمعناها الحقيقى وألاّ ننخدع بصور الألفاظ وألوانها علمنا أن للاغنياء جرائم كجرائم الفقراء ، بل أشد منها خطراً وأعظم هولا ، فان كان بين الفقراء اللصوص والقتلة والشطار والعيارون وقاطعوا الطرق ، فبين الأغنياء المحتالون والمزورون ، والمغتصبون والخائنون ، والمداهنون والمهالئون ، وأصحابُ المعامل والشركات الذين يغذون أجسامهم بدماء عمالهم ، والتجارُ الذين يسرقون من الأمة فى يوم واحد باسم الحرية التجارية

مالا يسرقه منها جميع لصوص البلد وعيّاروه فى شهر كامل ، والقُوّامُ والأوصياء الذين يرثون التركات من دون وارثيها ، ويأكلون أموال اليتامى والمعتوهين باسم صيانتها والمحافظة عليها ، والسماسرةُ الذين يغتالون الأسواق بأجمعها ، والمرابون الذين يختلسون الثروات بأكملها ، والسياسيون الذين يسرقون الممالك بحذافيرها

على أن جرائم اللصوصية والسرقة والقتل ليست جرائم الفقر بل جرائم الغنى ، فلولا شح الأغنياء بأموالهم وكلبُهم عليها وحيازتها عن الفقراء لما وُجد فى الارض قاتل ولا سارق ولا قاطع طريق ، ولا يسرق السارق ، ولا يسلب السالب ، ولا يلصُّ اللص ، إلا جزءاً من حقه الذى كان يجب أن يكون له لو كان للمال زكاة ، وللرحمة سبيل إلى الافئدة والقلوب

ليفتح الأغنياء المدارس وليبنوا الملاجىء ، ولينشئوا المصانع والمعامل للعاطلين والمتشردين، وليتعهدوا المنكوبين

والساقطين فى ميادين الحياة العامة بالمساعدة والمعونة ، فان وجدوا بعد ذلك لصوصاً أو قتلة أو مجرمين فليتهموا الفقر ولينعَوا عليه جرائمه وآثامه

لا أريد أن أقول إن الغنى علة فساد الأخلاق ، وأن الفقر علة صلاحها ، ولـكن الذى أستطيع أن أقوله عن تجربة واستقراء ، إنى رأيت كثيراً من أبناء الفقراء ناجحين، ولم أر إلا قليلا من أبناء الأغنياء عاملين

ان العلوم والمعارف ، والمخترعات والمكتشفات ، والمدنية الحديثة بأجمعها ، حسنة من حسنات الفقر ، وثمرة من ثمراته ، وما المداد الذى كتبت به المصنفات ، ودونت به الآثار ، إلا دموع البؤس والفاقة ، وما الآراء السامية والأفكار الناضجة التى رفعت شأن المدنية الحديثة إلى مستواها الحاضر إلا أبخرة الأدمغة المحترقة بنيران الهموم والأحزان ، وما انفجرت ينابيع الخيالات الشعرية والتصورات الفنيـة ، الا من صدوع القلوب الكسيرة ،

والافئـدة الحزينة ، وما أشرقت شموس الذكاء والعقل في مشارق الارض ومغاربها إلا من ظلمات الاكواخ الحقيرة ، والزوايا المهجورة ، وما نبغ النابغون من فلاسفة وعلماء ، وحكماء وأدباء ، إلا في مهود الفقر ، وحجور الاملاق ، ولولا الفقر ما كان الغنى ، ولولا الشقاء ما وجدت السعادة

ان المجتمع الانسانى اليوم ميدان حرب يعترك فيـه الناس ويقتتلون ، لا يرحم احدٌ احداً ، ولا يَلوى مقبل على مدبر ، يَعْدُون ويسرعون ويتصادمون ويختبطون ، ويأخذ بعضهم بتلابيب بعض ، كأنهم هاربون من معركة ، أو مفلتون من مارستان ، ودماء الشرف والفضيلة تسيل على أقدامهم ، وتموج موج البحر الزاخر ، يغرق فيـه من يغرق ، وينجو من ينجو

أتدرون لم سقطت الهيئة الاجتماعية هـذا السقوط الهائل الذى لم تصل الى مثله فى دور من أدوار حياتهـا الماضية ؟ ولم هذا الجنون الاجتماعى الثائر فى أدمغة الناس

خاصتهم وعامتهم ، علمائهم وجهلائهم ؟ ولم هـذه الحروب القائمة ، والثورات الدائمة ، والقتال المستحر بين البشر جماعات وأفراداً ، وقبائل وشعوباً ، وممالك ودولاً ؟

لاسبب لذلك سوى شيء واحـد ، هو أن الناس يعتقدون اعتقاداً خطأ أن المـال معيار السعادة وميزانها الذى توزن به ، فهم يسعون اليه لامن أجل الجمع والادخار ، العيش كما يجب أن يكون ، بل من أجل القوت وكفاف والمـالُ فى العالم كمية محدودة لا تكفى لملء جميع الخزائن ، وتهدئة كافة المطامع ، فهم يتناهبونه ويتصارعون من حوله كما تتصارع الكلاب حول الجيف الملقاة ، ويسمون عملهم هذا تنازع الحياة ، أو تنازع البقاء ، وما هو بالتنازع ولا التناظر ، انما هو التفانى والتناحر ، والدم السائل ، والعدوان الدائم ، والشقاء الخالد

والعلاج الوحيد لهـذه الحال المخيفة المزعجة أن يفهم الناس ألاّ صلة بين المـال وبين السعادة ، وأن الافراط

فى الطلب شقاء كالتقصير فيه ، وأن سعادة العيش وهناءه وراحة النفس وسكونها لا تأتى إلا من طريق واحد . وهو الاعتدال

***

الآن أستطيع غير خاش لوماً ولا عتباً أن أقضى للناشىء الفقير على الناشىء الغنى قضاء لا مجاملة فيه ولا محاباة ، ومن ذا الذى يجامل الفقراء ويحابيهم ! وأن أقول للناشىء الفقير ، صبراً يابنى وعزاء ، فانك لم تخلق إلا للعمل ، فاعمل واجتهد ، ولا تعتمد فى حياتك إلا على نفسك ، ولا تحصد غير الذى زرعته يدك ، فان لم تجد معلماً يعلمك فعلم نفسك ، والزمن خير مؤدب ومهذب ، وإن ضاقت بك المدارس فادرس فى مدرسة الكون ففيها علوم الحياة بأجمعها ، وإن كنت ممن لا يعدون وظائف الحكومة ومناصبها غنما عظيما كما يعدها القَعدة العاجزون ، فهاهو ذا فضاء الارض

أمامك فامش فيه وفتش عن قوتك كما تفتش عنه الطيور القواطع التى ليس لها مثل عقلك وفطنتك ، وحيلتك وقوتك ، فان الله لم يخلقك فى هذا العالم ولم يبرزك إلى هذا الوجود لتموت فيه جوعا أو تهلك ظمأ ، ولا تصدق مايقولونه لك من أن الناشىء الغنى أسعد منك حالا ، وأوفر حظاً ، وإن راقك منظره ، وأعجبك ظاهره ، فلكل نفس همومها وآلامها ، وهموم الفقر على شدتها أقل هموم الحياة وأهونها

وحسبك من السعادة فى الدنيا ضمير نقى ونفس هادئة وقلب شريف وأن تعمل بيدك فترى بعينيك ثمرات أعمالك تنمو بين يديك وتترعرع فتغتبط بمرآها اغتباط الزارع بمنظر الخضرة والنماء فى الارض التى فلحها بيده ، وتعهدها بنفسه ، وسقاها من عرق جبينه

*

قتيلة الجوع

قرأت فى بعض الصحف منذ أيام أن رجال الشرطة عثروا بجثة امرأة فى جبل المقطم فظنوها قتيلة أو منتحرة حتى حضر الطبيب ففحص أمرها وقرر أنها ماتت جوعاً

تلك أول مرة سمعت فيها بمثل هـذه الميتة الشنعاء فى مصر ، وهذا أول يوم سجلتْ فيه يدُ الدهر فى جريدة مصائبنا ورزايانا هذا الشقاء الجديد

لم تمت هـذه المسكينة فى مفازة منقطعة أو بيداء مَجهل فنفزع فى أمرها إلى قضاء الله وقدره كما نفعل فى جميع حوادث الكون التى لاحول لنا فيها ولا حيلة ، بل ماتت بين سمع الناس وبصرهم ، وفى ملتقى غاديهم برائحهم ، ولا بد أنهـا مرت قبل موتها بكثير من المنازل تطرقها فلم تسمع مجيباً ، ووقفت فى طريق كثير من الناس تسألهم المعونة على

أمرها فلم تجد من يمد اليها يده بلقمة واحدة تسد بها جَوْعتها ، فما أقسى قلب الانسان ، وما أبعد الرحمة من فؤاده ، وما أقدره على الوقوف موقف الثبات والصبر أمام مشاهد البؤس ومواقف الشقاء

لِمَ ذهبت هذه البائسة المسكينة إلى جبل المقطم فى ساعتها الاخيرة ؟ لعلها ظنت أن الصخر ألين قلباً من الانسان فذهبت اليه تبثه شكواها ، أو أن الوحش أقرب منه رحمة لجاءته تستجديه فضلة طعامه ، وأحسبُ لو أن الصخر فهم شكواها لاشكاها [1] ولو أن الوحش ألمَّ بسريرة نفسها لرثى لها وحنا عليها ، لانى لا أعرف مخلوقاً على وجه الارض يستطيع أن يملك نفسه ودموعه أمام مشهد الجوع وعذابه غير الانسان

ألم يلتق بها أحد فى طريقها فيرى صفرة وجهها وترقرق مدامعها وذبول جسمها فيعلم أنها جائعة فيرحمها !

---

(١) شكا اليه فأشكاه اى ارضاه وقبل شكواه

ألم يكن لها جار يسمع أنينها فى جوف الليل ويرى غدوها ورواحها حائرة ملتاعة فى طلب القوت فيكفيها أمره!

أأقفرت البلاد من الخبز والقوت فلا يوجد بين أفراد الامة جميعها من أصحاب قصورها إلى سكان أكواخها رجل واحد يملك رغيفاً واحداً زائداً عن حاجته فيتصدق به عليها؟

اللهم لا هذا ولا ذاك، فالمال والحمد لله كثير، والخبز أكثر منه، ومواضع الخلات والحاجات بادية مكشوفة يراها الراءون، ويسمع صداها السامعون، ولكن الامة التى ألفت ألا تبذل معروفها الا فى مواقف المفاخرة والمكاثرة، والتى لا تفهم من معنى الاحسان إلا أنه الغُل الثقيل الذى يوضع فى رقاب الفقراء لاستعبادهم واسترقاقهم، لا يمكن أن ينشأ فيها محسن مخلص يحمل بين جنبيه قلباً رحيما

لقد كان الاحسان فى مصر كثيراً فى عصر الاكتتابات والحفلات، وفى العهد الذى كانت تسجل فيه حسنات المحسنين

على صفحات الجرائد تسجيلا يشهده ثلاثة عشر مليونا من النفوس ، أما اليوم وقد أصبح كل امرىء موكولا إلى نفسه ومسئولا أمام ربه وضميره أن يتفقدجيرته وأصدقاءه وذوى رحمه ويتلمس مواضع خَلاتهم وحاجاتهم ليسدها فهاهم الفقراء يموتون جوعا بين كُثبان الرمال وفوق شعاف الجبال من حيث لاراحم ولا معين

لقدكان فى استطاعة تلك المرأة المسكينة أن تسرق رغيفاً تتبلّغ به أو درهما تبتاع به رغيفاً فلم تفعل ، وكان فى استطاعتها أن تعرض عِرْضها فى تلك السوق التى يعرِض فيها الفتيات الجائعات أعراضهن فلم تفعل ، لانها امرأة شريفة تفضل أن تموت بحسرتها ، على أن تعيش بعارها ، فما أعظم جريمة الامة التى لايموت فيها جوعا غير شرفائها وأعفائها

*

الادب الكاذب

كنا وكان الادب حالا قائمة بالنفس تمنع صاحبها أن يقدم على شر ، أو يحدث نفسه به ، أو يكون عوناً لفاعليه عليه ، فان ساقته اليه شهوة من شهوات النفس ، أو نزوة من نزوات العقل ، وجد فى نفسه عند غشيانه من المضض والارتماض ما ينغصه عليه ويكدر صفوه وهناءه ، ثم أصبحنا واذا الادب صور ورسوم ، وحركات وسكنات ، واشارات والتفاتات ، لادخل لها فى جوهر النفس ، ولا علاقة لها بشعورها ووجدانها ، فأحسن الناس عند الناس أدباً وأكرمهم خلقاً ، وأشرفهم مذهباً ، من يكذب على أن يكون كذبه سائغاً مهذباً ، ومن يخلف الوعد على أن يحسن الاعتذار عن إخلافه ، ومن يبغض الناس جميعاً بقلبه على أن يحبهم جميعاً بلسانه ، ومن يقترف ماشاء من الجرائم

والذنوب على أن يحسن التخلص من نتائجها وآثارها ، وأفضل من هؤلاء جميعاً عندهم أولئك الذين برعو فى فن « الآداب العالية » أى فن الرياء والنفاق ، وتفوقوا فى استظهار تلك الصور الجامدة التى تواضع عليها جماعةُ « الظرفاء » فى التحية والسلام . واللقاء والفراق ، والزيارة والاستزارة ، والمجالسة والمنادمة ، وأمثال ذلك مما يرجع العلم به غالباً إلى صغر النفس وإسفافها ، أكثر مما يرجع إلى أَدبها وكمالها ، فكأن الناس لايستنكرون من السيئة إلا لونها ، فاذا جاءتهم فى ثوب غير ثوبها أنسوا بها وسكنوا إليها ، ولا يعجبهم من الحسنة إلا صورتها ، فاذا لم تأتهم فى الصورة التى تعجبهم وتروقهم عافوها وزهدوا فيها ، أى إنهم يفضلون اليد الناعمة التى تحمل خنجراً ، على اليد الخشنة التى تحمل بَدرة ، ويؤثرون كأس البللور المملوءة سماً على كأس الخزف المملوءة ماء زلالا ، ولقد سمعت بأذنى من أخذ يعُد لرجل من أصدقائه من السيئات ما لو وزع على الخلق جميعاً للوث

صحائفهم ، ثم ختم كلامه بقوله : وإنى على ذلك أحبه وأجله لأنه رجل « ظريف » . وأغرب من ذلك كله أنهم وضعوا قوانين أدبية للمغازلة والمعاقرة والمقامرة كأنّ جميع هذه الأشياء فضائل لاشك فيها ، وكأنّ الرذيلة وحدها هى الخروج عن تلك القوانين التى وضعت لها ، وما عهدنا يبعيد بذلك القاضى المصرى الذى أجمع الناس فى مصر منذ أيام على احتقاره وازدرائه لا لأنه لعب القمار ، بل لأنه تلاعب بأوراق اللعب فى أحد أندية القمار . وسموه لصاً دنيئاً ، والقمار لصوصية من أساسه إلى ذروته

***

أعرف فى هذا البلد رجلين يجمعهما عمل واحد ، ومركز واحد ، أحدهما خير الناس ، والآخر شر الناس ، وان كان الناس لايرون رأيى فيهما

أما الأول فهو رجل قد أخذ نفسه منذ نشأته بمطالعة

كتب الأخلاق والآداب ومزاولتها ليله ونهاره فقرأ فيها فصول الصدق والأمانة والعفة والزهد، والسماحة والنجدة، والمروءة والكرم، وقصص السمحاء والأجواد، والرحماء والمؤثرين على أنفسهم، وافتتن بتلك الفضائل افتتاناً شديداً، ثم دخل غمار المجتمع بعد ذلك وقد استقر فى نفسه أن الناس قد عرفوا من الأدب مثل ما عرف، وفهموا من معناه مثل مافهم، وأخذوا منه بمثل الذى أخذ، فغضب فى وجه الأشرار، وابتسم فى وجه الأخيار، والأولون أكثر عدداً، وأعظم سلطة وجاهاً، فسمى عند الفريقين شرساً متوحشاً، وامتدح إحسان المحسن، وذم إساءة المسىء، والمحسنون فى الدنيا قليلون، فسمى وقحاً بذيئاً حتى بين المحسنين، وبذل معروفه للعاجز الخامل، ومنعه القادرَ النابهَ، فلم يشعر بمعروفه أحد، فسمى بخيلا، واعتبر الناسَ بقيمهم الأدبية، لا بمقاديرهم الدنيوية، فلقى الأغنياء والأشراف بمثل مايلقى به العامة والدهماء، فسمى متكبراً، وقال لمن جاءه

يساومه فى ذمته إنى أحبك ، ولكنى أحب الحق أكثر منك ، فكثر أعداؤه وقل أصدقاؤه

أما الثانى فأقل سيئاته انه لا يفى بوعد يعده ، ولكنه يحسن الاعتذار عن إخلاف الوعود فلا يسميه أحد مخلافاً ، وما رآه الناس فى يوم من أيامه عاطفاً على بائس أو منكوب ، ولكنه يبكى لمصاب البائسين والمنكوبين ، ويستبكى لهم ، فعد من الأجواد السمحاء ، وكثيراً ما أكل أموال اليتامى وأساء الوصاية عليهم ، ولكنه لا يزال يمسح رءوسهم ، ويحتضنهم إلى صدره فى المجامع والمشاهد ، كأرحم الرحماء وأشفق المشفقين ، فسمى الوصىّ الرحيم ، ولا يفتأ ليله ونهاره ، ينال من أعراض الناس ويستنزل من أقدارهم ، إلا أنه يخلط جده بالهزل ، ومرارته بالحلاوة ، فلم يعرف الناس عنه شيئاً سوى أنه الماجن الظريف

ذلك هو الأدب الذى أصبح فى هذا العصر رأيا عاماً يشترك فيه خاصة الناس وعامتهم ، وعقلاؤهم وجهلاؤهم ، ويعلمه

الوالدُ ولدَه والأستاذ تلميذه ، ويقتتلون اقتتالا شديداً على انتحاله والتجمل به ، كما يقتتلون على أعز الأشياء وأنفسها حتى تبدلت الصور ، وانعكست الحقائق ، وأصبح الرجل المخلص أحرج الناس بصدقه وإخلاصه صدراً ، وأضلهم بها سبيلا ، لايدرى أيكذب فيسخط ربه ويرضى الكاذبين ، أم يَصدق فيرضى نفسه ويسخط الناس أجمعين ، ولا يعلم أيهجر هذا العالم إلى عزلة منقطعة يقضى فيها بقية أيام حياته غريباً شريداً ، أم يبرز للعيون فيموت هما وكمداً

* * *

يجب أن يكون أدب النفس أساس أدب الجوارح ، وأن يكون أدب الجوارح تابعاً له وأثراً من آثاره ، فان أبى الناس إلا أن يجعلوا أدب الحركات والسكنات أساس صلاتهم وعلائقهم ، وميزان قيمهم وأقدارهم ، فليعترفوا أن العالم كله مسرح تمثيلى ، وأنهم لايؤدون فيه غير وظيفة الممثلين الكاذبين —

ايفون الصغيرة [١]

« مترجمة »

ماتت وكأنها لم تمت ، ليس على وجهها أثر واحد من آثار الآلام التى قاستها فى مرضها ، يحسبها الرائى نائمة نوماً هادئاً لذيذاً ، ويخيل إليه أنه يسمع صوت أنفاسها المترددة ، ويرى هبوط صدرها وارتفاعه

أين صفرة الموت ونحوله ، أين آلام النزاع وشدائده ، أين الغضون التى خلفتها الأوجاع فوق جبينها ، والدوائر الزرقاء التى رسمتها حول جفنيها

(١) هي فتاة صغيرة عثر بها فى طفولتها على باب احدى الكنائس فى فرنسا ناظر مدرسة قروية وكان شيخاً كبيراً مات جميع اولاده وأحفاده وبقى هو من بعدهم وحيداً مستوحشاً فأنس بها حين وجدها انساً شديداً وسماها (ايفون الصغيرة) لانه لم يكن يعلم من امر نسبها شيئاً . فأصبحت سلوته الوحيدة في شيخوخته وعنى بتربيتها وتهذيبها حتى بلغت السابعة من عمرها . فأصابها مرض لم يمهلها الا بضع ليال حتى ذهب بها الى ربها فرثاها احد الشعراء بهذه القطعة

لقد مات كل ذلك بموتها ، فعادلها رونقها وبهاؤها ، وأصبحت كأنما قد خلقت الساعةَ ولمَّا تنبعث الروح فى جسدها

بهذا الوجه الجميل المشرق كانت جالسة منذ أيام قلائل أمام المِدفئة باسمة مطمئنة تلاعب هرتها ، وبهذا الفم الأرجوانى القانى كانت تغنى أمام قفص عصفورها أنشودة السعادة والحياة ، وبهاتين اليدين البيضاوين اللينتين كانت تقطف أزهار الربيع وتقدمها هدية إلى أبيها الشيخ ، أما اليوم فقد انقضى ذلك كله لأن حياتها قد انقضت

آخر كلمة نطقت بها قبل موتها « سأموت الساعة فائتونى بعصفورى أودعه » فأتوها بقفص عصفورها وعلقوه بقائم سريرها فظلت تنظر إليه باسمة متطلّقة ، وظل العصفور يلعب ويغرد تغريداً شجياً ، وهو لا يعلم أنه ينشد فوق رأسها أنشودة الموت

وهنا وقف الشيخ الذى تبنَّاها بجانب فراشها واجماً

حزيناً ، مشرد اللب ، ذاهل العقل ،ومد يده إلى يدها الضعيفة الواهية التى كانت بالامس عكاز شيخوخته ، وسند حياته ، فأخذها ووضعها على صدره ، كأنما يريد أن يمد حياتها بتلك البقية الباقية فى قلبه من الحياة لتعيش من بعده ولو ساعة واحدة حتى لا يراها تموت بين يديه ، وظل على حاله تلك هنيهة ، ثم التفت فجأة إلى أصدقائه وقال لهم ، ها هى ذى الحرارة قد بدأت تدب فى جسمها شيئاً فشيئاً ، فنظروا إليه آسفين محزونين ، ثم نكسوا أبصارهم ، وأسبلوا مدامعهم فظل يدير بينهم عيوناً حائرة ، ويتنقل بنظراته ههنا وههنا ، كأنما يسألهم المعونة على أمره ، ومن ذا يعين على القدر ، أو يعترض سهم المنية القاتل

وما هى إلا لحظة حتى شعر أن يدها تجذب يده فانتفض وحنا عليها فطوقته بذراعيها الضعيفتين وضمته ضمة كانت فيها نفسُها

إنا لله وإنا إليه راجعون ، ماتت إيفون الصغيرة ،

ماتت الطفلة الوديعة الجميلة ، ماتت الفتاة الرزينة الصابرة ، فى سبيل الله نجم تلألأ فى سماء الحياة لحظة ثم هوى، وغصن أزهر فى روض المنى ساعة ثم ذوى ، وقدح من البللور لم تكد تلمسه الشفاه حتى انكسر ، وعقد من اللؤلؤ لم ينتظم فى سمطه حتى انتثر

هذه الغرف التى طالما أنارتها بابتساماتها حتى فى الساعة التى تختفى فيها جميع الابتسامات ، والحديقة التى كانت تقضى فيها كل يوم بضع ساعات من ليلها أو نهارها تلاعب أطيارها ، وتقطف أزهارها ، وتتعهد أشجارها ، والمماشى التى كانت تخطر على حصبائها فيصير ها شعاع خديها ياقوتاً ومرجاناً ، فدخلت جميعها منها ، وهيهات أن يسعدها الحظ برؤيتها بعد اليوم

كانت إيفون جميلة الخلق طيبة النفس نقية الضمير تحب الاحياء جميعهم ناطقهم وصامتهم ، فلا تبذل من ودها لهرتها المريضة أقل مما تبذل منه لأبيها الشيخ العجوز ،

لا تتودد إلى الشيوخ الفانين أصدقاء أبيها وسجرائه
كثر مما تتودد إلى وافد غريب يهبط قريتها للمرة الأولى
ن حياته ، وما علموها قط اختلفت مع فتى أو فتاة من
لاميذ مدرستها ، لأنها كانت تستهوى الطيب منهم بلطفها
أدبها ، والخبيث بعفوها وصفحها ، وهى وإن لم تكن
علم أنها لقيطة ولكن من كان ينظر فى عينيها ويرى ذبولهما
انكسارهما ولمعانهما الذى يشبه لمعان الدمع الرقراق يخيل
ليه أنها قد ألهمت ما كتمه الناس عنها ، وأنها كانت تعلم
نها لا تعيش فى بيت أبيها بوصاية جدها كما كانوا يقولون
لها ، بل فى بيت محسن كريم لا يعرف من تاريخها ولا من أمر
ميلادها شيئاً ، وكانت لا تزال تتراءى بين شفتيها ابتسامة
حلوة هى الرقية التى كانت تفتح بها أقفال القلوب ثم تنزل
فيما تشاء منها المنزلة التى تريدها ، ولم تكن ابتسامتها
بتسامة التصنع والتكلف التى يرثها أكثر الفتيات عن

أمهاتهن ، بل ابتسامة الحب والإخلاص والحنو والعطف

لذلك عَجِل الموت إليها لأن سكان السماء لايستطيعون أن يعيشوا طويلا على ظهر الأرض

دقت أجراس الكنيسة تنعاها فلم تسمعها ، ولو سمعتها لاهتزت لها فى سريرها شوقاً ولهفة كما كان شأنها فى حياتها ، ثم جاءت ساعةُ الدفن فحملوها على أيديهم ومشوا بها حتى وصلوا إلى الكنيسة فوضعوا نعشها فى ركن من أركانها ثم اجتمعوا حولها يودعونها الوداع الأخير ، فبكاها الشيوخ الذين كانوا يحبونها ويأنسون بها ، والفتيان والفتيات من تلاميذ مدرستها ، والنساء اللواتى كن يحببنها من أجل حبها أبناءهن ، وبكاها أكثرَ من هؤلاء جميعاً ذلك الشيخُ المسكين لأنها كانت كلَّ دنياه فخسرها فى ساعة واحدة

وظل كثير من الوقوف يردد ذكراها ، فيقول أحدهم: طالما رأيتها فى هذا الركن نفسه جالسة وحدها وبيدها

الـكتاب المقدس تتلو آياته ، ويقول الآخر : لقد دخلتُ الـكنيسة ليلة فرأيتها هائمة وحدها فى الظلام الحالك تحت هذه الا قبية فعجبت لصلاحها وتقواها ، وتقول امرأة : لقد عثَرت ابنتى يوماً من الأيام فى منصرفها من مدرستها ببعض الاحجار عثرةً برّحتْ بها فاحتملتها على ظهرها حتى جاءت بها إلى المنزل ، وتقول أخرى : لقد كنت أراها تمر كل يوم بجارتنا فلانة المسكينة فتعطيها رغيفاً من طعامها ثم تستمر أدراجها إلى مدرستها

وهكذا ظل كل منهم يذكر ما يعرف عنها حتى حانت ساعة الدفن فعلت الأصوات بالبكاء ثم غيبوها فى قبرها وحثوا عليها التراب ، وكان الليل قد أظل المكان بجناحيه وساد فيه سكون موحش رهيب فانصرفوا مطرقين واجمين يقولون

« وارحمتاه لها لقد خرجت من الدنيا غريبة كما وفدت اليها »

الملاعب الهزلية

كنت آليت على نفسى مذ أُعلنت هـذه الحرب قبحها الله وقبح كل ما تأتى به ألاَّ أكتب كلمة فى صحيفة سيارة فى شأن من الشؤون العامة خيرها وشرها حتى ينقضى أجلها وأن أترك هـذا القلم هادئاً مطمئناً فى مرقده مدرَجاً فى ذلك الكفن الأبيض الرقيق المنسوج من خيط العنكبوت حتى يأتى ذلك اليوم الذى يستطيع فيه أن ينبعث كما يريد لا كما يُراد منه ، ولكنّ نازلاً نزل بهذا المجتمع المصرى منذ عام أو عامين لم أحفل به فى مبدئه ولم أُلق له بالاً وعَدَدته فى النوازل الصغيرة المترددة التى لا تلبث غيومها أن تنعقد فى سماء البلد حتى تهب عليها نسمة من نسمات الروح الإلهى فتنقشع ، ولكن ها قد

مضى العام والعامان وهو باق فى مكانه لايتحول ولا يتحلحل بل تزداد قدمه على الأيام ثباتاً ورسوخاً ، وأحسبه سيبقى فى مستقبل أيامه أضعاف ما بقى فى ماضيها إن لم نُثر عليه معشر الكتاب حرباً شعواء تهز جدرانه هزاً ، وتدكه دكا ، وتلحق أعاليه بأسافله

لذلك كتبت هذه الكلمة غير مبال بتلك الالية التى كنت آليتها ، فلعل أصدقائى من أفاضل الكتاب يساعدوننى فى هذا الشأن الذى ان عجزنا عنه اليوم فما نحن بقادرين عليه غداً

نزلت بالأمة المصرية نازلةٌ تلك المقاذر العامة التى يسمونها الملاعب الهزلية ، وما هى فى شيء من الهزل ولا الجد ، ولا علاقة لها بالتمثيل والتصوير ، ولا بأى فن من الفنون الأدبية ، فأقبل عليها الناس اقبالا عظيما ، وأُغرموا بها غراماً شديداً ، فليقبلوا عليها ما شاءوا ، وليفتتنوا بها ما أرادوا ، ولكنّ فريقاً واحداً من الأُمة هو الذى نضن

به على تلك المواطن الساقطة أن تطأها قدمُه ، أو تظلل سماوُها رأسه ، لأنا نضن به على كل منقصة فى العالم تزرى به ، أو تنال من كرامته

ذلك الفريق المضنون به وبكرامته هو أنتم معشر الطلبة المصريين اخوتَنا وأبناءنا ، وعنوانَ مجدنا وشرفنا ، وصورةَ وجودنا وحياتنا ، ومناط أمانينا وآمالنا ، فائذنوا لكاتب من كتابكم ، وصديق من أصدقائكم ، أن يحادثكم قليلاً فى هذا الشأن كما يحادث الأب ولده ، أو الأخ أخاه ، لاقاسياً ولا متجبراً ، بل عاتباً متلطفاً ، وأمله عظيم أن ينتهى الحديث بينه وبينكم على ما يحب لكم ، وما يعتقد أنكم تحبون لانفسكم

الحق أقول إن الحياء يكاد يعقد لسانى بين أيديكم فلا أدرى كيف أحدثكم ، ولا ماذا أقول لكم

أأعظكم فى أمر أنتم تعلمون من نتائجه وآثاره وسوء عقباه مثل ما أعلم ! أو أدعوكم الى اجتناب سيئة لاأحسب

أن بين كباركم وصغاركم من يجهل أنها السيئة العظمى التى لم تُرزأ الأُمة بمثلها فى حاضر تاريخها أو ماضيه ! أو أقول لكم إن هـذه الأماكن التى تطؤها أقدامكم انما هى مقابر المجـد والشرف ومدافن الفضائل والأخلاق ومصارع الأعراض والحرمات وهل غاب ذلك عن علم أحد منكم فأعلمكم منه مالا تعلمون !

لايجهل أحد منكم شيئاً مما أقول ، ولـكنه الشباب يغرى الضعيف العاجز عن احتمال سلطانه وسيطرته بالاقدام على تلك المخاطر المهلكة ، فيمضى اليها قُدُما لايجهل مكان الخطر منها ، ولـكنه يعجز عن مغالبة نفسه ومثاورتها حتى يتردى فيها ، وربما كان هذا هو كل الفرق بينى وبينكم

انى لاأرى فى هذه المجامع التى تفتتنون بها وتتهافتون عليها حسنة تغتفر سيئة ، أو جمالاً يفى بقبح ، أو خيراً يعزى عن شر ، فتمثيلها سخيف بارد لايستطيع من أوتى حظا قليلا من سلامة الذوق أن يصبر نفسه ساعة واحدة على النظر

اليه ، وملَحُها ثقيلة مستبشعة لو نطق بها ناطق فى مجتمع من المجتمعات الخاصة ثم قلب نظره فى وجوه الجالسين حوله لرأى فى ابتسامات السخرية المترقرقة فى شفاههم مايذيبه حياء وخجلا ، وأناشيدها سوقية مبتذلة فى موضوعها وصورة أدائها لايطرب لمثلها الا أصحاب الاذواق العامية الخشنة الذين يطربون لنشيد الاذكار وطبول الزار وتعداد النائحات وضجيج الباعة فى الاسواق ، فماذا بقى فيها من وجوه الحسن بعد ذلك ؟

بقى فيها الهزء والسخرية بالطبقات الشريفة العاملة فى الامة كالفلاحين آبائنا وأولياء نعمتنا ، والشيوخ حفظة ديننا وأئمة لغتنا ، والمحامين والاطباء والمعلمين أفاضل الأمة وعيونها ، وغيرهم من طبقات الامة كالصناع والعمال والخدم والاكّارين وأمثالهم

بل بقى ماهو شر من هذا جميعه ، وهو تمثيل الشهوات البدنية والنفسية بجميع ألوانها وضروبها على مشهد من

رجالنا ونسائنا وأطفالنا ، وتصويرُها بتلك الصورة القبيحة التى ترخَى على مثلها الستور ، وتقام من حولها الدعائم والجدران

فلو أن غريباً وفد إلى هذا البلد وهو لايعلم من شأنه شيئاً فذهب إلى مكان من تلك الأمكنة ليرى فى مرآته صورة الامة ممثلة فى مسارحها الوطنية لقضى عليها للنظرة الاولى بأنها أحط الامم وأدناها

ذلك الى مايسمعه فيها من ألفاظ السب والشتم وجمل الفحش والهُجر التى لا يطرق أذنَه مثلها فى موقف من مواقف حياته ، أو مشهد من مشاهدها ، الا اذا قدر له أن يتغلغل بنفسه يوما من الايام فى تلك الاحياء العامية الساقطة حتى يصل إلى « عرب اليسار » أو « عشش الترجمان » فيسمعها هناك فى مشاجرات القرادين ومهاترات الشحاذين

ولقد قال لى أحد الاصدقاء الظرفاء مرة إن شتائم (أم شولح)

قد انتقلت الى بيتى ولا أعرف كيف انتقلت اليه ، فانى أسمع الكثير منها منذ أيام يتردد فى أفواه الاطفال هازلين ، وفى أفواه الخدم جادّين

أتدرون أيها الأصدقاء من هم أولئك الذين يسمون أنفسهم ممثلين ، ويسمون مايهذون به فى مسارحهم روايات، والذين يدعونكم معشر المتعلمين الراقين الى حضور مجامعهم باسم الآداب والفنون ؟

لوأن جماعةً من الزامرين وآخرين من الطبالين وآخرين من القرادين وجماعات غيرهم من الرمالين والمداحين والصفاعين والبهلوانية والحواة والرقاة وبقية السائلين المستجدين الذين يمرون بأبواب المنازل كل يوم ضاجين صارخين فلا نُلقى لهم بالاً ولا نعيرهم أذناً اتفقوا فيما بينهم على أن يكونوا جماعة واحدة تعمل يداً واحدة فى مكان واحد لكانوا هم بعينهم جوق كشكش والبربرى وشرفنطح لافرق بينهم وبينهم سوى أن أولئك يقفون بأبوابنا ضارعين مبتهلين

يقنعون باللقمة ، ويجتزئون بالشربة ، وهؤلاء يأبون إلا أن نقف على أبوابهم و نتعلق بأستارها فلا يفتح لنا حجابهم إلا إذا دفعنا الأتاوة المضروبة علينا

وألطف كلمة سمعتها فى هذا الشأن قول بعض المفكرين (كان الشر مفرقاً فى أنحاء البلد فجمعه كشكش فى مكان واحد)

فهل تسمح لكم نفوسكم أيها الأصدقاء وأنتم عيون الأمة اليقظة ، وعقولها المفكرة ، أن تنخدعوا بألاعيب هؤلاء الخبثاء المحتالين فترفعوهم بأيديكم الى هـذه المرتبة العالية التى لم يخلقوا لها ، ولم يمتوا اليها بسبب من أسباب العلم أو الذكاء أوالشرف أوالخلق ، وهاهم أولاء نوابغ الممثلين فى أمتكم أشقياء بائسون لا يكادون يجدون بين ظهرانيكم ما يقيمون به أوَدَ عيشهم ، أو يعينهم على ما هم بسبيله من خدمة الفن والقيام عليه

من الذى يذهب لمشاهدة التمثيـل الجدى الشريف فى مسارح أبيض ورشدى وعكاشة وأمثالهم ان كنتم أنتم

لاتذهبون اليها ؛ ومن هو أولى بها من بعدكم ان قطعتم صلتكم بها !

أيعجبكم ألا يرى الزائر لتلك المسارح الشريفة حين يزورها غير العامة والسوقة والأميين والجاهلين فاذا فتش عنكم فى مكان آخر غيرها رآكم مزدحمين فى مراقص كشكش والبربرى وأمثالهما راضين عن مقامكم فيها ، مغتبطين بسفاسفها وهذياناتها :

ألا تخشون أن يستنتج مستنتج منهم بعد ذلك وقد راعه هذان المشهدان الغريبان — مشهدكم فى الاجواق الهزلية الساقطة ، ومشهد العامة والسوقة فى الاجواق الجدية الشريفة — ان الامة المصرية أمة غريبة الشأن يفسدها العلم ويصلحها الجهل ، أو أن يتطرف متطرف منهم فى رأيه فيقول : ليت الامة عاشت جاهلة عمياء ، موفوراً لها حظها من الاخلاق والآداب ، فذلك خير لها من علم يهوى بها فى مهواة الشقاء والعار

لقد رأيت فى حياتى صنوف الحيل والكيد وضروب السماجة والوقاحة فلم أر بين المحتالين والمتوقحين من هو أعظم كيداً ولا أسمج وجهاً من هؤلاء القوم

إنهم يحاولون دائماً أن يلبسوا مفاسدهم وشرورهم ثوب الفضيلة والجد ، وهو وان كان ثوباً شفافاً ينم عما وراءه إلا أنه يكفيهم للذود عن أنفسهم فى موقف الجدل والمناظرة كما يكفى البرقعُ الشفاف المرأةَ المتهتكة للدخول فى سلك المخدرات المتحجبات

يمثلون الفلاح أقبح تمثيل ، ولا يتركون مفسدة من المفاسد ولا رذيلة من الرذائل إلا ويلصقونها به ، وينشدون مختلف الاناشيد فى السخرية بشكله ، والهزء بصفاته وأعماله ، ثم لايخجلون أن يقولوا بعد ذلك فى بعض تلك الاناشيد (مادام بلادنا زراعية ، حبوا الفلاح ان كنتوا تحبوا وطنكم)

وينتقدون فى رواياتهم فساد الرجال وخلاعة النساء ، وينقمون على المصرى تبديد أمواله فى سبيل شهواته ، وليس

للنساء فى مسارحهم عمل سوى إغراء الشبان وإغوائهم، وإفساد عقولهم وابتزاز أموالهم فى الساعة التى تمثل فيها هذه الروايات وتُلق هذه الاقوال

ويهدمون اللغة العربية هدماً بهـذه اللهجة العامية الساقطة التى يكتبون بها رواياتهم، وينظمون بها أناشيدهم، وينشرونها فى كل مكان ، ويفسدون بها الملـكات اللغوية فى أذهان المتعلمين ، ثم يزعمون بعد ذلك أنهم أنصار اللغة العربية وحماتها فيقولون بتلك اللهجة العامية الساقطة (مالها لغتنا العربية ، آل همجية ، يادى المصيبة يادى العار ، فشر دى لغة المدنية ، اتمسكوا بها صغار وكبار)

ولا يستحيون أن يجمعوا فى نشيد واحد من رواية واحدة بين قولهم (أبيع هدومى عشان بوسه ، من خدك القشطه ياملبن ، ياحلوة زى البسبوسة ، يامهلبية تمام واحسن) وبين قولهم (مصر يحميك ربك ، ماتشوفى الا أيام سعدك) أى أنهم يصفعون الأمة على وجهها هذه.

الصفعات المؤلمة ثم يحاولون أن يترضوها بعد ذلك بترديد كلمات « الوطنية » و « حب وطنك » و « مت فى سبيل الأوطان » وأمثالها من الكلمات العذبة الجميلة التى لامعنى لها فى أفواههم إلا انهم يعتقدون ان المصريين قد بلغوا من الغفلة والبله مبلغاً لا يبلغه اطفال المكاتب ولا سكان المارستانات

لا أرى لكم معشر الطلبة المصريين امام هذه النازلة العظمى التى نزلت بنا إلا ان ينتدب فريق من عقلائكم نفسَه لنصيحة إخوانه بالامتناع عن الذهاب إلى تلك الملاعب وشرح مضارها وسيآتها لهم . فان امتناع فريق منكم يؤثر على فريق آخر ، وهكذا حتى يصبح فى عرفكم جميعاً ان الدخول إلى تلك الأماكن عار يخجل مرتكبه من الظهور به بين أصدقائه ومعارفه .

نحن فى حالة نحتاج فيها إلى أن يعلم الناس عنا فى كل مكان أننا أمة أخلاق وآداب ، وأن فى نفوس أفرادنا من الصفات والمزايا مايرفعنا إلى مصاف الامم العظيمة ، ومقياسُ

عظمة الامم عند العالم انما هو بصفاتها ومزاياها قبل أن يكون بأى شىء غير ذلك ، فان فات آباءنا أن يورثونا خلق العظمة والاباء فى عهدهم فلنتخلق به نحن لنورثه أبناءنا من بعدنا

انكم لا تذهبون فى الحقيقة إلى هذه الأماكن وحدكم، بل يذهب اليها معكم اخوانكم وأخواتكم ، وبقية أفراد أسركم، لانكم تقصون عليهم عند عودتكم منها ماشاهدتم ، وتروون لهم ماسمعتم ، فكأن سكان البلد جميعاً رجالا ونساء كباراً وصغاراً يجتمعون فى هذه البؤر الفاسدة فى ساعة واحدة ، فهل يستطيع متصور أن يتصور خطراً على الامة وعلى أخلاقها وآدابها أعظم من هذا الخطر

انى لاأدعوكم إلى الامتناع عن الالمام بهذه المقاذر العامة من أجل أنفسكم فقط ، بل من أجل اخوتكم وأخواتكم اليوم ، ومن أجل أبنائكم وأحفادكم غداً ، ومن أجل مستقبل الامة المصرية كلها الذى أعتقد أنه أمانة فى أيديكم،

وديعة موكولة الى كرم نفوسكم ، وشرف ضمائركم

إهدموا هذه الاماكن هدماً بالاعراض عنها واحتقارها ، ثم قفوا بعد ذلك على أطلالها البالية هاتفين صائحين صياح الظافر المنتصر قائلين . ها قد نجت الامة من خطر عظيم ، وها نحن قد قمنا جميعاً بالواجب علينا لوطننا

الشيخ على يوسف

هكذا تقوم القيامة ، وهكذا ينفخ فى الصور ، وهكذا تطوى السماء طى السجل للكتاب

أفيما بين يوم وليلة يصبح هذا الرجل الذى كان ملء الافئدة والصدور ، وملء الاسماع والابصار ، وملء الارجاء والاجواء ، جثة ضاوية نحيلة مدرجة فى كفن ملحدة فى مهوى من باطن الارض سحيق

ما أعظم الفرق بين الحياة والموت ! تغرب الشمس فلا تلبث أن تطلع من مشرقها ، وتتراكم السحب فوقها فلا تلبث أن تنفرج عنها حينما تهب عليها الرياح الباردة ، وتعرى الاشجار عن أوراقها ثم تعود إلى جمالها مخضرة نضرة حينما تهب عليها نسمات الربيع ، وينام الاحياء فى مضاجعهم حتى اذا طلع عليهم الكوكب النهارىُّ وعبثت أشعته بأهداب

جفونهم قاموا من مراقدهم وذهبوا فى سبلهم التى خلقوا لها ، ويموت الميت فلا ينتظره منتظر ، ولا يؤمل أوبته آمل ؛ فكأنّ ما صار إليه العدم الذى لم يسبقه وجود

اللهم إنا نعلم أن الموت غاية كل حى ، وأن مقاديرك التى تجريها بين عبادك ليست سهاماً طائشة ، ولا نياقاً عشواء . وأن ورود الحياة لا يمكن أن تنبت إلا فى التربة التى نبتت فيها أشواك الموت ، ولكننا لا نستطيع أن نملك عيوننا من البكاء ولا قلوبنا من الجزع ، إذا فارقنا عزيز علينا ، لأن ساحة الصبر التى منحتنا ، أضيق من أن تسع نازلة البلاء التى ابتليتنا فاغفر اللهم لنا جزعنا وبكاءنا على الهلكى والذاهبين

اللهم انك تعلم انا نسير من حياتنا هذه فى صحراء محرقة لا نجد فيها ظلاً نستظل به ، ولا أكمةً نأوى إليها ، وأن الصديق الذى نعثر به فى طريق حياتنا هو بمنزلة الدوحة الخضراء التى ننتهى اليها فى تلك الصحراء بعد الأين والكلال وطول السير والسرى فنترامى فى ظلالها الوارفة

هاتئين مغتبطين ، فاذا هبت ريح عاصفة على تلك الدوحة فاقتلعتها من جذورها وطارت بها فى جو السماء وأصبحنا من بعدها ضاحين بارزين فانا لانجد بدأ من البكاء والجزع ، لأن من الشقاء مالا يستطاع احتماله . ولا يطاق تجرع كأسه

لقد كان هذا الرجل العزاء الباقى لنا عن كل ذاهب ، والنجم المتلألىء الذى كنا نتنوره من حين إلى حين فى هذه السماء المظلمة المدلهمة المقفرة من الكواكب والنجوم ، والدوحةَ الخضراء التى كنا نلوذ بظلالها من لفحات هذه الحياة وزفراتها ، فنحن إن بكيناه فانما نبكى الامل الذاهب ، والسعادة الراحلة ، والحياة الطيبة ، ومن هو أولى بالتفجع والبكاء من سعادتنا وآمالنا !

ما كنا نرجو لهذه الامة غير هذين الرجلين ، ميت الامس الشيخ محمد عبده ، وميت اليوم الشيخ على يوسف فقد كانا لها طودين شامخين رابضين على أكنافها ، يمسكها الاول أن تزل بها مزالق المدنية الخالبة فيذهب دينها ،

ويمسكها الثانى أن تطير بها أحلام السياسة الكاذبة فتذهب جامعتها ، واليوم لانرجو لها من بعدهما أحداً ، فويل للامة فى دينها ، وويل لها فى جامعتها

العلماء والخطباء والكتاب فى هذه الأمة كثير، ولكن الرجال قليل

إنما ينفع الامةَ ويضطلع بخطوبها ويحمل اعباءها على عاتقه الرجلُ الذى يشعر من نفسه بأنه ينزل منها منزلة رئيس الاسرة من أسرته التى يعلم أنه مأخوذ بالقيام عليها ، والسعى لها ، فيقوم لها بكل ماتريد ؛ ويسعى لها سعى الكادح المجد ، ويرحم صغيرها ، ويحنو على كبيرها ، ويحتمل مغارمها ، ويغتفر عبث أطفالها ، وجهل شيوخها ، ويرى لها فى كل شأن من شؤونها خيراً مما ترى لنفسها ، أرضاها ذلك أم أغضبها ، من حيث لايمن عليها بذلك ، ولا يطلب عندها جزاء ولاأجراً ، بل من حيث لاتعلم ما يلاقى بينه وبين نفسه من آلام الحياة، وما يعالج من شدائدها فى سبيلها

وكذلك كان شأن الشيخ على يوسف فى أمته ، فقدمات بموته آخر من بقى لها من الرجال

لقد كان الذين يعرفونه أقل من الذين يجهلونه ، لان الذين ينظرون ببصائرهم أقل من الذين ينظرون بأبصارهم ، ولأن الحقيقة الكامنة فى سويداء قلبه كانت أعمق مكانا ، وأدق مسلكا ، من أن تتناولها النظرة الطائرة ، ولانه كان مخلصاً متحنثاً يعمل فى سره أكثر مما يعمل فى علانيته ، ثم لايدل بنفسه فى كلتا الحالتين على نفسه

رأيته فى حادثة الأزهر فى تلك الايام التى كان يظن فيها كثير من الناس أنه حرب على الازهر والازهريين يقضى كثيراً من لياليه متردداً على أبواب القائمين بالامر ضارعاً اليهم أن ينيلوا هؤلاء القوم مطالبهم أو بعض مطالبهم قائلا عنهم ما كان يقوله النبى صلى الله عليه وسلم عن فئة حنين « اللهم أن تهلك هذه الفئة فلن تعبد بعداليوم على ظهر الارض أبداً » فلا يقف فى سبيله الا حماقة أولئك

الذين كان يظن هؤلاء المساكين أنهم أصدقاؤهم وهم أعدى أعدائهم

ورأيته يضم إلى كنفه كثيراً من أصدقائه الذين نبا بهم الدهر بعد سقوط دولة عبد الحميد وتنكر لهم الناس جميعاً خصوصاً أولئك الذين كانوا يزدلفون إليهم أيام إقبالهم ، ويمرغون وجوههم على أعتاب قصورهم ، وكان يلاقى فى سبيل ذلك من عتب العاتبين عليه ولوم اللائمين له مالا يستطاع احتماله ، فلم يبال بشىء من ذلك

ورأيت كثيراً من أعدائه الذين كانوا فى بعض أيام حياتهم حرباً عليه وشقاء له يعودون إلى حظيرته واحداً بعد آخر يستغفرونه فيجلس إليهم ويتحدث معهم حديث المودة والإخاء كأنما كانوا معه على ميعاد

وما رأيته فى يوم من أيام حياته حاقداً ولا واجداً ولا منتقما ولا طالباً بثأر ولا ذائداً عن نفسه إلا فى الساعة التى يعلم فيها أنْ قد جد الجدُّ وأنْ قد أصبح عرضه وشرفه على

خطر ، ولم أر سائلا دخل إليه يشكو حاجة من الحاج صادقا كان فيها أم كاذباً ويسأله المعونة عليها من ماله أو جاهه الا أعانه عليها ما وجد إلى دلك سبيلا ، رحمة وأشفاقاً ، لارياء ونفاقاً ، وكان يرى الرأى ويرى الناس جميعاً غيره فلا يثنيه عنه ثان حتى يتحدر ستر الغيب عن وجه المستقبل فاذا هو مصيب والناس جميعاً مخطئون

فى سبيل الله ياعلى مافقدنا بفقدك ، وفى ذمة الله وجواره تلك الروح الطيبة الطاهرة التى عاشت ما عاشت فى هذه الدنيا سراً كامناً بين أحناء ضلوعك لايكتنهها ولا يستشف باطنها إلا قليل من الناس ، فما رآها الناس جميعاً رأى العين الا وهى طائرة فى جو السماء إلى ربها ، وكذلك شأن هذه الأمة البائسة المحدودة ، لاترى رجالها ، ولا تعرف مكانهم ، ولا تشعر بعظمتهم ، الاوهم ذاهبون الى قبورهم ، حيث تنقطع الصلة بينها وبينهم ، فمثلها ومثلهم كمثل صاحب الدار الذى يجهل أن فى أرضها كنزاً مخبوءاً حتى اذا باعها ممن يستخرج

ذلك الـكنز منها جلس إلى ظل حائطها يبكى بكاء البائس المحزون

لقد كنت يا على مثل الحقيقة ينتفع الناس بوجودها ولا يفهمونها ، بل كنت أفضل من الحقيقة ، لان الحقيقة يخدمها أعداؤها وأصدقاؤها ، أما أنت فـكنت تخدم أصدقاءك وأعداءك ، أما الاولون فلأنك كنت تحسن إليهم بجاهك أو بمالك أو برأيك ، وأما الآخرون فقد كانوا يقتاتون من تلك القطرات من الدماء التى كانوا يستقطرونها من عرضك وشرفك ، فويل للفريقين معاً من بعدك ، وكنت القطب الذى تدور حوله رحى الاقلام فى هـذا البلد ، فقد كانت وظيفة الـكتاب أن يشرحوا آراءك أو يفسروا كلماتك أو يكتنهوا مقاصدك أو يوافقوك أو يخالفوك أو يمدحوك أو يذموك ، فان كتبوا فى شأن من الشؤون غير هذا فتَرُوا واستبردوا ، فواضيعة الأقلام وما أضيق مذاهب الـكتاب

بعد رحيلك ، وكنت العصمة التى تعتصم بها الامة فى مواقف بؤسها وشقائها ، ومواطن خطوبها وكروبها ، وما أحسب إلا أن الدهر مدخر لها من ذلك فى مستقبل أيامها أكثر مما ادخر لها فى ماضيها ، فما أكثر شقاءها وبلاءها بعد اليوم

أيها الراحل الكريم : لقد كنت أرجو أن أجد بين جنبى بقية من الصبر أغالب بها هذا الحزن الذى أعالجه فيك حتى يبلى على مدى الأيام كما يبلى الكفن لولا قدرٌ أبعدنى عن موطنك فى آخر أيام حياتك فأحرمنى جلسةً أجلسها بجانب سريرك أسمع فيها آخر كلمة من كلماتك ، وأرى آخر نظرة من نظراتك ، وحال بينى وبين خطوة أخطوها تحت نعشك أجزيك فيها ببعض ما خطوت لى فى حياتك من الخطوات الواسعات ، ووقفةٍ أقفها عند قبرك ساعة دفنك أذرف فيها على تربتك أول دمعة يذرفها الباكون عليك ، فلئن بكيت موتك يوماً فسأبكى حرمانى وداعك أياماً طوالا حتى يجمع الله بينى وبينك

العظمة

ان رأيت شاعراً من الشعراء ، أو عالماً من العلماء ، أو نبيلا في قومه ، أو داعياً في أمته ، قد انقسم الناسُ في النظر اليه وفي تقدير منزلته انقساماً عظيما ، وانفرجت مسافة الخلف بينهم في شأنه ، فافتتن بحبه قوم حتى رفعوه إلى رتبة المَلك ، ودان ببغضه آخرون حتى هبطوا به الى منزلة الشيطان ، فاعلم انه رجل عظيم

العظمة أمر وراء العلم والشعر ، والامارة والوزارة ، والثروة والجاه ، فالعلماء والشعراء والنبلاء كثيرون ، والعظماء منهم قليلون ، وانما هي قوة روحية موهوبة غير مكتسبة تملأ نفس صاحبها شعوراً بأنه رجل غريب في نفسه ومزاج عقله ونزعات أفكاره وأساليب تفكيره غير مطبوع على غرار الرجال ، ولا مقدود على مثالهم ، ولا داخل في كلية من

كلياتهم العامة ، فاذا نزلت نفسهُ من نفسه هـذه المنزلة أصبح لاينظر إلى شيء من الاشياء بعين غير عينه، ولايسمع بأذن غير أذنه ، ولا يمشي في طريق غير الطريق التي مهدها بيده لنفسه ، ولا يجعل لعقل من العقول مهما عظم شأنه وشأنُ صاحبه سلطانا عليه في رأى أوفكر أو مشايعة لمذهب أو مناصبةٍ لطريقةٍ ، بل يرى لشدّة ثقته بنفسه وعلمه بضعف ثقة الناس بنفوسهم أنّ حقاً على الناس جميعاً أن يستقيدوا له ، وينزلوا على حكمه ، ويترسموا مواقع أقدامه في مذاهبه ومراميه ، فترى جميع أعماله وآثاره غريبة نادرة بين آثار الناس وأعمالهم ، تَبهر العيون ، وتدهش الانظار، وتملأ القلوب هيبة وروعة ، فان كان شاعراً كان مبتكراً في معانيه أو طريقته ، أو كاتباً أخذ على النفوس مشاعرَها وأهواءها ، أو فقيهاً هدم من المذاهب قديماً وبنى جديداً ، أو ملكا شغل من صفحات التاريخ ما لم يشغله ملك سواه ، أو وزيراً ساس أمته بسياسة جديدة لاعهد لهم بمثلها من قبل ، أو قائداً ضرب

الضربة البكر التى ترنّ فى مسمع الجوزاء

تلك هى العظمة ، وهذا هو الرجل ، ومن كان هـذا شأنه كان فتنةالناس فى خلواتهم ومجتمعاتهم ، ومعترك أنظارهم وأفهامهم ، ومثار الخلف والشقاق بينهم فى استكناه أمرد ، وتقدير منزلته ، فيعجب به الذين فطروا على الاعجاب بكل غريب ، والافتتان بكل جديد ، حتى ينتقل بهم الاعجاب به الى الافتتان بأقواله وأفعاله ، وحركاته وسكناته ، والاغراق فى حبه ، والمشايعة له ، والسير بعجائبه وغرائبـه فى كل صقع وناد ، فيقع ذلك من نفوس مناظريه وحاسديه والمتمردين على عبقريته ونبوغه موقعاً غير جميل ، فلا يجدون لهم بداً من مقابلة الاغراق فى حبه ، بالاغراق فى بغضه ، على قاعدة المشادة والمعاندة ، وهنالك تحتدم المعركة الهائلة بين أنصاره وخصومه ، فيهاجمه هؤلاء يحاولون استلاب عظمته منه ، ويناضل عنه أولئك يريدون استبقاءها فى يده ، وهو واقف بينهم يدير أنظاره فيهم هادئاً مغتبطاً ، لايحزن ولا ييتئس ، لانه يعلم أن

جميع هذه الأصوات الصارخة الصاخبة حوله إنما هى أبواق شهرته وعظمته

لا أريد أن أقول إن الرجل العظيم مصيب فى كل مايرى وما يفعل ، وما ينتهج لنفسه وللناس من المناهج والخطط، فربما كان من هو أضعف منه قوة ، وأخمل ذكراً ، أسدمنه رأياً، وأصدق نظراً ، وإنما أريد أن أقول إنّ أحداً من الناس لا يستطيع أن يشغل أقلام الكتاب ، وعقول المفكرين ، وألسنة الناطقين ، وقلوب المحبين والمبغضين ، إلا الرجل العظيم

أحب علياً قوم حتى كفروا بحبه ، وأبغضه آخرون حتى كفروا ببغضه ، وسمى بعض الناس أبا بكر وعمر شيخى المسلمين ، وأنكر بعضهم صحبتهما وإخلاصهما ، وعاش محيي الدين بن العربى بين فئة تراه قطب الأولياء ، وأخرى تراه شيخ الملحدين ، واغتبط فريق من المسلمين بابن رشد فسموه فيلسوف الاسلام ، ونقم عليه فريق فملأوا وجهه بصاقاً فى المسجد الجامع ، وسمى قوم صاحب كتاب الاحياء حجة

الاسلام ، ومزق آخرون كتابه ونثروه فى مهاب الرياح ، وعاش المعرى بين رضا الراضين عنه ، ونقمة الناقمين عليه ، يلثم الاولون مواطئ نعاله ، ويسحبه الآخرون على وجهه فى الطرقات العامة ، وشرب سقراط كأس السم بين أفواه باسمة شماتة به ، وعيون دامعة حزناً عليه ، وجرت الاقلام بمدح المتنبي تارة فاذا هو سيد الشعراء ، وبذمه أخرى فاذا هو أكبر المتكلفين ، ورفع قوم شكسبير الى مرتبة الكمال الانسانى ، فقالوا نابغة الدهر . وهبط به آخرون إلى أدنى منازل الخسة والدناءة فقالوا المنتحل الكذاب ، وافتتن المفتتنون بنابوليون الاول فعلوا به الى رتبة الانبياء ،وتمكر له خصومه واعداؤه فنلكود فى سلك الحمقى والممرورين ، وذاق كل من لوثر وكالفين وغليلو وفولتير و نيتشه وتولستوى كاسى الحب والبغض فى حياته وبعد مماته الى القطرة الاخيرة منهما ، وما انقسم الناس فى هذا البلد فى هذا العصر فى شأن رجل من الرجال انقسامهم فى شأن جمال الدين ومحمد عبده.

وسعد زغلول ومصطفى كامل وعلى يوسف وقاسم أمين

وما كان واحد من هؤلاء فى المنزلة التى يرفعه اليها المغرقون فى حبه ، أو ينزل به اليها الغالون فى بغضه ، ولكنهم كانوا قوماً عظماء ، فانقسم الناس فى شأنهم ، وذهبوا فى أمرهم هذه المذاهب البعيدة المترامية ، ولا ينقسم الناس هذا الانقسام العظيم ، الا فى شأن الرجل العظيم

ليس معنى الوجود فى الحياة أن يتخذ المرء لنفسه فيها نفقاً يتصل أوله بباب مهده وآخره بباب لحده ثم ينزلق فيه انزلاقاً من حيث لا تراه عين ولا تسمع دبيبه أذن حتى يبلغ نهايته كما تفعل الهوام والحشرات والزاحفات على بطونها من بنات الارض، وانما الوجود قرع الاسماع ، واجتذاب الانظار، وتحريك أوتار القلوب، واستثارة الألسنة الصامتة، وتحريك الاقلام الراقدة ، وتأريث نار الحب فى نفوس الاخيار ، وجمرة البغض فى قلوب الاشرار ، فعظماء الرجال أطول الناس أعماراً وان قصرت حياتهم ، وأعظمهم حظاً فى الوجود

وإن قلت على ظهر الأرض أيامهم

العظمة كالحقيقة يخدمها أعداؤها وأصدقاؤها ، ويحمل أحجارَ هيكلها على رؤوسهم هادموها وبُناتها ؛ فحيث ترى سواد الاعداء ، فهنالك سواد الاصدقاء ، وحيث ترى الفريقين مجتمعين فى صعيد واحد ، فاعلم أن العظمة ماثلة على عرشها العظيم فوق أعناقهم جميعاً

العظمة قصر مشيد مرفوع على ساريتين منحوتتين من حب الناس وبغضائهم ، فلا يزال ذلك القصر ثابتاً فى مكانه لا يتزعزع ولا يتحلحل ما بقيتا فى مكانهما . فاذا سقطت احداهما عجزت الأخرى عن الاستقلال به فسقطت بجانب أختها فسقط هو بسقوطها

لا يعجبنك أن يتفق الناس جميعاً على حبك ، لأنهم لا يتفقون إلا على حب الرجل الضعيف المهين الذى يتجرد لهم من نفسه وعقله ورأيه ومشاعره ثم يَقعى على ذنبه تحت

أقدامهم إقعاء الكلب الذليل ، يضربونه فيصطبر لهم ، ويعبثون به فيبصبص بذنبه طلباً لرضاهم ، ويهتفون به فيقترب ، ويزجرونه فيزدجر

ولا يعجبنك أن يتفقوا على بغضك ، لأنهم لا يتفقون إلا على بغض الخبثاء الاشرار الذين لا يحبون أحداً من الناس فلا يحبهم من الناس أحد

وليعجبك أن يختلفوا فى شأنك ، وينقسموا فى أمرك ويذهبوا فى النظر إليك وتقدير منزلتك كل مذهب ، فتلك آية العظمة ، وذلك شأن الرجل العظيم

كن القائد الذى تعترك الجيوشُ حوله من بين ذائد عنه وعادٍ عليه ، ولا تكن الجندىّ الذى يَسفك دمه ليسقى به دوحة العظمة التى يَنعم فى ظلالها القائد العظيم

كن الناطق الذى تحمل الريح صوته إلى مشارق الارض ومغاربها ، ولا تكن الريح التى تختلف إلى آذان الناس بأصوات الناطقين ، من حيث لا بأبهون لها ، ولا يعرفون لها يدها

كن النبتة النضرة التي تعتلج ذراتُ الأرض في سبيل نضرتها ونمائها ، ولا تكن الذرة التي تطؤها الأقدام ، وتدوسها الحوافر والاخفاف.

كن زعيم الناس إن استطعت ، فان عجزت فكن زعيم نفسك ، ولا تطلب العظمة من طريق التشيع للعظماء والتلصق بهم ، أو مناصبتهم العداء والوقوف في وجههم ، فان فعلت كنت التابع الذليل ، وكانوا الزعماء الاعزاء

*

الانتقاد

سألني بعض الأصدقاء عن رأيي في الانتقاد وشروطه وحدوده ، وآدابه وواجباته ، ورأيي فيه ألا شروط له ولا حدود ، ولا آداب ولا واجبات ، وأن لكل كاتب أو قائل الحق في انتقاد ما يشاء من الكلام ، مصيباً كان أم مخطئاً ، محقاً أم مبطلا ، صادقاً أم كاذباً ، مخلصاً أم غير مخلص ، لأن الانتقاد نوع من أنواع الاستحسان والاستهجان ، وهما حالتان طبيعيتان للانسان لا تفارقانه من صرخة الوضع ، الى أنة النزع ، وكل ماهو طبيعي فهو حق لا ريبة فيه ولا مراء ، فان أصاب الناقد في نقده فقد أحسن الى نفسه والى الناس ، وان أخطأ فسيجد من الناس من يدله على موضع الخطأ فيه ، ويرشده الى مكان الصواب منه ، فلا يزال يتعثر بين الصواب والخطأ ، حتى يستقيم له الصواب كله

فان أبينا عليه أن ينتقد إلا اذا كان كفؤاً فى علمه ومخلصاً فى عمله كما يشترط عليه ذلك أكثر الناس فقد أبينا عليه أن يخط سطراً واحداً فى الانتقاد، وقضينا على ذهنه بالجمود والموت، لاننا لانعرف لهاتين الصفتين حدوداً معينة واضحة، فكل منتقِد يزعمها لنفسه، وكل منتقَد عليه يجرد منتقِده منهما، ومتى سمح الدهر لعامل من العاملين بالاخلاص الكامل فى عمله فيسمح به لجماعة المنتقدين!

على أن المنتقد الناقم لاتمنعه نقمته من أن يكون مصيباً فى بعض ما يقول، لأنه لم يأخذ على نفسه عهداً أن يختلق جميع المآخذ التى يأخذها، وألا يكتب إلا الباطل والمحال، وإنما هو رجل عيّاب بالحق وبالباطل، فهو يفتش عن السيئات الموجودة حتى يفرغ منها فيلجأ الى السيئات المختلقة، ولقد كُتب أول انتقاد فى التاريخ بمداد الضغينة والحقد، فقد كانت توجد فى عصور اليونان القديمة طائفة من الشعراء يجوبون البلاد ويتغنون بالقصائد الحماسية والأناشيد الوطنية

فى الأسواق والمجتمعات ، وبين أيدى الأمراء والعظماء ، فيكرمهم الناس ويجلونهم إجلالاً عظيماً ، ويجزلون لهم العطايا والهبات ، فنفس عليهم مكانتهم هذه جماعة من معاصريهم من الذين لايطوفون طوافهم ، ولا يحظون عند الملوك والعظماء حظوتهم ، فأخذوا يعيبونهم ، ويكتبون الكتب فى انتقاد حركاتهم ، وأصواتهم ، ومعانى أشعارهم ، وأساليبها ، وكان هذا أول عهد العالم بالانتقاد ، والفضل فى ذلك للضغينة والحقد ، فلرذيلة الحقد الفضل الأول فى وجود الانتقاد وبزوغ شمسه المنيرة

كذلك لايمنع الجاهل جهلُه من أن يكون رأيه فى استحسان الكلام واستهجانه رأياً صائباً ، لا بل ربما كان شعوره بحسن الكلام وقبحه — متى رزق حظاً من سلامة الذوق واستقامة الفهم — أصحّ من رأى الاديب المتكلف الذى يتعمل الانتقاد تعملا ، ويتعمق تعمقاً كثيراً فى التفتيش عن حسنات الكلام وسيئاته حتى يضل عنهما ، ورب ابتسامة أو تقطيبة يمران بوجه

السامع العامّى عفواً أنفع للأديب حين يراهما وأعون له على معرفة مكان الحسنة والسيئة من كلامه من مجلد ضخم يكتبه عالم مضطلع بالأدب واللغة فى نقد شعره أو نثره ، وإذا كان من الواجب على كل شاعر أو كاتب أن ينظم أو يكتب للأمة جميعها أو خاصتها وعامتها فلم لا يكون من حق كل فرد من أفرادها متعلماً كان أو جاهلا أن يُدلىَ برأيه فى استحسان ما يُستحسن من كلامه ، واستهجان ما يُستهجن منه

وهل رفع العظماء من رجال الأدب إلى مواقف عظمتهم وسجل لهم أسماءهم فى صحائف المجد ، إلا منزلتهم التى نزلوها من نفوس السواد الأعظم من الأمة ، والمكانة التى نالوها بين عامتها ودهمائها

وبعد فلا يتبرم بالانتقاد ولا يضيق به ذرعاً إلا الغبىُّ الأبله الذى لا يبالى أن يقف الناس على سيئاته فيما بينهم وبين أنفسهم ويزعجه كل الازعاج أن يتحدثوا بها فى مجامعهم ، ولا فرق بين وقوفهم عليها ، وحديثهم عنها ، أو الجبانُ المستطار الذى يخاف من الوهم ، ويَفرقَ من رؤية الأشباح ، ولو رجع

إلى اناته ورويته لعلم أن النقد إن كان صوابا فقد دله على عيوب نفسه فاتقاها ، أو خطأً فلا خوف على سمعته ومكانته منه ، لأن الناس ليسوا عبيد الناقدين ولا اسراهم ، يأمرونهم بالباطل فيذعنون ، ويدعونهم إلى المحال فيتبعون . ولئن استطاع أحد أن يخدع أحداً فى كل شأن من الشئون فانه لا يستطيع أن يخدعه فى شعور نفسه بجمال الكلام أو قبحه ، ولو أن الأصمعى وأبا عبيدة وأبا زيد والمبرد والجاحظ والقالى وقُدامة وابن قتيبة والآمدى وأبا هلال والجرجانى بُعثوا فى هذا العصر من مراقدهم وتكلفوا أن يذموا قصيدة يحبها الناس من شعر شوقى مثلا لما كرهوها ، أو يمدحوا مقالة يستثقلها الناس من نثر «فلان» لما أحبوها ، فالحقيقة موجودة ثابتة لا سبيل للباطل إليها ، فهى تختفى حينًا ، أو تتنكر ، أو تتراءى فى ثوب غير ثوبها ، ولكنها لا تنمحى ولا تزول

فلتنطلق ألسنة الناقدين بما شاءت ، ولتتسع لها صدور المنتقدين ما استطاعت ، فقد حرمنا الحرية فى كل شأن من شؤون حياتنا ، فلا أقل من أن نتمتع بحرية النظر والتفكير

يوم العيد

أفضل ما سمعت فى باب المروءة والاحسان ان امرأة بائسة وقفت ليلة عيد من الاعياد بحانوت تماثيل فى باريس يطرقه الناس فى تلك الليلة لابتياع اللعب لاطفالهم الصغار، فوقع نظرها على تمثال صغير من المرمر هو آية الآيات فى حسنه وجماله، فابتهجت بمرآه ابتهاجاً عظيماً، لا لأنها غريرة بلهاء يستفزها من تلك المناظر الصبيانية ما يستفز الاطفالَ الصغار، بل لانها كانت تنظر اليه بعين ولدها الصغير الذى تركته فى منزلها ينتظر عودتها اليه بلُعبة العيد كما وعدته، فاخذت تساوم صاحب الحانوت فيه ساعة والرجل يغالى به مغالاة شديدة حتى علمت أن يدها لاتستطيع الوصول الى ثمنه، وانها لاتستطيع العودة بدونه، فساقتها الضرورة التى

لا يقدرها قدرها الا من حمل بين جنبيه قلباً كقلب الأم ، وفؤاداً مستطاراً كفؤادها ، إلى أن تمد يدها خفية إلى التمثال فتسرقه من حيث تظن أن الرجل لا يراها ، ولا يشعر بمكانها ثم رجعت أدراجها وقلبها يخفق فى آن واحد خفقتين مختلفتين ، خفقة الخوف من عاقبة فعلتها ، وخفقة السرور بالهدية الجميلة التى ستقدمها بعد لحظات قليلة إلى ولدها ؛ وكان صاحب الحانوت من اليقظة وحدة النظر بحيث لا تفوته معرفة ما يدور حول حانوته ، فما برحت مكانها حتى تبعها يترسم مواقع أقدامها حتى عرف منزلها ، ثم تركها وشأنها وذهب إلى مخفر الشرطة فجاء منه بجنديين للقبض عليها ، وصمدوا جميعاً إلى الغرفة التى تسكنها ففاجأها وهى جالسة بين يدى ولدها تنظر إلى فرحه وابتهاجه بتمثاله نظرات الغبطة والسرور . فهجم الجنديان على الأم فاعتقلاها ، وهجم الرجل على الولد فانتزع التمثال من يده ، فصرخ الولد صرخة عظمى لا على التمثال الذى انتزع منه ، بل على أمه المرتعدة بين

يديه ، وكانت أول كلمة نطق بها وهو جاث بين يدى الرجل: رحماك بأمى يامولاى ، وظل يبكى بكاء شديداً ، فجمد الرجل أمام هذا المنظر المؤثر ، وأطرق اطراقاً طويلا ، وإنه لكذلك إذ دقت أجراس الكنائس مؤذنة باشراق فجر العيد فانتفض انتفاضة شديدة وصعب عليه أن يترك هذه الأسرة الصغيرة المسكينة حزينة منكوبة فى اليوم الذى يفرح فيه الناس جميعا . فالتفت الى الجنديين وقال لهما أظن انى أخطأت فى اتهام هذه المرأة فانى لا أبيع هذا النوع من التماثيل ، فانصرفا لشأنهما ، والتفت هو الى الولد فاستغفره ذنبه اليه والى أمه ، ثم مشى إلى الأم فاعتذر اليها عن خشونته وشدته ، فشكرت له فضله ومروءته ، وجبينها يرفضّ عرقا حياء من فعلتها ، ولم يفارقهما حتّى أسدى اليهما من النعم ما جعل عيدهما أسعد وأهنأ مما كانا يظنان

لا تأتى ليلة العيد حتّى يطلع فى سمائها نجمان مختلفتان ، نجم سعود ، ونجم نحوس ، أما الأول فللسعداء الذين أعدوا

لأنفسهم صنوف الأردية والحلل ، ولأولادهم اللعب والتماثيل ، ولأضيافهم ألوان المطاعم والمشارب . ثم ناموا ليلتهم نوما هادئا مطمئنا تتطاير فيه الأحلام الجميلة حول أسرتهم تطاير الحمائم البيضاء حول المروج الخضراء ، وأما الثانى فللاشقياء الذين يبيتون ليلتهم على مثل جمر الغضا يئنون فى فراشهم أنينا يتصدع له القلب ويذوب له الصخر حزنا على أولادهم الواقفين بين أيديهم يسألونهم بألسنتهم وبأعينهم ماذا أعدوا لهم فى هذا اليوم عن ثياب يفاخرون بها أندادهم ، ولُعب جميلة يزينون بها مناضدهم . فيعللونهم بوعود يعلمون أنهم لا يستطيعون الوفاء بها

فهل لأولئك السعداء أن يمدوا الى هؤلاء الاشقياء يد البر والمعروف . ويفيضوا عليهم فى ذلك اليوم السعيد النزرَ القليل مما أعطاهم الله ليسجلوا لأنفسهم فى باب المروؤة والاحسان ماسُجل لصاحب حانوت التماثيل

ان رجلا يؤمن بالله ورسله ، وآياته وكتبه ، ويحمل بين

جنبيه قلبا يخفق بالرحمة والحنان ، لايستطيع أن يملك عينه من البكاء ، ولا قلبه من الخفقان ، عند مايرى فى يوم العيد ، فى طريقه الى معبده ، أو منصرفه من زياراته ، طفلةً مسكينة بالية الثوب كاسفة البال دامعة العين تحاول ان تتوارى وراء الأسوار والجدران خجلا من أترابها وصواحبها أن تقع أنظارهن على بؤسها وفقرها ، ورثاثة ثوبها ، وفراغ يدها من مثل ماتمتلىء به أيديهن ، فلا يجد بداً من أن يدفع عن نفسه ذلك الألم بالحنو عليها ، وعلى بؤسها ومتربتها لأنه يعلم أن جميع مااجتمع له من صنوف السعادة وألوانها لايوازى ذرة واحدة من السعادة التى يشعر بها فى أعماق قلبه عند مايمسح بيده تلك الدمعة المترقرقة فى عينيها

حسبُ البؤساء من محن الدهر وأرزائه أنهم يقضون جميع أيام حياتهم فى سجن مظلم من بؤسهم وشقائهم ، فلا أقل من أن يتمتعوا برؤية أشعة السعادة فى كل عام مرة أو مرتين

من الشيوخ الى الشبان

لانستطيع أن ننكر عليكم معشر الابناء أن شبابكم أعظم قوة ونشاطا ، وأبعد همة، وأقوى عزيمة، من شيخوختنا ، وان أيدينا الشاحبة المعروقة لاتستطيع ان تصل إلى ماتصل اليه أيديكم الفتية المقتدرة ، وأن آراءكم وأفكاركم وجميع تصوراتكم وآمالكم التى تتلون بها شبوبيتكم أكثر حدة وحرارة ، وأبعد غوراً وعمقا ، من آرائنا وتصوراتنا ، ولكنَّ الذى ننكره عليكم ، ونعتب عليكم فيه أشد العتب ، هوزرايتكم علينا، واحتقاركم لنا، ورميكم إيانا بالجمود مرة ، والخرف أخرى ، كلما اختلفنا معكم فى شأن من الشؤون ، كما أننا ننعى عليكم كبرياءكم وخيلاءكم واعتدادكم بأنفسكم هذا الاعتداد العظيم الذى يخيِّل اليكم معه ان هـذه الألوان الجميلة التى تتلون بها حياتكم الحاضرة انما هى خاصة بكم ، ووقف عليكم ، لم تمر

بعصر غير عصركم ، ولم يزه بها شباب غير شبابكم ، وانكم أنتم أصحاب الفضل الاول فى ابتكارها ، وافتراع عذرتها ، ولو أنكم استطعتم أن تحملوا أنفسكم على الرويّة والاناة ، وان تنتقلوا بأنظاركم من الحاضر الى الماضى ، وإن لم يكن ذلك من طبيعة الشباب ولا من خصائصه، لعلمتم أن هذا العهد الذى يمر بكم اليوم ، والذى تفاخروننا به ، وتُدِلون علينا بأحلامه وأمانيه ، وتصوراته وخيالاته ، قدمر بنا مثله فى زماننا، فقد كان لنا شباب مثل شبابكم نتصور فيه كما تتصورون، ونفكر كما تفكرون، ونرددفى أنفسنا وأحاديثنا وعلى أسلات أقلامنا جميع هذه الآراءوالافكارالتى ترددونهااليوم . حتى انطوى ذلك العهد ، وزالت معالمه ، وهدأت على أثره تلك الثورة النفسية الهادئة التى كانت تعترك بين جوانحنا ، ودخلنا غمار الحياة الحقيقية حياة الجد والعمل ، والنظر والتأمل ، والخبرة والتجربة ، فاستطعنا أن نرجع الى نفوسنا ، ونثوب الى رشدنا ، وان نهبط بهدوء وسكون الى أعماق قلوبنا، ونستعرض تلك

الآراء والأفكار ، والاحلام والآمال ، بامعان وتدقيق ، فاستطعنا ان نميز صالحها من فاسدها ، وصادقها من كاذبها ، ومعقولها من موهومها ، وأن نقلّب الأشياء على جميع وجوهها ،ونرى وجوه الحسن فيهاووجوه القبح ، ونوازن بين هذه وتلك ، فاخذنا بما أربت حسناته على سيآته ، واطرحنا ما زادت سيآته على حسناته ، فلا فضل لكم فى الحقيقة فى هذا الذى تزعمون أن لكم الفضل فيه وحدكم من دون الناس جميعاً . إنما الفضل للشباب ومزاجه وطبيعته وحدته ولا علاقة للعلم والجهل ، والذكاء والغباوة والتقدم والتأخر بشيء من ذلك ، وللشباب خصائص كثيرة ، وصفات متعددة وأخص صفاته قصر النظر ، وسرعة الحكم ، والعجز عن إحكام الصلة بين أدوار الزمان الثلاثة ، ماضيه وحاضره ومستقبله ، فهو لا يستطيع أن يتصور تصوراً ثابتاً متيناً أن الماضيَ أساس الحاضر ومنبع وجوده ، لايشرق إلا من مطلعه ، ولا ينبت إلا فى تربته ، وان المستقبل بيد الطبيعة القاسية

وقوانينها الصارمة ، وليس أقرب اليـه من أن يتصور أن في استطاعته أن يمحوَ بيده في لحظة واحدة وجه الكون بارضه وسمائه ، ثم يخلقه خلقاً جديداً على الصورة التي يريدها ويتصورها ، وأن في إمكانه أن يحيل الترب أمواها ، والأمواهَ تربا . وان يحجب بيده وجه الشمس فلا ينبعث لها شعاع إلا بارادته . وان يرغمها متى أراد أن تمزق حجاب الليل وتبرز في سمائه ، ولا يزال يتخبط في أمثال هـذه التصورات والأحلام التي لافائدة فيها ولا نتيجة لها حتى تطلع في رأسه أول طليعة من طلائع الشيخوخة فتهدأ ثورته ، وتفتر حدته ، ثم لايلبث أن يسقط جاثياً بين يدي القوة الالهية والقوى الطبيعية معترفاً بعجزه وقصوره وفراغ يده من كل حول وقوة هاتفاً أن للكون إلهاً لا أستطيع محادّته وللطبيعة سنةً لاأستطيع تبديلها

كنا نفكر كثيراً في شأن المرأة كما تفكرون اليوم ، ولا نجد حديثاً ألذ ولا أطرب من الحديث عنها ، وكنا

لشدة اعجابنا بها ، واهتمامنا العظيم بترفيهها وتدليلها ،والوقوع من نفسها موقعاً جميلا ، ندافع عنها ضد أنفسنا ، ونطلب لها من النفوذ والسيطرة علينا أكثر مما تطلبه لنفسها ، وتتمنى بجدع الانف لو أننا رأيناها متمتعةً بالحرية الى أقصى حدودها ، فتتبرج كما تشاء ، وتُسفر كما تريد ، وتجلس الى الرجل جنباً لجنب فى المجتمعات العامة والخاصة ، دون أن يعارضها معارض ، أو يكدر عليها صفوها مكدر ، بل كنا نذهب فى مجاملتها ومحاسنتها الى أكثر من ذلك ، فكنا نغتفر لها سيآتها الأدبية ، ونسميها سقطات ، أى هفوات فردية لاأهمية لها ، ونُغريها بمحاسبة زوجها حساباً شديداً على خيانته لها ، ومقابلة فعلاته بمثلها ، لاننا كنا نقرر لها مبدأ المساواة بينها وبينه ، ونقول لها ليس من العدل أن يغضب الزوج من خيانة زوجته إذا كان هو يخونها ، وكنا نظن أن هذه الآراء آراء حقيقية راسخة فى نفوسنا ،صادرة من أعماق قلوبنا ، ثم علمنا بعد ذلك أننا كنا مخدوعين

فيها ، وانها آراء الشباب وخواطره ، وأحلامه وتصوراته ، ولا يثقل على الشباب فى رَيْعانه شىء مثل ذلك الحجاب المسبل على وجه المرأة ، وذلك الجدار القائم بينها وبينه

وكنا نبتهج بكل جديد كما تبتهجون ، وننفر من كل قديم كما تنفرون ، ونعد الأولَ آية الآيات مهما سخف واستَبرد ، والثانىَ نكبة النكبات مهما غلت قيمته ، ونفُس قدره ، لا لأننا وازنّا بينهما وفاضلنا بين مزاياهما فحكمنا عليهما ، بل لأننا كنا قريبى عهد بزمن الطفولة ، والطفل سريع الملل ، كثير السآمة . لا يصبر على لعبته أكثر من يوم واحد ثم يملها فيكسرها ، ويستبدل منها

وكنا مولعين بالتقليد ولعكم به ، لا نكاد نعرف لأنفسنا صورة خاصة ترتكز عليها أعمالنا فى الحياة ، بل كانت تمر بنا جميع الصور على اختلاف أنواعها وألوانها فنلتقطها بأسرع مما يلتقط « الفِلم » صوَره ، كأن فضاء حياتنا معمل لتجاريب الحياة واختباراتها

وكان العارف منا بلغة أجنبية لايلبث أن يفتتن بها وبأصحابها افتتاناً شديداً ربما حمله على احتقار لغته وتاريخها ، فيترفع عن ذكر رجالها وعظمائها فى أحاديثه واستشهاداته ، ويسخر منهم كلما جرى ذكرهم على لسان أحد غيره ، لالأنه يفهمهم ، أو يفهم غيرهم ، بل لأنه كان بسيطاً غريراً يحتقر كل ما فى يده ، ويستعظم كل ما فى يد غيره

ولم نعرف إلا بعد زوال ذلك العهد أننا كنا مخطئين فى جميع هذه التصورات والأفكار ، وأنها لم تكن عقائد راسخة فى نفوسنا ، بل أشباحاً وصوراً تتراءى فى سماء حياتنا ، فنعجب بها ، ونستطير فرحاً وسروراً بجمال منظرها ، وبهجة ألوانها ، فأصبحنا معتدلين فى آرائنا ، متئدين فى أحكامنا ، نحب حرية المرأة ، ولكننا نكره فسقها وفجورها ، ونأخذ مواد المدنية والحضارة من الأمم المتمدينة ، ولكننا لانقلدها ، ونحب أدب الغربيين وعلمهم ، ونعجب بادبائهم وعلمائهم ، ولكننا لانحتقر من أجل ذلك رجالنا وتاريخنا

نحن لا نطلب منكم معشر الأبناء وأنتم فى ثورة الشباب ونشوته أن تكونوا معتدلين متئدين فى أحكامكم وتصوراتكم، أو هادئين فى مطامعكم وآمالكم، فليس من الرأى أن نطلب عندكم ما لم نكن نطلبه عند أنفسنا، ولكنّ أمراً واحداً كنا نحرص عليه فى عهدنا أشد الحرص هو الذى نطلب اليكم أن تحرصوا عليه مثلنا، وتضنّوا به ضَنَّنا

كنا نعتقد مثلكم أننا خير من آبائنا وأجدادنا، وأوسع منهم علماً، وأقوى ادراكا، وربما اعتقدنا فى الكثير منهم كما تعتقدون فينا اليوم أنهم جاهلون أو مخرفون، أو متأخرون أو جامدون، إلا أن ذلك لم يكن يمنعنا من أن نحفظ لهم منزلة الأبوة وكرامتها، فلا نلقبهم بلقب من هذه الالقاب التى تلقبوننا بها، ولا نَذكرهم فى حضورهم أو غيبتهم بكلمة سوء تنغص عليهم ما قدر لهم أن يقضوه بيننا من أيام حياتهم، وكان شأننا معهم فى برهم واكرامهم، واحترام عقائدهم ومذاهبهم، مع اتساع مسافة الخلف بيننا وبينهم، شأن خالد بن

عبد الله القسرى أمير العراق إذ كان مسيحياً فأسلم وحسن اسلامه، وكان أبوه لايزال على دينه فطلب اليه أن يبنى له بيْعةً فى قصره يقوم فيها بأداء واجباته الدينية ، فبناها له كما أراد ، ولم يَنعَ عليه شأناً من شؤونه طول أيام حياته حتى ذهب الى ربه

ذلك ما نضرع اليكم فيه أن تحفظوه لنا كما حفظناه من قبلكم لآبائنا وأجدادنا ، واذكروا أن سيأتى عليكم ذلك اليوم الذى أتى علينا ، وانكم ستكرهون فيه أن يعاملكم أبناؤكم وأحفادكم بمثل ما تعاملوننا به اليوم ، فاتقوا الله فينا وفى شيخوختنا ، فنحن آباؤكم الذين ولدناكم ، وأساتذكم الذين ربيناكم ، ومن أكبر العار عليكم وعلى تاريخكم أن تسبوا أساتذتكم وآباءكم ، وأن ترموهم فى وجوههم بالجهل والجمود ، وما هم بجاهلين ولا جامدين ، ولكنهم شيوخ عاجزون

*

الموتى

« مترجمة »

دقت أجراس المساء تنعَى اليوم الراحل ، وتندب جماله الزائل ، وأخذت قُطعان الماشية تعود من مراعيها إلى حظائرها ، ومشى وراءها رعاتها يَهُشُون عليها بعصيهم ، لا يريدون بها شراً ولا أذى لأنهم يحبونها ويرحمونها بل يخافون عليها الضلال فهم يَهدونها الطريق ، ومد الظلام رواقه الأسود على جسم الطبيعة المنبسطة كأنما ظن أنها تنام كما ينام البشر ، فهو يقيها بردَ الليل وغائلته ، وساد سكون رهيب فى تلك الانحاء ، فلا يُسمع إلا صوت البلبل يشكر للقمر ما أهدى إلى جناحيه من أشعة متلألئة ، ونعيبُ البوم يمد صوته بالشكوى إلى الله تعالى فى سمائه ، وما شكاته إلا أن بنى آدم يطأون أرضه ، وينتهكون حرمة خَرِباته

المقدسة ، وهنالك تحت ظلال الأشجار الضخمة اليابسة رقد أسلاف سكان تلك المزرعة تحت أعماق الأرض رقدة طويلة ، بل أكثر من طويلة ، لأنها لانهاية لها ، فلانسمات الصباح الباردة ، ولا تغريد الطيور الصادحة ، ولا صياح الدّيكة ، ولا رنين الأجراس ، ولا هتاف الرعاة ، يوقظهم من رقدتهم هذه

أسفي عليهم لقد أمسوا ولا نيران تُوقد في أكواخهم ، ولا زوجات صالحات يذهبن ويجئن في تهيئة طعام عشائهم ، ولا صِبية صغاراً يستقبلونهم عند عودتهم ليقبلوهم ويستقبلوا قبلاتهم ، أولئك الرقود الهامدون كانوا بالأمس أشداء أقوياء ، تمد السنابل أعناقها خاضعة لمناجلهم ، ويئن ظهر الأرض وبطنها تحت وطأة محاريثهم ، وتُرْعَد جذوع الأشجار الضخمة فرقًا من ضربات فؤوسهم

أولئك الوجوم الصامتون كانوا بالأمس فرحين مستبشرين ، يرقصون ويغنون ، ويجدون السعادة والبهجة

فى كل ما يحيط بهم ، فيطربون لوقع حوافر ماشيتهم على الحصباء ، كأنما يسمعون قيثارة مطربة ، ويجدون فى ضجعتهم فوق الأعشاب اليابسة الراحةَ التى يجدها أصحاب الأسرة فوق مهادهم الوثير ، ويشعرون فى تناولهم اللقمة الجافة السوداء بعد الجوع باللذة التى يشعر بها الأغنياء فى تناولهم ألوان الطعام الشهى على موائدهم ، ويغترفون بأكفهم الماء من الأنهر والخلجان فيلتذون بارتشافه كأنما يتناولون صافية الصهباء فى كؤوس البلور والذهب

أولئك الخاملون المغمورون الذين لم تنصب لهم التماثيل ، ولم تُرفع فوق قبورهم القباب ، كانوا فى حياتهم شرفاء عظماء ، لأنهم كانوا متحابين متآخين ، لا يحسد فقيرُهم غنيهم ، ولا يبغى قويُّهم على ضعيفهم ، ولا يحقدون ولا يغدرون ، ولا يخافون شيئاً حتى الموت ، ولا يعبدون إلهاً الا الله

كذلك كانوا بالامس ، واليوم طواهم الرمس ، فرحمة الله عليهم يوم كانوا على ظهر الأرض ، وبعدما أصبحوا فى بطنها

فليَجثُ فوق رمال هذه القبور المبعثرة ، وبين أحجارها المتهدمة المتساقطة ، أربابُ المطامع فى الحياة ، وطلاب المجد والعظمة ، خاشعين مستكينين ، خافضى رءوسهم اجلالا واعظاماً ، وليمسكوا قليلا عن الادلال بعزهم وجاههم ، والمكاثرة بفضتهم وذهبهم ، وليخفوا فى أعماق نفوسهم ابتسامات الهزء والسخرية المترقرقة على شفاههم ، وليعلموا أن طريق المجد والعظمة التى يسيرون فيها ، وان كانت مخضرة جميلة ، مفروشة بالاعشاب ، محفوفة بالأزهار ، فانها تؤدى فى نهايتها الى هذا المصير الذى صار اليه هؤلاء المقبورون

أيها الناعمون فى عيشهم ، المدلون بعزهم وجاههم ، المفتخرون بقوتهم وجمالهم ، لاتحتقروا هؤلاء المقبورين ، المساكين إن رأيتم أجداثهم مشعثة بالية ، وقبابهم متهدمة خاوية ، ولم تروا أسماءهم منقوشة بأجمل الألوان وازهاها على صفائح قبورهم ، واصغوا قليلا تسمعوا آيات مدحهم

والثناء عليهم ترددها الجداول والغدران ، والحقول والمروج ، والطيور المغردة فوق أعالى الأشجار ، والسوائم الهائمة على ضفاف الأنهار ، فهم أصحاب اليد التى رصعت التاج للملك ، وصنعت السيف للقائد ، ونسجت المسوح للراهب ، وبنت القصور للأمراء ، وصاغت الحلى للأميرات ، وغرست العشب للسائمة ، ووضعت الحب للطائر ، وهيأت للأحياء جميعهم ، ناطقهم وصامتهم ، طعامهم وشرابهم ، ودثارهم ومهادهم

أيها العظماء : لا تخلِّد التماثيلُ المنصوبة غير ذكرى ناحتيها ، ولا تَطمس السطورُ الذهبية المنقوشة فوق صفائح القبور سطورَ السيئات التى يخطها التاريخ فى صفحاته ، ولا تَسمع آذانُ الموت الصماء نغمات الملق المترددة فى أناشيد الرثاء

رب يد تحت هذه الأرض لو أتيح لها الحظ فى حياتها لكانت يد العازف الذى يشنف الآذان ، أو يد البطل الذى يهز العروش ، ويزعزع التيجان ، أو يد الشاعر الذى يثير

الاشجان ، ويبعث إلى القلوب السرور والاحزان ، ورب قلب فى هذه الحفائر المظلمة لو عاش فى جو غير هذا الجو ، وعالم غير هذا العالم ، لكان قلب ملك عظيم مملوء بالآمال العظام ، والأمانى الجسام ، أو قلب زعيم جرىء يحاسب الظالمين على ظلمهم ، ويذود النوم عن أجفانهم ، أو قلب نائب كبير يستهوى ببلاغته القلوب ، ويسترعى الاسماع ، فتدوّى له بالتصفيق قاعة مجلس النواب

كم من لؤلؤة لم تعثر يد الغواص بها فظلت دفينة بين صدفيها ، وكم من زهرة أريجة لم تكد تتفتح حتى هبت عليها رياح الصحراء المحرقة فاذبلتها ، وكم من ماسة وضاءة عجز المعدّنون عن استخراجها من معدنها فانطفأ نورها فى منجم الفحم المظلم ، وكم من قريحة وقادة لم تصقلها العلوم والتجاريب فعاشت مغفلة مهملة حتى انطفأت شعلتها ، ولو أنها صقلتها لغيرت وجه الكون ، وبدلت الأرض غير الأرض ، نعم كان بين هؤلاء القرويين المقبورين من كان له قلب كقلب (همبدن)

إلا أن التاريخ لايعرفه ، ومن كان له لسان كلسان (ماتن) إلا أنه لم ينصب له تمثال ، ومن كانت له همة كهمة (كرومويل) إلا أنه لم يقد الجيوش ، ولكنهم عاشوا فى هذه الفلوات المنقطعة عن العلم والحضارة فدفن الجهل مواهبهم ، وأخمد الفقر نارذكائهم وفهمهم ، فمروا بهذه الدنيا ولم يشعر بهم أحد ، ثم ماتوا ولم يذكرهم أحد

هنيئاً لهم جهلهم وخمولهم ، فلو أنهم كانوا عظماء لقضوا أيام حياتهم يسفكون الدماء ، ويمزقون الاشلاء ، ويغتالون حقوق الضعفاء ، سعياً وراء أغراضهم ومطامعهم ، لا بل إنهم كانوا عظماء ، ولكنهم بريئون من آثام العظمة وجرائمها

رحمة الله عليهم لقد ذهبوا ولم يبق لهم من بعدهم مما يدل عليهم سوى حجر قديم ملقى فى طريق مقبرتهم قد كتب عليه بخط سقيم هذا البيت البسيط من الشعر

أيها المار فى هذا المكان احترم تربته ، ولا تطأ بقدميك رفات الموتى

هذا كل ما طمعوا فيه من شؤون الحياة بعد موتهم ،
لم يطلبوا تمثالا يقام لهم ، ولا قبة ترفع فوق أضرحتهم ،
ولا صفحة خاصة من صفحات التاريخ تخلد فيها أعمالهم ،
بل لم يطلبوا طاقة زهر تؤنس مضجعهم ، ولا قطرة غيث
تبل ثراهم ، فما كان أقنعهم وأزهدهم

الزهرة الذابلة

ورد إليّ من صاحب التوقيع الكتاب الآتى

أنا تلميذ فى السابعة عشرة من عمرى حصلت على شهادة الدراسة الابتدائية ثم تقدمت لامتحان الكفاءة فلم أفلح غير أنى عزمت على الكد للعام المقبل وما دريت ما يخفى الغيب فى سره حتى فوجئت بمرض « الحمى » العضال الذى ضعضعنى وما كدت أشفى منه بعد مدة حتى أصابنى « الصمم » الكامل فضاعت بذلك آمالى وأظلمت الأرض فى وجهى فرأيت أن أستغيث بك لعلك تسدى إلى جميلك بكلمة تعزية من عندك وأنا أحق الناس بالعزاء والسلام

٦ يناير سنة ٩١٤ ر . م

لا أستطيع أن أعزيك عن مصابك يا بنى ، فهو فوق ما يحتمل المتحمل ، ويطيق الجلد الصبور ، ولو أننى حاولت

ذلك منك لكذبتك وغششتك ، ولكان شأنى معك شأن أولئك الخادعين من المعزّين الذين يختلفون ليلهم ونهارهم إلى منازل المنكوبين والمرزوئين ليقولوا للثاكل ولده « لقد قدمت بين يديك شفيعاً يشفع لك يوم حسابك بين يدى ربك » وللباكى أباه « ما مات من خلف مثلك » وللباكى أخاه « ان فى الباقى عزاء عن الماضى » وللباكية زوجها « الشباب غض والرجال كثير » وللفاقد بصره « حسبك مما فقدت من نور بصرك ما أبقى الله لك من نور بصيرتك » وللمتحضَر المشرِف « إن فى لقاء ربك عوضاً عن لقاء الدنيا » ولمن حلت به نكبة مثل نكبتك « لقد كفاك الله بما ابتلاك سماعَ أقوال الكذب وكلمات السوء » كأنما هم يحسبون أن الفواجع والرزايا صفقات تجارية إذا قاس فيها المرء ربحه بخسرانه ، ووازن بين دخله وخرجه ، هان عليه هذا لذاك ، واغتفر ما فات لما هو آت ، ولا يعلمون أن الحزن على الذاهب المفقود إنما هو زفرة من زفرات الحب ، أو نفثة

من نفثات الود ، ولا دخل للحساب والمعاوضة فى شيء من ذلك ، وأن أقسى الآباء قلباً ، وأصلبهم فؤادا ، لو ساومه مساوم فى فلذة كبده ووضع تحت قدميه خزائن الارض والسماء لكان رأيه فى ذلك رأى ابن الرومى فى قوله

وما سرنى أن بعته بثوابه ولو أنه التخليد فى جنة الخلد

وأن الأم تبكى وحيدها كما تبكى عاشر عشرة من أولادها ، والصديقَ يبكى فراق صديقه وإن كثر أصدقاؤه فى كل محلة يحل بها ، والزوجةَ تبكى زوجها وإن كان تحت كل نافذة من نوافذ منزلها خطيبٌ يترقبها ، وأن البائس المسكين الذى يعيش من دنياه فى مثل جُحر الضب ضنكا وبؤساً يضن بحياته الضنّ كله اذا أحس بوشك فراقها وإن علم أنه سينتقل منها إلى جنة عرضها السموات والأرض ، فهم فى الحقيقة يسخرون من مصائب الناس وأرزائهم ، ويؤلمون نفوسهم فوق ألمها باحتقار أحزانهم وازدرائها ، وتصغير شأنها فى أعينهم ، ويلقون

فى نفوسهم اليأس من أن يجدوا بجانب قلوبهم قلوباً تحس باحساسها ، وتشعر بشعورها ، من حيث يظنون أنهم يخففون عنهم آلامهم ، ويأخذونهم بنسيانها

وأعوذ بالله أن أكون يابنى من الكاذبين فى تعزيتك ، أو الغاشين لك فيها ، ولو أردت نفسى على ذلك لما استطعت، وكيف يستطيع أن يعزيك عن مصابك من لا يستطيع أن يعزى نفسه عن مصابه فيك ، فلقد ترك كتابك هذا بين جنبى لوعة من الحزن لا أحسب أنها دون لوعتك التى تعتلج بين جنبيك من الحزن على نفسك ، حتى صرت كأنى انا الذى ابتليت بما ابتليت به ، وكأن الذى أصابك من البلاء قد أصابنى من دونك ، فلقد انقطع عنك بفقد سمعك أيها البائس المسكين كل ما كان بينك و بين الناس جميعاً من سبب وصلة ، فأصبحت وأنت فى دار الانس والاجتماع ، و بين ضوضاء الحياة وضجيجها ، كأنك تعيش من وحشتك وكآبتك فى مدينة متحجرة من مدن التاريخ القديم ، لا تأنس فيها

بأحد ، ولا يأنس بك فيها أحد ، ولا ترى بين يديك إلا نصبا ماثلة ، وتماثيل جامدة

تحسبُ العين انهم جِدُّ أحيا ء لهم بينهم إشارة خرس

ولا يرفهُ عن نفسك فى ساعة من ساعات ضيقك وضجرك نغمة غناء ، ولا رنةُ حداء ، ولا خرير نهر ، ولا تغريد طير ، ولا حفيف شجر ، ولا زفيف ريح ، ولا ثُغاء شاة ، ولا نقيق ضفدع ، ولا صرير جندب ، سواء لديك ليلك ونهارك ، وصبحك ومساؤك ، ويقظتك ومنامك ، فان فررت من وحشتك هذه الى مجتمع من المجتمعات العامة فجلست الى الناس ساعةً تتفرج [١] فيها مما بك ، لاتسمع شيئا مما يقولون ، ولا يعنيهم أن يسمعوا شيئا مما تقول ، فان قلبت نظرك فى وجوههم لتتسقط حرفا من حروفهم ، أو تتفهم حركة من حركات شفاههم ، أو إشارة من اشارات أيديهم ، أنكروا عليك نظراتك ، وسخروا منك فيما بينهم

(١) طلب الفرجة والراحة

وبين أنفسهم ، لا بل ربما صارحوك بكلمتهم التى يضمرنها في أنفسهم ، ورموا بها فى وجهك من حيث لا تعلم ، فان رأوا منك أنك تقتضب الاحاديث اقتضابا ، وتذهب منها فى أودية غير أوديتهم ، وأنك تحدثهم فلا تحسن تقدير صوتك على مقياس أسماعهم ، فتعلو به عليها ، أو تنزل به دونها ، وأنك تبتسم فى موضع التقطيب ، وتقطب فى موضع الابتسام ، أصبحوا ينظرون اليك بتلك العين التى ينظرون بها الى الاطفال الصغار ، والبله الاغرار ، فان ألمتَ بسر نظرتهم هذه اليك ألم بك من الحزن والهم مالا طاقة لك باحتماله ، وأصبحت ترتاب بكل نظرة تتجه اليك ، وكل ابتسامة تتراءى لك ، واعتادك سوء الظن بكل جالس يجلس اليك من أصدقائك وعشرائك ، بل من أبويك وأهليك ، فلا يكاد يسلم لك صديق ، أو يصفو لك حميم

فان فررت من الناس نجاةً بنفسك من لؤمهم وقسوتهم فررتَ الى خلوة موحشة قاتمة تتراءى لك فيها خيالات

الذكرى المؤلمة كلما وازنت بين حاضرك وماضيك ، وقارنت بين ما كنت ترجو لنفسك فى أيامك الأولى ، وما انتهى إليك أمرك فى أيامك الأخرى ، فلا تنفعك خلوة ، ولا يؤنسك اجتماع

وأخوفُ ما أخاف عليك إن استمر بك هذا الشأن — ولا أسأل الله لك دوامه — وظللت تنطق ولا تسمع ، وتقول ولا تفهم ما يقال ، أن تصبح فى يوم من أيامك لاسامعاً ولا ناطقاً ، فالسماع مادة النطق التى يستمد منها قوته وحياته ، ومن لا يسمع لا يحسن النطق ، ومن لا ينطق لا يحسن التفكير

وكثير عليك يا بنى وأنت زهرة يانعة فى روض الشباب وابتسامة لامعة فى ثغر الآمال ، وفجر مشرق فى سماء الحياة أن تصعد على هذه الربوة الزاهرة المخضلة من ربى الحياة ، فلا تلبث إلا قليلا حتى يمر بك فارس الدهر فيختطفك من مكانك ثم لا يعدو بك إلا قليلا حتى يلقيك على هذه الصخور الصماء

فوا رحمتاه لك يا بنى مما بك اليوم، ومما يستقبلك به الدهر غداً ، فأسأل الله تعالى لك أن يرفع عنك محنتك ، أو يمنحك عيناً ثرّةً من الدمع لا ينضب معينها ، تسكب منها صباح كل يوم ومساءه سَجلا على فؤادك الملتاع فتبرِّد غلته ، وتَفثأ لوعته ، فالدموع هى الرحمة العامة التى يلجأ إليها المنكوبون والمحزونون يوم لا يجدون لأنفسهم فى مذهب من مذاهب الأرض ولا فى سبيل من سبل السماء ناصراً ولا معيناً ، والسلام عليك من الراثى لك ، الباكى عليك ورحمة الله

*

الوجهاء

جرى بيني وبين أحد الوجهاء المصريين الحديث الآتى

الكاتب — ما هذه الطبقة التى تكسو وجهك فتحجب منه ما يحجب صفحةَ السماء ، من السحب السوداء

الوجيه — إن بين جنبيّ همّاً يعتلج ، وكمداً يذهب باللب ، ويطير بشظايا القلب ، وناراً من الحزن متأججة مضطرمة دخانها هذا الذى تراه

الكاتب — أحق ما تقول وأنت الرجل السعيد بحظه المغتبط بعيشه ، قصر غُمدان ، وخوَرنق النعمان ، وحورٌ وولدان ، وظل ظليل ، ونسيم عليل ، وخزائن تموج بالذهب ، موج التنّور باللهب ، ذلك إلى ما أسبغ الله عليك من صحة البدن وسلامة الحواس ؛ وأمدك به من الجاه العريض ، والكلمة النافذة ، والشفاعة المقبولة ، فليت شعرى ما شَكاتك بعد ذلك

الوجيه — أشكو الفقر الباطن ، فى الغنى الظاهر ، والشقاء المقبل ، فى السعد المدبر ، وإنى لارى فى السماء غمامة دكناء توشك أن تنفجر بالصاعقة الكبرى ، والكارثة العظمى

الكاتب — ما كنت أحسب أن الشقاء يمر لك ببال بعد ما أعطاك الدهر عهداً مكتوباً بتلك الأحرف الذهبية ألا يسدد سهمه إليك ، ولا يدور دورته عليك

الوجيه — متى كان للدهر عهد يوثق به أو ذمام يعتمد عليه ؟ فالناس فى يده كالكرة ذات الألوان فى يد الصبى ، يديرها فترى الأسود فى مكان الأبيض ، والأبيض فى موضع الأسود ، وكذلك بقية الألوان تعلو أسافلها وتسفل أعاليها ودورة السعود والنحوس أسرع فى عمر الدهر من لمح الطرف ، ولفتة الجيد

الكاتب — هل لك أن تحدثنى من أى منفذ نفذ الدهر اليك ، وما عهدتك شارباً ولا عاهراً ، ولا مقامراً ولا مستهتراً

وما للدهر مدخل يتسرب منه الى خزائن الاغنياء غير هذا المدخل

الوجيه — أين يُذهب بك أيها الصديق ، وهل يؤتَى الاغنياء فى هذا البلد إلا من طريق المجد الباطل والسمعة الكاذبة ، وهل يَكُب العظماء على وجوههم ، ويلصق بالرَغام معاطسهم ، إلا الشغف بنظرة الأمير ، ولفتة الوزير، وزورة المدير ، وأنت تعلم أن رجلا مثلى لايمكن أن يكون له مطمع فى المجد الصحيح ، فلستُ بصاحب علم فأفخر به ، ولا صاحب قلم فأمتّ بما يَمُتُّ به أصحاب الاقلام من خدمة المجتمع الانسانى وتهذيبه ، فلم يبق أمامى غير هذا المجد الكاذب ، وهو مجد القربى من الحكام والعمال ، ولا سبيل اليه الا ببذل ثمن غال تقصر عنه خزائن قارون وكنوز ركفلر ، وقد أنفقت فوق الطاقة . ووراء الفاقة ، فى بناء القصور نُزُلا الحكام ، وغرس البساتين منازهَ لهم ، واعداد

الفَرش والآنيــة لمآدبهم وولائمهم ، فلما نضب مَعين الذهب ، وعيّت الارض ان تثمر فوق ما تثمر ، لجأتُ الى مصرف من المصارف المالية فأثقلنى بالديون ، وأرهقنى بالطلب ، ففزعت منه الى آخر ، ثم الى آخر ، فكنت كناقش الشوكة بالشوكة . أو غاسل الدم بالدم ، ولو كُشف لك من أمرى ما كشف لى منه لعلمتَ أن جميع ما كنت أملك من أطيان وعقار ، ودور وقصور ، لم يبق لى منه الا تلك الارقام السوداء المسطورة فى جرائد الصيارف ، وهأنذا اليوم طريد المصارف والغرماء ، وغريم القضاءين ، قضاء الأرض ، وقضاء السماء

ذلك كل ما يستفيد الوجيه من وجاهته قبحها الله وقبح كل ما تأتى به ، فلا تحسد الوجيه على مظهره الكاذب ، وزخرفه الباطل ، ولا تَنْفَس عليه بؤسَه الكامن ، وشقاءه الخفى ، فهو أتعس خلق الله ، وأكثرهم هما ، وأثقلهم مؤونة ، وأخسرهم حاضراً ومستقبلا ، يكون عنده من الضياع أو

العمائر جملةً لاتثمر له من المال أكثر مما يسع ترفيه نفسه وتربية أولاده وصلة رحمه فيسميه الناس وجيها ، والوجاهة كلمة صغيرة ،معناها فى نظر الناس كبير ،كأنما هى عندهم من جوامع الكلم ، فالوجيه فى اصطلاحهم هو الرجل الذى يمدُّ لكل غريب نزل بلده مائدة ، ويسبغ العطاء على كل عابر سبيل مر بحيّه ، ويشترك فى جميع الجرائد والمجلات وان كان أميا لايقرأ ولا يكتب ، ويبتاع تذاكر حفلات الجمعيات الخيرية على اختلاف الوانها وأشكالها وإن كان لاينتفع بواحدة منها ، ويشترك فى جمعية الرفق بالحيوان ، وجمعيات الرفق بالانسان ، ويبتاع المؤلفات الحديثة التى يكلفه المدير أو المأمور بابتياعها وان كانت فى علم الارتماطيقى او علم المنطق وكان هو عمدة أو شيخ بلد ، ولا تتم شروط الوجاهة عنده فيأخذ منها بالحظ الأوفر الا اذا بذل للحكومة المعونة الكبرى فى مشاريعها من بناء المستشفيات والمدارس والكتاتيب وأمثال ذلك مما تضرب به الحكومة علينا ضرب الجزية

على أهل الذمة فى سالف الازمان ، والتى لا فرق بينها وبين خراج الأطيان وعشور النخيل وعوائد الأملاك

الكاتب — انها تبرعات ومبرات لااجبار فيها ولا الزام ، فالحكومة لاتشهر عليكم سلاحاً ، ولا تعد لكم سجنا ، وكل ما فى الأمر أن رجالها يخطبون فيكم ويدعونكم الى هذه الأعمال الصالحة بالحكمة والموعظة الحسنة

الوجيه — لا أزال أكرر القول إن رجال الحكومة يضربون علينا ضرائب ليست فى شرع ولا قانون ، والوجيه فى الحقيقة كالعبد فى اصطلاح علماء التوحيد، مجبور باطنامختار ظاهراً ، أما الظاهر فهو ما ترونه من اقامة المحافل وخطابة الخطباء والتلطف فى الطلب وشكر المحسن على احسانه ، وأما الباطن فهو أن الوجيه منا كما علمت مفاس من جميع أنواع المجد الامجد الزلفى عند الحكام ، والحكام يعرفون ذلك منه فيدخلون عليه من بابه ، ولا يفتحون له باب القربى منهم الا على مقدار ما يفتح من أبواب خزائنه لهم ، فمنا

من يزوره المدير أو المفتش ، لانه وهاب الآلاف، أو المأمور، لانه من أصحاب المئات ، ومن لا يزوره أحد منهم ولا ينهض له اذا أقبل ، ولا يشيعه اذا انصرف ، لانه لا يلبي دعوة، ولا يحضر مجمعا ، ولا يكتب رقما فى قائمة اكتتاب ، فلا يلبث أن يسلس قياده ، ويصحب عناده ، هذا هو الاستبداد الخفى الذى ترغم الحكومة به أنف الوجهاء من غير أن تشهر عليهم سلاحا ، أو تعد لهم سجنا ، ولكنها تبلغ به فى شهر واحد ما كانت تعجز عنه حكومة السجن والكرباج و « الوبركو » و « البطانطا » والعوائد الشخصية فى عدة أعوام ، ولقد راجعت صحيفة حسابى فى هذا العام عام الازمة والجدب فوجدت انى دفعت خراج الاطيان مرتين ولا أعلم كم ادفعه فى السنة الآتية

الكاتب — هب أن الامر صحيح كما تقول فالحكومة لا تودع هذا المال خزائنها ، ولا تقضى به غرضا من أغراضها الخاصة ، وانما تنفقه فيما ينفع الامة فى تربيتها وتهذيبها ، وتقدمها وارتقائها

الوجيه — ذلك ما يجب أن تنفق عليه الحكومة من خزائنها التى تملؤ من أموال الامة لهـذه الاغراض التى تذكرها ، ولـكنها تضن بمال هى فى حاجة اليـه لاصلاح السودان وبناء العمائر وتشييد القصور وترقيـة كبار الموظفين خصوصا الاجانب منهم واقرار عيون السياح الاوربيين بالمناظر البهجة والمشاهد الجميلة ، فلا ترى لها بداً من حمل تلك الحمالات على أعناقنا بلا رحمة ولا شفقة ولا نظرٍ الى ماتتكبده فى هـذا السبيل مما يذيب الشحم ، ويَعرُقَ العظم ، وليتها كانت تتدرج فى الطلب وتهادن فيه فتـدرك فى ذلك سياسة الحـكومات السالفة المعروفة باستبدادها وارهاقها ، فقد حكى عن أحد رؤسائها أنه علم أن أحد المديرين سلب أهالى مديريته المـال دفعة واحدة وانهم ضاقوا به ذرعا فأحضره فى مجلسه وامر ان تنزع من لحيته شعراتٌ متفرقة فما أَبه لذلك ولا احتفل ، ثم امر ان تنزع من رأسه خصلة من الشعر مرة واحدة فصرخ وتألم ، فقال له هكذا يجب ان يكون اخذ الاموال من الرعية ،

متفرقا تحتمله ، لامجتمعا تتألم له

الكاتب — حسبك من ذلك ثواب الله واجره على احسانك وبذلك المال فى سبيله وللآخرة خير وأبقى

الوجيه — من أين يأتيني الثواب والاجر ،وهل يثاب المرء الا على قدر نيته واخلاصه فى عمله ، وإنى أعترف لك عنى وعن جميع الوجهاء أمثالى بما عرفت من أحوالهم ، ومارست من طباعهم ، أننا لانريد من بذل مانبذل الا رضا الحاكم ، والتودد اليه ، وموافاة رغبته لاستكمال أسباب الوجاهة مرة ، وقضاء المآرب والحاجات أخرى ، ووالله لقد أفسد علينا هؤلاء القوم بخطتهم هذه غرائزنا وسجايانا ، وعودونا من الرياء فى الاحسان والنفاق فى المعاملة خطة قست معها قلوبنا ، واستحجرت أفئدتنا ، حتى إن أحدنا يكاد لايحسن بالدرهم الواحد الى جاره البائس الفقير الا أمام قاض فَطِنٍ وشهود عدول ، وحتى زهد فينا الفقراء ولوت المساكين وجوهها عن أبوابنا ، وجفانا ذوو الرحم والاقرباء ، وأصبحت قصورنا فى نظرهم قبوراً يستدرون لها الرحمات،

لامناهل يرجون منها الصدقات ، وأقفرت « مضايقنا » الا من عربدة المطربشين ، ورطانة المبرنطين ، فمن أين لثواب الله ان يعرف طريقنا عافاك الله

الكاتب — اتغضبك كلمة الحق ان قلتها لك أيها الصديق ؟

الوجيه — قل ما تشاء فقد ملأ الهم ما بين جوانحى فاستحجر قلبي حتى ما يغضبنى حق ولا باطل

الكاتب — أعجبُ ما رأيت من أمرك فى حديثك معى انك تعرف الحق وتتنكر له كأنك لاتعرفه ، وتمد يدك الى الصواب حتى تكاد تلمسه ثم تعجز عنه ، فقدزعمت ان مجد القربى من أولياء الامر مجد باطل ، ولقد أصبت فيما تقول فما شأنك به ، وما نهوضك اليه ، ومالك واللصوق بأمر انت تعلم قلة جدواه ، وسوء مغبته ، ولقد كان لك طريق مختصر الى المجد الصحيح ، والشرف الصميم ، لوكنتَ اكبر منك همة ، واصح رايا ، واقوى عزيمة ، فمجدُ الكرم

ليس بأقل شأناً من مجد السيف والقلم ، ولا أرى أنك كنت تنفق فى سبيله إلا بعض ما أنفقت فى هـذا المجد الـكاذب ، وما كان يصيبك فى الاول من الشقاء ماأصابك فى الثانى ، فالـكريم معان على أمره ، مبارك له فى عيشه ، متى صح له معنى الـكرم ، وكانت الرحمة غريزة من غرائزه تسوقه إلى تفقد الضعفاء ، ومواساة الفقراء ، من حيث لا يبتغى على ذلك أجراً سوى ما وَعد الله به المحسنين من حسن المثوبة والاجر ، ورفع الذكرى فى الآخرة والأولى ، ولـكنكم بخلتم بأموال الامة عليها ، واحتجنتموها من دونها ، وأبت لـكم همتكم الضعيفة أن يكون لـكم كما لامثالـكم فى الامم الاخرى آثار فى بناء المدارس والملاجىء والمستشفيات تسمى بأسمائـكم ، وتُسجل فى صحيفة أعمالـكم ، فتنالون بها ما تريدون من مجد الدنيا والآخرة ، فعاقبكم الله على ذلك بأن سلط عليكم من يعبث بعقولـكم ، ويلعب

بأهوائكم ، ويرغمكم على الاحسان ارغاما ، من حيث يكون له الغنم ، وعليكم الغرم ، فلا ذكراً حصلتم ، ولا مالاً حفظتم ، وكذلك نولى بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون

جرجي زيدان

لا أعلم أين تذهب نفس الانسان بعد موته، ولا
ن مكانها الذى تستقر فيه بعد فراق جسدها، ولا ما هى
صلة التى تبقى بين المرء وبين حياته الاولى بعد رحيله عنها،
ان كان صحيحاً ما يقولون من أن ساكن القبور يستطيع
ن يجد بين صخورها ورِجامها منفذا يشرف منه على
هذه الدار فيسره ما ترك وراءه فيها من ذكر جميل، وثناء
عاطر، وسيرة صالحة، ومجد باق، فان نصيب جرجي زيدان
ليوم من الهناء والغبطة بما ترك فى حياته الاولى من جليل
لآثار، وصالح الاعمال، أوفر الانصبة وأجزلها

ما أنعم الله على عبده نعمة أسنى قيمة، ولا أغلى جوهرا،
ولا أحسن أثرا، من نعمة اليقين بالجزاء الصالح على العمل
لطيب، فهو يعتقد أنه مجزىٌّ على عمله، مكافأٌ به، مؤمنا كان

أم ملحدا ، معترفا بنعيم الآخرة أم منكرا له ، فان كان الاولَ ساقه إلى العمل الصالح شغفُه بجنة الخلد وحورها وولدانها ، ولؤلئها ومرجانها ، وروحها وريحانها ، وان كان الثانىَ ساقه اليه شغفُه بالذكر الجميل ، والسيرة الصالحة ، والحياة الباقية فى ألسنة الاجيال ، وبطون التواريخ ، ولولا هاتان الجنتان ، جنة المؤمنين ، وجنة الملحدين ، ما جدّ فى هذه الحياة جادّ ، ولا عمل فيها عامل

إن ميدان الحياة أضيق من أن يسع بين غايتيه العملَ الصالح والجزاءَ عليه معاً ، وكيف يسعهما والمرء لا يكاد يفرغ فى حياته من عمله الذى يتوقع عليه الجزاء قبل أن تنطفئ ذُبالة حياته ، وتحترق فحمة شبابه ، حيث تموت فى قلبه لذة العظمة ، وتنضب فى فؤاده شهوة المجد ، فان فرغ منه قبل ذلك لا يترك له حساده ومنافسوه ساعةً من ساعات فراغه يستطيع أن يسكن فيها إلى نفسه ، ليستشعر برد الراحة ، ولذة الجزاء ، فلا بد أن يكون للجزاء حياة أخرى

غير هذه الحياة ، إما حياة الاجر ، أو حياة الذكر

مات جرجي زيدان فنحن نبكيـه جميعا ، أما هو فيبتسم لبكائنا ، ويرى فى تفجعنا عليه والتياعنا لفراقه منظراً من أجمل المناظر وأبهاها ، لأنه يعلم أن هـذه الدموع التى نرسلها وراء نعشه أو نمطرها فوق ضريحه إنما هى ألسنة ناطقة بحبه وإعظامه ، والاعتراف بفضله ، والثناء على عمله ، وأنها المـداد الالهى النورانى الذى تُكتب به فى صحيفة تاريخه البيضاء آياتُ مجده الخالد ، وعظمته الباقية ، وذلك ما كان يريد أن يكون

مات جرجي زيدان فبكاه صديقه لأنه كان يحمد وده وإخاءه ، وبكاه جاره لانه كان يجد فى جوار دلذة الانس ، وجمال العشرة ، وبكاه معتفيه لانه كان ينتفع بماله ، وبكاه صنيعته لانه كان ينتفع بجاهه ، وبكاه قارئ كتبه لانه كان يجد فيها من غزارة المادة ، وجمال الاسلوب ، وسهولة التناول ، مالا يجد فى غيرها ، وبكاه قارىء رواياته لانه كان يجد

فى خيالها ، وبراعة تصوراتها ، عوناً له على هموم الحياة وآلامها ، أما أنا فبكيتُه لامر فوق ذلك كله

تطلع الشمس صباح كل يوم من مشرقها على هــذه الـكائنات ناطقها وصامتها ، ساكنها ومتحركها ، جامدها وسائلها ، فتستمد جميعُ ذراتها منها مادةَ حياتها التى تقوّمها ، أو صورتَها التى تتشكل بها ، وتأخذ منها الأغراسُ نماءها ، والازهار ألوانها ، والنار حرارتها ، والاجسام الحية قوتها ، والاجسام الجامدة صورتها ، والاجواء طهارتها ونقاءها ، والآفاق جمالها وبهاءها ، وكذلك كان جرجى زيدان فى سماء هذا البلد

كان بطلا من أبطال الجد والعمل ، والهمة والنشاط ، يكتب أحسن المجلات ، ويؤلف أفضل الـكتب ، وينشىء أجمل الروايات ، ويناقش ويناضل ، ويبحث وينقب ، ويستنتج ويستنبط ، ويجيب السائل ، ويفيد الطالب ، فى آن واحد ، لايشــغله شأن من تلك الشؤون عن غيره ، ولا يشكو

مللاولاضجرا ، ولا يستشعرخوَراً ولافتورا ، فكان القدوةَ الحسنة بين فريق المستنيرين من المصريين ، يتعلمون منه أن قليلا من العلم يتعهده صاحبه بالتربية والتغذية ثم يقوم على نشره وإذاعته بين الناس أنفع له ولأمته من العلم الكثير ، والعمل القليل

ولو شئت أن أقول لقلت إن جرجى زيدان كان رئيس البعثة العلمية السورية التى وفدت إلى مصر فى أواخر القرن الماضى فغيرت وجه العالم المصرى تغييراً كلياً ، وغرست فى صحرائه القاحلة المجدبة أغراس الجد والعمل ، والشجاعة والاقدام ، والهمةوالاستقلال ، وعلمت أبناءه كيف يؤلفون ويترجمون ، وينشئون الجرائد والمجلات ، وكيف يتخذون من هذا العمل الشريف صناعةً يقوّمون بهاحياتهم المادية، وحياة أمتهم الأدبية ، ويتقون بهامذلة الوقوف على أبواب الدواوين صباحَ مساءَ ، يتكففون رؤساءَها ، ويسألونهم أن يتخذوهم عبيداً لهم يخدمونهم على موائد عزهم وسعادتهم التى يجلسون

عليهـا ، فإما عطفوا عليهم فألقوا اليهم بالنزر الخسيس من فُتات تلك الموائد ، وإما طردوهم منها كما يطردون الـكلاب العاوية

وكان شريف النفس ، بعيد الهمة ، متجملا بصفات المؤرخ الحقيق الذى لايتشيع ولا يتحيز ، ولا يداهن ولا يجامل ، ولا يترك لعقيدته الدينية مجالا للعبث بجوهر التاريخ وحقائقه ، فكتب وهو المسيحى الارثوذكسى تاريخ الاسلام فى كتبه ورواياته كتابةَ العالم المحقق الذى لايكتم الحسنة اذا رآها ، ولا يشمت بالسيئة اذا عثر بها ، فاجتمع بين يديه فى مجلس علمه من أبناء الامة الاسلامية خاصتها وعامتها ، عربها وعجمها ، جمعٌ لم يجلس مثلُه بين يدى عالم من علماء الاسلام ولا مؤرخٍ من مؤرخيه فى هذا العصر ، فأقام بهذا العمل العظيم لهذا الدين القويم حجته أمام أولئك المتعصبين من الاوربيين الذين لايثقون فى خبر من أخباره ، ولا فى بحث من أبحاثه ، بحديث شيعته وأبنائه ، وكان فى تسامحه هذا القدوةَ الصالحة

للمؤرخ يتعلم منه كيف يَكتب التاريخ بلسان التاريخ ، لا بلسان الدين ، والمثل الاعلى للعالم يتعلم منه كيف يستطيع أن يتجرد من عواطفه ، وميول نفسه ، وخواطر قلبه أمام الامانة للعلم ، والوفاء بحقه

وكان مستقيما فى عمله ، أميناً فى علائقه ، لا يكذب ، ولا يتلون ولا يَخِيس بعده ، ولا ينكث وعده ، ولا يكسو بضاعته لونا غير لونها ليزخرفها على الناس ويجمّلها فى عيونهم ، فتعلم منه العاملون أن الكذب فى المعاملة ليس شرطا من شروط الربح ، ولا سبباً من أسباب النجاح

وكان واسع الصدر ، فسيح رقعة الحلم ، وقف له فى طريق حياته كما وقف لغيره من قبله ومِن بعده فريقُ المقاطعين فى هذا البلد الذين لا ينطقون ، ولا يسكتون عن مقاطعة الناطقين ، فلبسوا ثوب الانتقاد ليشتموه ، وكمنوا وراء أكمة الدين ليرموه فيُصموه ، وقالوا إنه شوه وجه التاريخ الاسلامى ،

وعبث بحقائقه ، ولم يسألوه من أين نقل ، ولا كيف استند ، بل سألوه لم لم يكتبه كما كتبوا، ويستنتج منه مثل ما استنتجوا، كأنما لم يكفهم منه أن يروه بينهم مسيحياً متسامحاً ، حتى أرادوا منه أن يكون مسلماً متعصباً ، يكتب التاريخ بلسان الدين كما يكتبون ، وينهج فيه كما ينهجون ، فلما لم يجدوه حيث أرادوا رموه بسوء القصد فى عمله ، وخبث النية فى مذهبه ، ولم يستطيعوا أن يَرُوضوا أنفسَهم السامحة على أن يقولوا إن الرجل باحث مستنتج ، يخطئ مرة ، ويصيب أخرى، أو يقولوا إن له فى تاريخ الاسلام حسنات تصغر بجانبها سيئاته فيه فلنغتفر هذه لتلك ، وما أحسب أن أحداً منهم كان يعتقد شيئاً مما يقول ، ولكنهم كانوا يرون أن الدين سلعة تباع وتشترى ، وأن سلعته ملك لهم ، ووقف عليهم ، لا يجب أن تعرض فى حانوت غير حانوتهم ، وكانوا يظنون أن الرجل تاجر مثلهم يريد أن يفتح فى سوقهم الحانوتَ التى يخافونها، فاستوحشوا منه ، وأنكروا امكانه ، واستثقلوا ظله، وقالوا امرة

إنه مسيحى لا يؤمن على الاسلام ولا على تاريخه ، كأنما ظنوا انه ينقل حوادث التاريخ ووقائعه من توراة موسى أو إنجيل عيسى ، وقالوا أخرى انه سورى دخيل وفد على هذا البلد مسترزقا أو متجرا ، فما هو بمخلص ولا بأمين ، وفاتهم عفا الله عنهم أنه إن كان ضيفاً فليس من أدب الضيافة ، ولا من خلال المروءة والكرم ، أن يمن المضيف على ضيفه بيده عنده ، وأن يعد عليه لقيماته التى يطعمها على مائدته ، وان كان تاجراً فقد باعهم بهذا النزر الخسيس من متاع الدنيا وزخرفها جوهر عقله ، وينبوع ذكائه ، ومادة حياته ، فما كانوا من الخاسرين ، ولا كان من الرابحين

ووالله ما أدرى كيف تتسع صدورهم للخمار الرومى واللص الايطالى والفاجر الأرمنى أن يفتح كل منهم فى كل موطئ قدم من مدنهم وقراهم حانا يسلب فيه عقولهم ، أو مقمرا يسرق فيه أموالهم ، أو ماخورا يهتك فيه أعراضهم ، فلا يطاردونه ولا يحاربونه ، ولا يسمونه دخيلا ولا واغلا ، ثم

يضيقون ذرعا بالعالم السورى أو العراقى أو المغربى ينزل أرضهم نزول الديمة الوطفاء بالصحراء المحرقة ، فيعلمهم العلم ، ويهذب نفوس أبنائهم ، ويثقف عقول ناشئتهم ، ويبعث فى نفوس ضعاف العزائم منهم روح الهمة والنشاط ، والشجاعة والاقدام

ذلك هو شقاء الامم ، وهـذا جواب السائلين عن أسباب سقوطها وانحطاطها

لَمْ يضق الرجل ذرعاً بهذا كله ، بل كان شأنه معهم أن كان يعتب عليهم ، ولا يشتمهم ، وينبههم الى أدب المناظرة وواجباتها ، ولا يؤنبهم ، ويدعوهم الى اتخاذ كلمة الحق سواء بينه وبينهم ، ولا يمكر بهم ، حتى انقاب عنهم يحمل لواء الفضيلة والحلم ، وان كان مخطئاً ، وانقلبوا عنه يحملون فوق ظهورهم رذيلة التعصب والجهـل ، وسوء الخلق ، وضيق العطن ، وان كانوا مصيبين

ولقد وضع بخطته هذه فى مناظرة خصومه ومجادلتهم أولَ حجر فى بناء الاخلاق الفاضلة فى هذه الامة ، فتعلم منه

كثير من أدباء هـذا البلد وعلمائه كيف يستطيعون أن يتناظروا ولا يتشاتموا ، وأن يتعاونوا على الحقيقة المبهمة فيكشفوا الغطاء عن وجهها دون أن يريقوا فى معاركهم قطرة واحدة من دم الفضيلة والشرف ، فان تم لهذه الامة فى مستقبل حياتها حظها من شرف الاخلاق وعلو الهمة ونبالة المقصد فى جميع شئونها وأغراضها فلتتذكر دائما ان جرجى زيدان كان أحد الذين أسسوا فى أرضها هذه الدولة الفاضلة ، دولة الآداب والاخلاق

نحن لا تعوزنا المؤلفات ولا المترجمات ، فالمؤلفون والمترجمون والحمد لله كثيرون ، وانما الذى يعوزنا روح عالية تخفق فى سماء هـذه الامة خفوق النجم الزاهر فى سمائه ، وتشرق فى نفوس أبنائها إشراق الشمس فى دارتها ، فتبعث العزيمة فى قلب العاجز ، والشجاعة فى فؤاد الجبان ، وتقوم من الاخلاق معوجها ، وتصلح من الآداب فاسدها ، وتثبت من العقول مضطربها ، وتعلم كل صغير وكبير ، وقوى وضعيف ، أن

قيمة المرء فى حياته أداء واجبه للانسانية أولا ، ولامته ثانياً ، ولنفسه أخيراً ، وأن الحب سعادة الانسان ، والبغض شقاؤه وبلاؤه ، وأن الفرق بين الدين الخالص والدين المشوب أن الاول يتسع صدره لكل شيء حتى لمخالفيه ومحاربيه ، وأن الثاني يضيق صدره بكل شيء حتى بنفسه ، وأن الله تعالى أوسع رحمة ، وأعلى حكمة ، من أن يسد فى وجوه عباده كل طريق للوصول اليه إلا طريق السيف والنار ، وأن هذه الاحقاد الدنيئة التي تلتهب فى صدور الناس التهاباً لا تؤججها فى صدورهم الاديان نفسها ، بل رؤساء الاديان الذين يستخدمونها ويستثمرونها ، ويتجرون بها فى أسواق الغباوة والجهل ، وأن الذين يقدسون هذه الاحقاد ويباركونها ، ويعتبرونها جزءاً من ماهية الدين ، ومقوّما من مقوماته ، انما يقولون من حيث لا يشعرون إن الالحاد فى العالم ، والفوضى الدينية فيه ، وعبادة الشمس والقمر ، والترب والحجر ، أنفع للمجتمع الانسانيّ ، وأحسن عليه عائدةً من عبادة الاله المعبود

ولقد كان جرجي زيدان روحاً من تلك الارواح العالية تمنيناها برهة من الزمان حتى وجدناها فلم تنعم بها إلا قليلا ثم فقدناها أحوجَ ما كنا اليها ، فذلك ما يبكينا عليه ويحزننا على فراقه

*
* *

الكاتب كالمصور ، كلاهما ناقل ، وكلاهما حاكٍ ، الا أن الاول ينقل مشاعر النفس إلى النفس ، والثانى ينقل مشاهد الحس إلى الحس

وكما أن ميزان الفضل فى التصوير أن تكون الصورة والاصل كالشيء الواحد ، كذلك ميزان الفضل فى الكتابة أن يكون المكتوب فى الطرس ، خيال المكنون فى النفس

بهذه العين التى لاأزال أنظر بها دائما إلى الكتابة والكتاب ، وأوازن بها بين أقدارهم ومنازلهم ، كنت أقرأ

ذلك الاسلوب العذب البديع الذى كان يكتب به المرحوم جرجى زيدان كتبه ورواياته ، فأتخيله مرآة نقية صافية قد ارتسمت فيها صورة نفسه جلية واضحة لاغموض فيها ولا إبهام

وقليلا ما كنت أجد فى نفسى هذا الشعور عند النظر فى كتابة كاتب سواه ، لان الكاتب ان استطاع أن ينال ثناء الناس وإعجابهم ببلاغة لفظه ، أو براعة معناه ، أو سعة خياله ، أو قوة حجته ، فانه لايستطيع أن ينال الثقة من نفوسهم الا اذا كان من الصادقين المخلصين

كنت أرى عذوبة نفسه فى عذوبة لفظه ، وطهارة قلبه فى طهارة لسانه ، وصفاء ذهنه فى وضوح أغراضه ومراميه ، وجمال ذوقه فى جمال ملاحظاته واستنتاجاته ، وكان خير ما يعجبنى منه ترفعه عن مجاراة المتكبرين من الكتاب فى كبريائهم ، ونزولهُ فى كثير من مواقفه الى منازل العامة ليحدثهم بما يفهمون ، لانه كان من كتاب المعانى

لامن كتاب الالفاظ ، ولأنه كان يؤثر أن يتعلم عنه الجاهلون ، على أن يرضى عنه المتحذلقون

وان كان الرجل هو الاسلوب كما يقولون ، فلا أعلم أن أحدا فى هـذا البلد كان أولى بوصف الـكاتب من المرحوم جرجى زيدان ، فوا رحمتاه له ، ووا أسفاً عليه

احترام المرأة

نعم إن الرجال قوّامون على النساء كما يقول الله تعالى في كتابه العزيز ، ولكنّ المرأة عماد الرجل ، ومِلاك أمره ، وسر حياته ، من صرخة الوضع ، الى أنّة النزع

لايستطيع الأب أن يحمل بين جانحتيه لطفله الصغير عواطف الأم ، فهي التي تحوطه بعنايتها ورعايتها ، وتبسط عليه جناح رحمتها ورأفتها ، وتسكب قلبها في قلبه حتى يستحيلا إلى قلب واحد ، يخفق خفوقاً واحداً ، ويشعر بشعور واحد ، وهي التي تسهر عليه لياليها ، وتكلؤه نهارها ، وتحتمل جميع آلام الحياة وأرزائها في سبيله ، غير شاكية ولا متبرمة ، بل تزداد شغفاً به ، وإيثاراً له ، وضنًّا بحياته ، بمقدار ما تبذل من الجهود في سبيل تربيته ، ولو شئت أن أقول لقلت إن سر الحياة الانسانية ، ويَنبوع وجودها ، وكوكبها الأعلى الذي

تنبعث منه جميع أشعتها ، ينحصر فى كلمة واحدة (قلب الام)

لايستطيع الرجل أن يكون رجلا حتى يجد إلى جانبه زوجة تبعث فى نفسه روح الشجاعة والهمة ، وتغرس فى قلبه كبرياء التبعة وعظمتها ، وحسب المرء أن يعلم أنه سيد وأن له رعية كبيرة أو صغيرة تضع ثقتها فيه ، وتستظل بظل حمايته ورعايته ، وتعتمد فى شؤون حياتها عليه ، حتى يشعر بحاجته إلى استكمال جميع صفات السيد ومزاياه فى نفسه ، فلا يزال يعالج ذلك من نفسه ويأخذها به أخذاً حتى يتم له ما يريد ، ومانصح الرجلَ بالجد فى عمله ، والاستقامة فى شؤون حياته ، وسلوك الجادة فى سيره ، ولاهداه إلى التدبير ومزاياه ، والاقتصاد وفوائده ، والسعى وثمراته ، ولادفع به فى طريق المغامرة والمخاطرة ، والدأب والمثابرة ، مثلُ دموع الزوجة المنهلة ، ويدها الضارعة المبسوطة .

ولا يستطيع الشيخ الفانى أن يجد فى أخريات أيامه فى قلب ولده الفتى من الحنان والعطف ، والحب والايثار ،

ما يجد فى قلب ابنته الفتاة ، فهى التى تمنحه يدها عكازاً لشيخوخته ، وقلبها مستودعا لأسراره ، وهواجس نفسه ، وهى التى تسهر بجانب سرير مرضه ليلها كله تتسمع أنفاسه ، وتصغى إلى أناته ، وتحرص الحرص كله على أن تفهم من حركات يديه ، ونظرات عينيه ، حاجاته وأغراضه ، فاذا نزل به قضاء الله كانت هى من دون ورثته جميعا الوارثة الوحيدة التى تعد موته نكبة عظمى لايهوّنها عليها ، ولا يخفف من لوعتها فى نفسها ، أنه قد ترك من بعده ميراثاً عظيما ، وكثيراً ما سمع السامعون فى بيت الميت قبل أن يجف تراب قبره أصوات أولاده يتجادلون ويشتجرون فى الساعة التى يجتمع فيها بناته ونساؤه فى حجراتهن نائحات باكيات

وجملة القول أن الحياة مسرات وأحزان ، أما مسراتها فنحن مدينون بها للمرأة ، لانها مصدرها وينبوعها الذى تتدفق منه ، وأما أحزانها فالمرأة هى التى تتولى تحويلها

إلى مسرات، أو ترويحها عن نفوس أصحابها على الأقل، فكأننا مدينون للمرأة بحياتنا كلها

وأستطيع أن أقول وأنا على ثقة مما أقول إن الأطفال الذين استطاعوا فى هذا العالم أن يعيشوا سعداء معنياً بهم وبتربيتهم وتخريجهم على أيدى أمهاتهم بعد موت آبائهم أضعافُ الذين نالوا هـذا الحظ على أيدى آبائهم بعـد فقد أمهاتهم، وللرحمة الأموية الفضل العظيم فى ذلك

فليت شعرى هل شكرنا للمرأة تلك النعمة التى أسدتها الينا وجازيناها بها خيراً ؟

لا لا، لاننا إن منحناها شيئاً من عواطف قلوبنا، وخوالج نفوسنا، فاننا لا نمنحها أكثر من عواطف الحب والود، ونضن عليها كل الضن بعاطفة الاحترام والاجلال، وهى إلى نهلة واحدة من نهلات الاجلال والاعظام أحوج منها إلى شؤبوب متدفق من الحب والغرام

قد نحنو عليها ونرحمها، ولكنها رحمة السيد بالعبد،

لا رحمة الصديق بالصديق ، وقد نصفها بالعفة والطهارة ، ومعنى ذلك عندنا انها عفة الخدر والخباء ، لا عفة النفس والضمير ، وقد نهتم بتعليمها وتخريجها ولكن لا باعتبار أنها انسان كامل لهـا الحق فى الوصول إلى ذروة الانسانية التى تريدها والتمتع بجميع صفاتها وخصائصها ، بل لتمهد اليها بوظيفة المربية أو الخادم أو المرضة ؛ أو لتتخذ منها ملهاة لانفسنا ، ونديا لسمرنا ، ومؤنساً لوحشتنا ، أى إننا ننظر اليها بالعين التى ننظر بها إلى حيواناتنا المنزلية المستأنسة ، لا نسدى اليها من النعم ، ولا نخلع عليها من الحلل ، إلا ماينعكس منظره على مرآة نفوسنا فيملؤها غبطة وسروراً

إنها لا تريد شيئاً من ذاك ، إنها لا تريد أن تكون سُرِّيَّة الرجل ولا حَظِيّته ، ولا أداة لهوه ولعبه ، بل صديقته وشريكة حياته

انها تفهم معنى الحياة كما يفهمها الرجل ، فيجب أن يكون حظها منها مثل حظه

إنها لم تخلق من أجل الرجل ، بل من أجل نفسها ، فيجب أن يحترمها الرجل لذاتها لا لنفسه

يجب أن ينفس عنها قليلا من ضائقة سجنها لتفهم أن لها كياناً مستقلا ، وحياة ذاتية ، وانها مسئولة عن ذنوبها وآثامها أمام نفسها وضميرها ، لا أمام الرجل

يجب أن تعيش فى جو الحرية الفسيح ، وتستروح رائحته الاريجة ، ليستيقظ ضميرها الذى أخمده السجن والاعتقال من رقدته ، ويتولى بنفسه محاسبتها على جميع أعمالها ، ومراقبة حركاتها وسكناتها ، فهو أعظم سلطاناً ، وأقوى يداً ، من جميع الوازعين والمسيطرين

يجب أن نحترمها لتتعود احترام نفسها ، ومن احترم نفسه كان أبعد الناس عن الزلات والسقطات

لا يمكن أن تكون العبودية مصدراً للفضيلة ، ولا مدرسة لتربية النفوس على الاخلاق الفاضلة ، والصفات الكريمة ، إلا إذا صح أن يكون الظلام مصدراً للنور ،

والموت علة للحياة ، والعدم سلماً إلى الوجود

كما لاأريد أن تتخلّع المرأة وتستهتر ، وتهيم على وجهها في مجتمعات الرجال وأنديتهم ، وتمزق حجاب الصيانة والعفة المسبل عليها ، كذلك لاأحب أن تكون جارية مستعبدة للرجل ، يملك عليها كل مادة من مواد حياتها ، ويأخذ عليها كل طريق حتى طريق النظر والتفكير

وبعد فاما أن تكون المرأة مساوية للرجل في عقله وإدراكه ، أو أقل منه ، فان كانت الاولى فليعاشرها معاشرة الصديق للصديق ، والنظير للنظير ، وان كانت الأخرى فليكن شأنه معها شأن المعلم مع تلميذه والوالد مع ولده ، أى إنه يعلمها ويدربها ، ويأخذ بيدها حتى يرفعها إلى مستواه الذى هو فيه ، ليستطيع أن يجد منها الصديق الوفي ، والعشير الكريم ، والمعلمُ لايستعبد تلميذه ولا يستذله ، والأب لايحتقر ابنه ولا يزدريه

الانتقام

«مترجمة»

١

قضى المسيو «كاپرينى» برهة طويلة من أيام حياته سعيداً مغتبطاً بزوجة جميلة وثروة صالحة وخلق طيب شريف يحببه إلى الناس جميعاً، ثم نكبه الدهر نكبة عظمى ذهبت بماله وبزوجته، فبكاهما ماشاء الله أن يفعل، ثم بَلى حزنه كما تَبلى جميع الأحزان فى قلوب الناس، ولم يجد بداً من أن يعيش لابنته «إيلين» ليتولى تربيتها وإسعادها، فالتحق بمصرف من المصارف المالية بمرتب قليل، ثم لم يزل يجد ويجتهد فى خدمة العمل الذى وُكل اليه حتى أصبح بعد مدة قصيرة وكيلا لذلك المصرف، فكان يعمل فيه سحابة

نهاره ثم يعود ليلا إلى منزله فيرى ابنته منهوكة مضعضعة لكثرة ما كانت تبذل من الجهد فى خدمة المنزل ومناظرة شؤونه ، فرأى أن يتزوج ليخفف عنها بعض متاعبها وآلامها ففعل ، وكان سيىء الحظ فى اختياره ، فتزوج من امرأة فاسدة خليعة لاهم لها فى حياتها سوى ترفيه عيشها ، وتدليل نفسها ، والتقلب بين أعطاف شهواتها ولذائذها ، فلم ينتفع منها بشىء ، بل زادت همومه وآلامه وأثقال عيشه ، ولكن ماذا يعمل وقد وُضعت السلسلة فى عنقه وانتهى الأمر ، وأصبحت ابنته بعد أن كانت سيدة بيتها ، وأميرة نفسها ، أسيرة فى يد امرأة قاسية داهية تسومها أنواع الخسف ، وألوان العذاب ، فكانت تحتمل ذلك كله بصبر وجلد ، وكانت تكتمه أباها كتماناً شديداً ضناً براحته وسكونه ، بل كانت تكتم عنه علائق زوجته وصلاتها بمعارفها وأصدقائها ، رحمة به واشفاقاً عليه

وكثيراً ما كان يعود إلى منزله فى بعض لياليه حاملا

بعض دفاتر المصرف فى يده ليتمم فيها العمل الذى أعجله الوقتُ عن إتمامه هناك ، فيجلس إلى مكتبه ساهراً ليله ، مكباً على عمله ، ذائداً النوم عن عينيه ، حتى يغلبه على أمره ، فينام فى مكانه والقلم معلق بين أصابعه فى الساعة التى تكون فيها زوجته بين جمع من أصدقائها وعشرائها فى بعض الملاعب أو الحانات راقصة لاهية عابثة بجميع الفضائل الانسانية ، فاذا استيقظت ابنته أثناء الليل ورأته على هذه الحالة مشت اليه برفق وهدوء ، وجلست على كرسى أمامه ، واجتذبت اليها الدفتر الذى بين يديه وأتمت فيه العمل من حيث قطعه ، ثم توقظه بعد ذلك لينام فى فراشه فيشكر لها يدها ومعونتها ، ثم يسألها سؤال المتمعض المتمرمر : ألم تعد فلانة حتى الآن ؟ فتجيبه أن لا ، فيذهب إلى سريره حاملا بين جنبيه من الهم والألم ما الله به عليم

وجملة القول أن الرجل كان شقياً منحوساً ، يسير من شؤون حياته فى ظلمة داجية لا ينتهى بصره فيها إلى مدى ،

ولا يرى فى سمائها نجماً يتنوره إلا ذلك النجم الضئيل الذى كان يلمع من حين إلى حين فى جبين ابنته الراحمة الشفوقة ، فيتنفس أمامه تنفس الراحة ، ويأذن لفمه أن يبتسم فى ضوئه ابتسامة الغبطة والسرور

فانه لجالس ذات يوم فى غرفة مكتبه من المصرف إذ دعاه اليـه مديره وأعطاه ورقة مالية قيمتها خمسة آلاف فرنك ليودعها الخزينة ويسجلها فى دفاتر المصرف ، فتناولها منه وعاد بها إلى غرفته ووضعها على مكتبه وتناول الدفتر ليقيدها ، فما أمسك القلم بيده حتى دخل عليه بواب المصرف وقال له إن فتاة من هيئتها كيْت وكيْت واقفة بالباب تسأل عنك وهى تكتم اسمها وتأبى الدخول إلى هنا ، فاضطرب اضطراباً شديداً ، ومر بخاطره انها ابنته ، وأن حادثاً عظيما حدث بالمنزل دعاها إلى الحضور إليه فى المصرف وماحضرت إليه فيه قبل اليوم ، فترك كل شىء فى مكانه وخرج مسرعاً ليراها ، فاذا هى بعينها واقفة بجانب الجدار وقفة الحياء

والخجل ، وإذا بيدها كتاب تحمله إليه من زوجته ، فاختطفه منها وقرأه فاذا هي تقول له فيه إنها تريد أن يرسل إليها في هذه الساعة أربعة آلاف فرنك لتبتاع بها حلة جميلة رأتها في بعض المخازن ، وإنها إن فاتها أن تبتاعها اليوم فربما لاتجدها غداً ، فانفرجت شفتاه عن ابتسامة الغيظ والألم ، وأخذ ابنته ناحية وقال لها بلغيها أنني لا أملك هذا المبلغ اليوم ولا غداً ، ولا أستطيع ذلك العام كله ، ثم ألقى عليها نظرة العاتب لحضورها اليه في المصرف وكان لايحب ذلك منها ، فأطرقت برأسها ، ولم تقل شيئاً ، لأنها لاتستطيع أن تقول له إن زوجته هي التي أرغمتها على ذلك ، فتزيد همومه هماً جديداً ، ثم عادت أدراجها

وكان بين عمال المصرف عامل سيء الأخلاق ، فاسد النفس والضمير ، مازال مذ دخل هذا المكان يرصد الغفلة من مديره أو وكيله عله يتوصل إلى اختلاس شيء من المال ، فدخل غرفة الوكيل في اللحظة التي خرج فيها لمقابلة ابنته

ليقدم إليـه بعض الأوراق فـلم يجده ، ولمح الورقة المالية التى تركها على المكتب ، فحدثته نفسه باختلاسها ، فدار بنظره ههنا وههنا ثم انقض عليها ووضعها فى جيبه ، وخرج متسللا لم يشعر أحد بدخوله ولا بخروجه ، وما هى إلا لحظة حتى عاد المسيو « كاپرينى » وفى يده الكتاب الذى أرسلته اليه زوجتـه فمزقه وألقى به فى السلة ، ثم ألقى نظره على المكتب فلم ير الورقة المالية حيث تركها ، فذعر ذعراً شديداً ، وأخذ يفتش عنها فى كل مكان فلم يجدها ، فاشتد حزنه وهمه ، وأخـذ يسأل العمال والخدم عمن دخل غرفته فى غيابه فلم يعترف له بذلك أحـد ، فظل يصرخ صرخات عظمى تقيم المصرف وتقعده ، فسمع المدير الضوضاء فحضر ليرى ماذا حدث ، فأفضى إليه الرجل بالقصة كما هى لم يكتمه منها شيئاً إلا أ لم يشأ أن يخبره بموضوع الرسالة التى جاءت فيها ابنته ضنا بأسراره البيتية أن يعلمها أحد غـيره ، فارتاب به الرجل ، وما كان يعتدُ عليه بسيئة قبل اليوم ،

ولا يعرف له ماضياً مريباً ، ولكنه كان يعلم أنه فقير مقل ، فظن به الظنون ، وقديماً كان الفقر يَنبوع التهم ، ومثار الشكوك والريب ، وتركه مكانه وخرج إلى العمال والخدم يحادثهم فى هذا الشأن عله يصل إلى معرفة الحقيقة ، فأخبره البواب أن الفتاة التى حضرت اليه كانت تحمل فى يدها كتاباً ، وأنه أخذها جانبا وأسر اليها حديثاً لم يسمع منه شيئاً ، فازداد شكه وارتيابه ، وعاد إليه فوجده واقفاً فى مكانه مذهولا لا يقلب كفيه ، فلم يقل له شيئاً ، وأخذ يدور بعينيه فى أنحاء الغرفة ويقلب بيده الأوراق عله يعثر بذلك الكتاب الذى أخبره به البواب فلم يجده ، فألقى نظره على السلة فرأى تلك المِزَقَ الصغيرة فجمعها ، فاذا هى الكتاب الذى يريده ، فقرأه ثم ألقى على الرجل نظرة شزراء وقال له إنى أتهمك يامسيو كاربنى بأنك اختلست تلك الورقة وأرسلتها إلى زوجتك مع ابنتك لتبتاع بها الحلة الجميلة التى أعجبتها ، فدهش الرجل دهشة عظيمة ، وورد عليه

ما طار بابه ، وأخذ عليه أنفاسه ، فصمت لحظة ، وبعد لأى مّا استطاع أن يقول له : نعم إنها أرسلت إلىّ هذا الكتاب ولكننى لم أحفل به ، ولم أرسل اليها شيئا ، بل رددتها ردًا قبيحًا ؛ لأننى رجل فقير لا أملك هذا المقدار ، ولأنى رجل شريف لا أختلسه ، فلم يحفل المسيو « لورين » بدفاعه ولم يرث لضراعته واسترحامه ، ولم يلبث أن رفع أمره إلى القضاء فما أتى آخر النهار حتى كان الرجل فى السجن ، وكانت ابنته المسكينة فى حال من الهم والحزن تستثير الاشجان ، وتستذرف العبرات ، أما زوجته فلم يكن يهمها فى تلك الساعة شىء سوى السعى للحصول على ثمن الحلة الجميلة من طريق غير هذا الطريق

لم ينفع الرجل دفاعه عن نفسه ، ولا دفاع ابنته عنه ، ولا شهادة الذين شهدوا بشرفه واستقامته من جيرانه وأصدقائه ، لأن القضاة لا يستطيعون أن يصدقوا أن رجلا عظيما سريا مثل المسيو « لورين » صاحب المصرف المشهور

يكذب أو يلفق ، أو يخطئ في فراسته وتقديره ، وأن رجلا فقيرا مقلا مثل المسيو كاريني يتعفف عن اختلاس المال الذي يقع تحت يده متى وجد السبيل الى ذلك ، وكثيراً ما ساقت أمثال هذه الاقيسة الفاسدة والنظرات الطائشة الحمقاء الابرياء والاشراف إلى أعماق السجون ، وقضت عليهم وعلى أهليهم القضاء الاخير ، كما قضت على هذا الرجل المسكين اليوم ، فان قاضي التحقيق لم يلبث أن سمع شهادة خصمه عليه وعرف قصة الكتاب الذي أرسلته اليه زوجته حتى اقتنع باجرامه وأحاله إلى محكمة الجنايات

فاستطير عقل « إيلين » وجن جنونها فلم تجد بداً من أن تذهب الى المسيو لورين لتستعطفه لابيها ، وتضرع اليه أن يساعدها على خلاصه ، فذهبت اليه في منزله فاستأذنت عليه فأذن لها فدخلت ، فدهش دهشة عظمى حين رأى أمامه فتاة جميلة بارعة ، بل آية من آيات الحسن والجمال، لاعيب

فيها إلا أنها نحيلة صفراء متضعضعة وقد يكون الضعف والفتور عند بعض الناس حلية من حلى الجمال ، فافتتن بها حين رآها إلا أنه أخطأ فى الحكم عليها ، كما اخطأ من قبل فى الحكم على أبيها ، فظن أنه يستطيع أن يستثمر لنفسه ضرورتها وحاجتها ، فأخذ يحدثها فى الشأن الذى جاءت من أجله ، ثم ذهب معها فى الحديث مذاهب أخرى لم تفهم غرضه منها إلا بعد حين ، لأنها لم تألف سماع مثلها قبل اليوم ، فأخذ وجهها يربدّ شيئاً فشيئاً ، ثم انتفضت انتفاضة الليث فى غيله وألقت عليه نظرة هائلة لو ألقتها على رجل غيره لصعق فى مكانه ، ولكنه كان رجلا وَقاحاً متبلداً فلم يحفل بنظرتها ، وتقدم نحوها وحاول أن يغلبها على أمرها ، فدافعت عن نفسها دفاعا شديداً حتى عجزت ، فأرادت الفرار من بين يديه فاعترض طريقَها ، فدارت بنظرها فى أنحاء الغرفة تتلمّس سبيلا إلى الخلاص ، فوقع نظرها على مسدس كان فوق مائدته ، فاختطفته لتهدده به ، فانطلقت منه رصاصة خطأ فأصابته فى ذراعه ،

فصرخ صرخة عظمى ، وما هى إلا لحظات قلائل حتى قبض عليها وسيقت إلى السجن بتهمة أنها دخلت على المسيو « لورين » فى منزله لتسأله أن يساعدها على تبرئة والدها فلم يحفل بها فأخرجت مسدساً كانت تخفيه فى طى ردائها وأطلقته عليه لتقتله فلم تصبه الا فى ذراعه

وقد كان فى استطاعة المسيو لورين أن يعترف بالحقيقة التى يعرفها حق المعرفة فلم يفعل ، ولو فعل لما ضره ذلك شيئاً وما هى إلا أيام قلائل حتى حكمت عليها محكمة الجنايات بالسجن خمس سنين ، وكانت قد حكمت على أبيها قبل ذلك بالسجن عامين

٢

دخلت « إيلين » سجن النساء لتقضى فيه المدة المقدرة لها ، ووُضعت فى غرفة واحدة مع امرأة عجوز ساقطة قضت جزءاً عظيما من حياتها فى هذا المكان المظلم القاتم حتى ألفته ، وجمدت نفسها عليه ، فلم تعد تحفل بشىء فى هذا

العالم ، ولا تفكر إلا فى الساعة التى يقدَّم فيها اليها الطعام فتلتهمه التهاماً ، وهى تضحك وتتغنى كأنما هى سعيدة هانئة ، وكأنها أبعد الناس عن الهموم والاحزان ، فذعرت إيلين حين رأتها ذعرا شديداً ، وتسللت إلى زاوية من زوايا الغرفة فقبعت فيها ، واستسلمت لهمومها وأحزانها ، ولم تدع قطرة من الدمع فى عينيها الا ذرفتها ، وأبت أن تتناول الطعام الذى قدمه اليها السجان ، فوضعه بين يديها وتركها وشأنها ، فبكت ماشاء الله أن تفعل حتى هدأ بعض ما بها ، فعمدت إلى كتاب صغير من كتب الاخلاق كانت لاتزال تحمله فى جيبها ما تفارقه ، فأخرجته وأخذت تتلهى بتقليب صفحاته ، فكان أول ما وقع نظرها عليه من كلماته هـذه الـكلمة « العفو أشد أنواع الانتقام » فانتفضت عندقراءتها انتفاضاً شديداً ، وَعلِقَ نظرها بها ما ينتقل عنها ، وأخذت تراجع الحوادث التى مرت بها ، وتستعرضها واحدة بعد أخرى ، وتفكر فى المظالم التى نالتها ونالت أباها ، وما اقترفاذنبا ، ولا اجنيا على

أحد ، حتى أوردتهما هذا المورد من الشقاء ، فشعرت بدبيب الشر فى نفسها للمرة الاولى فى حياتها ، وظلت تقول فى نفسها : إن الذين مرت على ألسنتهم أمثال هذه الكلمات انما كانوا يعيشون فى عصر غير هـذا العصر ، وبين ناس غير هذا الناس ، ولو أنهم عاشوا بيننا لكان لهم فى العالم وأهاليـه رأى غير هذا الرأى ، ولما اجترأوا على المجازفة بتدوين هذه الافكار فى كتبهم ، لان العفو لايكون انتقاماً إلا من أصحاب الضمائر الطيبة الطاهرة التى يقلقها الذنب ، ويخجلها العفو ، والتى تصدر عنها سيآتها زلات وهفوات ، أما الضمائر القاسية المتحجرة التى لاتعبأ بشىء ، ولا تخجل من شىء ، فلا يزيدها العفو والصفح إلا تمرداً وطغيانا

وإنها لذاهبة هذه المذاهب الغريبة فى تصوراتها وخيالاتها إذ دنت منها جارتها العجوز تختلس الخطى اليها اختلاساً حتى وقفت وراءها ونظرت فى الصفحة التى تنظر فيها فوقع نظرها على تلك الكلمة التى كانت تُنعم النظر فيها

فقهقهت ضاحكة بصوت عال غريب فارتعدت « إيلين »
والتفتت وراءها صارخة : ماذا تريدين ياسيدتى ؟ قالت
لاتخافى يا بُنيتى ولا تراعى ، فما أنا بمجنونة كما ظننت وكما
يظن سكان هذه الدار ، ولكننى رأيتك مستغرقة فى هذا
الكتاب لاترفعين نظرك عنه فجئت لأقول لك : دعى
الكتب وشأنها لاتحفلى بها ، ولا تعولى على شىء فيها ،
فان أصحابها الذين وضعوها غرباء عن هذا العالم لايفهمون
من شئونه شيئاً إلا كما نفهم نحن من شؤون عالم الجن أو سكان
المريخ ، بل هم قوم معتوهون ممرورون قضوا أيام حياتهم
فى معتزلاتهم الخاصة المظلمة التى لاتوجد فيها نافذة واحدة
تشرف على العالم ومافيه ، فملوا وسئموا ، وأرادوا أن يروّحوا
عن أنفسهم ، ويتلهوا بما يسرّى عنهم مللهم وسآمتهم ، فأخذوا
يدونون هذه المبادىء التى انتزعوها من جوانب أدمغتهم ،
لامن طبيعة المجتمع الذى يحيط بهم ، ويقررون الآراء التى
يستحسنونها ويعجبون بها ، لا التى تتفق مع طبيعة الكون

وخصائصه ، فهم ينصحون المجرم أن يقلع عن إجرامه ، ثم يخيل اليهم أنه قد أقلع ونزع ، فيطلبون الى من أجرم اليه أن يعفو عنه ، قائلين له « ان العفو أشد أنواع الانتقام » كأن الفضيلة عندهم هيَ الحالة الاساسية للنفوس ، وكأن الاجرام عرض من أعراضها الطارئة عليها ، لا تلبث أن تهب عليه نسمة من نسمات العظة والاعتبار حتى تذهب به ، فما أسخف عقولهم ، وما أقصر أنظارهم ، وما أبعدهم عن فهم حقائق الحياة ، وطبائع النفوس ، دعى الكتب يابنيتي لا تنظرى فيها ، وانزعى عنك همومك وأحزانك ، وكلى الطعام الذى يقدم اليك هانئة مغتبطة لا تلوين على شىء مما وراءك ، فسيأتى قريباً أو بعيداً ذلك اليوم الذى يفتح لك فيه هذا الباب الموصد دونك ، فتخرجين إلى الانتقام من الرجل الذى أساء اليك ، وساقك إلى هذا المكان ، وتنالين منه فوق مانال منك ، كما سأفعل أنا يوم خروجى بالرجل الذى ساءنى ، وأفسد على حياتى ، فليس العفو أشد أنواع الانتقام كما يقولون ، بل الانتقام أعظم ملاذّ الحياة

فهدأت نفس إيلين قليلا ، واستطاعت أن تتناول شيئاً من الطعام الذى قدم إليها ، إلا أنها كانت إذا جاء الليل رأت أباها فى منامها يقاسى أنواع العذاب وصنوف الآلام فى سجنه ، فتصبح باكية نادبة لا يهوّن عليها آلامها بعض التهوين إلا ثرثرة تلك العجوز وهذيانها ، حتى نامت ذات ليلة فرأته ميتاً على سرير من أسرة مستشفى السجن تحيط بجثته شمعتان مضيئتان ، فاستيقظت فزعة مذعورة تبكى وتنتحب ، وما هى إلا هنيهة حتى دخل عليها السجان يدعوها لمقابلة مدير السجن ، فذهبت إليه فأبلغها أن أباها توفى الليلة فى المستشفى فصعقت صعقة كادت تذهب بنفسها ، ثم استفاقت فاذا هى فى غرفة سجنها ، وإذا هى أشد عباد الله بؤساً ، وأعظمهم شقاء

٣

قضت « إيلين » سنواتها الخمس فى سجنها ثم خرجت فمشت معها رفيقتها العجوز تشيعها إلى الباب وتقول لها لا تنسى يا بنيتى أن تنتقمى من عدوك الذى أساء إليك ،

وتنكلى به تنكيلا عظيما ، وسأتبعك على الأثر عما قريب لأنتقم من عدوى مثلك ، وهل لمثلى ومثلك فى هذه الحياة الشقية البائسة عزاء غير عزاء الانتقام

فودعتها وانصرفت ، لا تعلم أين تذهب ، ولا أى طريق تسلك ، بل لا تعلم أين تجد قوت يومها ، أو المضجع الذى تأوى إليه سواد ليلتها ، فقد انقطعت صلتها بالعالم كله بعد موت أبويها ، وطُبع على جبينها لقب « المجرمة » الذى خرجت به من سجنها

ولم تزل سائرة عدة ساعات حتى شعرت بالتعب والنصب وأحست بالجوع يعبث بأحشائها ، فحدثتها نفسها بالانتحار فراراً من الألم ، وزهداً فى الحياة ، وظلت تترجح ساعة بين الأنس بهذا الخاطر ، والنفور منه ، حتى غلبها على أمرها ، فأخذت طريقها إلى النهر ، وكانت الليلة داجية مكفهرة تلمع بروقها ، وتهطل غيومها ، وتدمدم رعودها ، وتعصف رياحها

فاستمرت أدراجها حتى إذا لم يبق بينها وبين النهر إلا بضع خطوات سمعت قعقعة مركبة مقبلة نحوها من بعيد يمزق نور مصباحيها المشتعلين أحشاء الظلمات فتريثت هنيهة فى مكانها حتى مرت المركبة بها فاذا المسيو « لورين » جالساً بين بضع فتيات خليعات ، يعابثهن ويداعبهن ، ويقهقه قهقهة عالية ترن فى أجواز الفضاء ، فاختبأت وراء بعض الأشجار حتى مرّ ثم برزت من مخبئها تحدث نفسها وتقول : ها هو ذا المجرم سعيد فى حياته ، مغتبط بحظه ، يتقلب فى أعطاف العيش الناعم لا ينغص عليه عيشه منغص ، ولا يكدر حياته مكدر ، وها أنذا البريئة الطاهرة التى لم ألوث يدى فى حياتى بجريمة ، ولم اقترف بينى وبين ضميرى إثماً ، أهيم فى هذا الوادى الفسيح على وجهى ، لا أعرف لى ملجأ ولا مأوى ، ولا أعرف سبيلا للعيش ولا مذهباً ، ولو عرفتُ لما استطعت أن أنتفع بمعرفتى ، لأننى عند الناس مجرمة قاتلة ، ومن ذا الذى يأمن على نفسه أن يتصل بالقتلة المجرمين ، أو يعطف على بأسائهم وضرائهم

لا لا ، لا بد أن أعيش ، ولا بد أن أنتقم ، وما دامت الشرائع الالهية والقوانين الوضعية قد عجزت عن أن تنتصف الناس من الناس ، فلينتصف الناس بأنفسهم لأنفسهم

وانحدرت من طريق النهر إلى طريق المدينة ، وقد وَدعت فى تلك اللحظة جميع خواطر الخير التى ملأت فضاء نفسها طول حياتها ، وخلعت ذلك الثوب الجميل المتلألىء الذى لبسته منذ برزت إلى الوجود حتى اليوم — ثوبَ الشرف والكرامة والطهارة والأدب — واستحالت نفسها الطاهرة الكريمة إلى نفس أخرى غيرها لاصلة لها بها ، فلمْ ينحدر برقع الظلام عن وجه الصباح حتى رآها الناس سائرة مع أحد العمال المريبين هادئة ساكنة ، باسمة متطلّقة لم يبق فى وجهها من دم الحياء إلا بضع قطرات قد أخذ لونها يستحيل شيئاً فشيئاً إلى لون البياض لتلحق باخوانها

٤

وكذلك هوت تلك الفتاة المسكينة البائسة فى تلك

الهوة التى حفرها المجتمع الانسانى لأمثالها من الفتيات البائسات ، فظلت تتنقل من يد إلى يد ، ومن مضجع إلى مضجع ، وكأن الحظ الذى فارقها وتجهَّم لها فى حياة الطهارة والعفة ، أقبل عليها بوجهه الباسم المتهلل فى حياة السقوط والفساد ، فما هى إلا أيام قلائل حتى طلعت فى سماء باريس نجماً ساطعاً متلألئاً تنير كل أفق تشرق فيه ، وتعطر كل أرض تخطر بأرجائها ، وتعبث بألباب الرجال ، عبث النسائم بأوراق الأشجار

فانها لجالسة ذات ليلة فى مقصورة من مقاصير بعض الملاعب التمثيلية فى جمع من أصدقائها المفتتنين بها إذ وقع نظرها على خصمها المسيو « لورين » جالساً فى المقصورة المقابلة لها مع إحدى خليلاته ، فانتفضت حين رأته ، وثارت فى نفسها ثائرة الغيظ والحنق ، وظلت تردد النظر فى وجهه طويلا ، فلمحها وهى تنظر إليه ، فأعجبه منظرها البارع الجميل إلا أنه لم يعرفها ، فقد تغير كل شىء فيها حتى ملامحها وشمائلها

فما انتهى الفصل الأول من الرواية حتى نهض من مكانه مسرعا ، وذهب يرود حول مقصوراتها حتى التقى بأحد أصدقائه وأصدقائها في دهليز المقاصير ، فسأله عنها ، فأخبره أنها السيدة « لوسى » المارسيلية الحسناء أجمل فتاة وفدت إلى باريس في هذا العام ، فتوسل إليه أن يقدمه إليها ففعل ، فأحسنت ملتقاه وقد أضمرت له في نفسها شرّ ما يضمر عدوٌ لعدوه وأقبلت عليه تحدثه ، و تتلطف به ، وتمدله الحبالة التي اعتادت أن تمدها كل يوم لأمثاله ، فما لبثت أن وقعت من نفسه ، وملكت عليه جميع مشاعره ، ثم رُفع الستار فاستأذنها وعاد إلى مقصورته ، وقد حلت من قلبه محلا لم يحله أحد قبلها

وفي صباح اليوم الثانى أرسل إليها مع بعض رسله طاقة جميلة من الزهر قد دس بين أوراقها عقداً بديعاً من اللؤلؤ الثمين ، فابتهجت به حين رأته ، لا لأنها في حاجة إلى العقود والدمالج ، بل لانها علمت أنها قد وضعت يدها على الزمام الذى تقوده به إلى الهلاك ، ثم زارها على الاثر وخرّ

جاثياً تحت قدميها مقدما لها قلبه وحياته ، وكل ماتملك يده أى إنه جثا تحت قدمى تلك الفتاة البائسة المسكينة التى جثت تحت قدميه منذ سنوات تسأله أن يساعدها على فكاك أبيها من سجنه ، وتضرع إليه أن يغفر له ذنبه إليه ، إن كان يعتقد أنه مذنب ، فلم يفعل ، ولو أنه فعل لابتاع بثمن قليل لايوازى ربع ثمن العقد الذى قدمه الآن إليها قلبا طاهراً نقيا ، لم تلوثه الذنوب والآثام ، ولم تعبث به الأهواء والشهوات وعاش عيشا طاهراً شريفا مع خير الزوجات وأفضلهن خلقاً وخُلقاً ولكن هكذا قُدر لهؤلاء المساكين الضعفاء أن يضنوا بالنزر اليسير من أموالهم على ابتياع القلوب الشريفة الطاهرة ، حتى إذا لوثتها الذنوب والآثام ، وأصبحت نهباً مقسما فى أيدى الشهوات ، بذلوا فى سبيل الوصول إليها جميع ما تملك أيديهم حتى شرفهم وحياتهم ، فقد ابتاع المسيو « لورين » لخليلته الجديدة قصراً جميلا أثثه أثاثاً حسناً ، ونزل على حكمها فى كل ما تريد وتشتهى ، حتى أنفق عليها فى عام واحد كل ما تملك

يمينه ، ثم اضطر أن يعبث بودائع الناس المودعة فى مصرفه ، فمشى فى ذلك المزلق المنحدر مدى بعيداً أشرف منه على الخطر العظيم

ثم حدث بعد ذلك أن فُتحت سوق للاحسان فى باريس وكانت « لوسى » إحدى النساء اللواتى وقع عليهن الاختيار لبيع الأزهار فيها ، وكان تجار تلك السوق أجمل نساء باريس على الاطلاق ، فجلست فى حانوتها المعد لها ، وقد أمسكت بيدها زهرة تعرضها للبيع ، وتعد من يبتاعها منها أن يتناولها بفمه من فمها ، فازدحم حولها كثير من الأغنياء يتزايدون فى ثمن تلك الزهرة ، حتى برز رجل من بينهم اسمه الكونت «مارسيال» فعرض فيها خمسمائة فرنك ، فقالت لا أبيعها إلا بألف ، فأمسك الكونت ، وأمسك الناس جميعاً ، وإنهم لكذلك إذا بالمسيو « لورين » يتقدم بهدوء وسكون وفى يده ورقة بألف فرنك ، فوضعها بين يدى لوسى ، وقال لها لا يبتاع منك زهرتك ياسيدتى أحد سواى ، فوضعتها بين

ثناياها ، فتناولها منها بفمه بأسلوب رقيق حسده عليه مزاحموه جميعاً ، وخاصة الكونت مارسيال ، فقد انصرف من موقفه هذا وهو يقول : ما رأيت فى حياتى صاحب مصرف يذهب فى حياته هذا المذهب من البذخ والاسراف ويبعثر المال بلا حيطة ولا حذر كهذا الرجل ، وما أحسب أن ثروته الخاصة تتسع لكل هذا ، فلا بد أن يكون لصاً دنيئاً يسرق ودائع الناس ويبددها ، فويل للمساهمين فى مصرفه ، ورحمة الله على أموالهم جميعا ، وكان يتكلم بصوت عال يسمعه الناس جميعهم ، وليس بين الاحاديث حديث أسيرَ ولا أذيعَ من حديث السوء ، فمشت كلماته فى المجتمعات العامة والخاصة . فاضطرب لها المساهمون وأصحاب الودائع اضطراباً عظيما ، ووصل الخبر إلى أعضاء مجلس إدارة المصرف فهالهم الأمر ، وأشفقوا على سمعة مصرفهم أن تنال منها هذه الاراجيف ، فيسقط سقطة لاقيام له من بعدها ، فقرروا الاجتماع فى يوم معين لمراجعة حسابه ، وتفقد أمواله ، فلما علم

ذلك المسيو لورين أخذ يزوّر فى الصكوك ، ويعبث بدفاتر الحساب ، طلباً للخلاص من التبعة ، فلم يجده ذلك شيئاً ، فقد فهم مجلس الادارة كل شىء ، فلم ير بداً من أن يرفع الامر إلى القضاء ففعل ، والمسيو لورين مستغرق فى شهواته ولذاته ، جاثٍ ليله ونهاره تحت قدمى خليلته ، لا يشعر بشىء مما يجرى حوله ، لولا أن أحد أصدقائه من المحامين وقف على جلية الخبر فزاره فى منزله ليخبره به فلم يجده ، فذهب إلى منزل لوسى فوجده ، فأخبره أن الامر قد صدر بالقبض عليه . وأنه إن لم يبادر بالسفر فى الحال فقد هلك إلى الابد ، فأشار إلى « لوسى » أن تُعد له حقيبة ملابسه ، وأن تهيئ نفسها للسفر معه ، وهو أعظم الناس ثقة بها ، وبحبها وإخلاصها ، فتظاهرت بالاذعان لامره ، والرثاء له ، ولكنها لم تلبث أن خرجت من الغرفة حتى هرعت إلى غرفة « التليفون » وبلغت رئيس الشرطة خبر عزمه على الهرب ، وأشارت عليه بارسال من يقبض عليه فى الحال ، ثم أمرت الخدم

باغلاق الابواب والوقوفِ فى وجهه إن أراد الفرار ، ثم عادت إليه ، فسألها هل أعدت كل شيء ؟ فنظرت إليه نظرة غريبة لم يفهم معناها ، ثم انفجرت ضاحكة بصوت عال ، فدهش وسألها ما بالها ؟ قالت لاشيء سوى أنك ستبقى سجيناً هنا حتى يأتى رئيس الشرطة للقبض عليك ، ثم ألقت عليه نظرة مخيفة هائلة ، فعجب لأمرها ، ولم يعلم أمازحة هى ، أم نزل بها عارض من عوارض الجنون ، ووثب من مكانه مسرعاً ودنا منها وقال لها ماذا عرض لك يالوسى ، فقد طلبت اليك أن تهيء نفسك للسفر معى فهل فعلت ؟ فقد دنت الساعة ، ولسنا الآن فى موقف مزاح ، وأخاف أن تفاجئنا الشرطة الساعة فنفوت الفرصة ، فضحكت ضحكة أخرى ، وقالت قد بلغتُ رئيس الشرطة أنك عازم على السفر ، وأشرت عليه أن يبادر بارسال الجنود ليقبضوا عليك ، وأمرت الخدم باغلاق الأبواب حتى لاتتمكن من الهرب قبل حضورهم ، فجن جنونه ، وقد بدأ الريب يدب

فى نفسه . وإن لم يفهم لما يرى سبباً ، فركض إلى الباب ليتحقق الأمر بنفسه ، فوجده مغلقاً ، فأمرها أن تفتحه فأبت ، فهجم عليها هجمة شديدة وهو يصيح . أين المفتاح أيتها العاهرة ؟ فقالت أتريد أن تقتلنى كما قتلت أبى بالأمس ؟ فلم يفهم معنى كلمتها ، ووقف فى مكانه ذاهلا يقول لها لم أفهم من أمرك شيئاً ، ماذا تريدين ؟ ومن هو أبوك ؟ قالت هو المسيو كاپرينى وكيل مصرفك بالأمس الذى اتهمته ظلماً وعدوانا بالسرقة وأنت تعلم أنه رجل شريف مستقيم لو علم أن شرب الماء يفسد مروءته ما شربه ، فكانت نهاية أمره أن مات فى سجنه ميتة الأشقياء البؤساء ، لا يعوده من أهله عائد ، ولا يحتضنه إلى صدره فى ساعة نزعه محتضن ، ولا يوجد بجانب مضجعه من يسمع منه وصيته الأخيرة

فاصفر وجه لورين ، وظل جسمه يرتعد ارتعاداً شديداً وأخذ يحدق النظر فى وجهها ، ويتراجع شيئاً فشيئاً ، ويقول بصوت مضطرب متقطع ، إذن أنت لست . . . فقاطعته

وقال نعم لست حبيبتك « لوسى » كما تعتقد ، بل عدوتك « إيلين » التى تريد أن تنتقم منك لفجيعتها فى أبيها وفى نفسها ، أنا إيلين التى جئت تحت قدميك منذ سبعة أعوام تسألك أن ترحم أباها وترحمها ، فأبيت إلا أن تساومها فى عرضها ، فلما ضنت به عليك أردت النكاية بها فاتهمتها بتهمة القتل كذباً وافتراء كما صنعت بأبيها من قبلها ، فصدق القضاة الاغبياء دعواك ، فحكموا عليها بالسجن خمس سنوات كابدت فيها من صنوف العذاب وأنواع الآلام مالا يستطيع أن يحتمله بشر ، ثم خرجت من سجنها مصفرة اليد من كل شىء ، من بيتها وأهلها ، وكرامتها وشرفها ، وكل ما تملك يدها حتى من القوت الذى تقيم به صلبها بياض يومها وسواد ليلتها ، وكان لابد لها من المغامرة بنفسها فى إحدى الهوتين ، إما هوة الموت لترتاح من هموم الحياة وآلامها ، أو هوة الفساد لتنتقم لنفسها من عدوها الذى نكبها ، وأفسد عليها حياتها ، فآثرت الانتقام على الموت ، لان نفسها

الطاهرة الطيبة قد استحالت إلى نفس شريرة حاقدة لا تريد أن تسمح لعدوها أن يبنى سعادته على أنقاض شقائها ، وأن يفلت من العقوبة التى هى النتيجة الطبيعية للذنوب والآثام، وهاهى ذى قد انتقمت لنفسها ، وروحت عنها همومها وآلامها

فنكس رأسه مليا ثم رفعه وقال إذن ما أحببتنى قط يالوسى ؟ قالت نعم ، بل ما اتصلت بك إلا لأسوقك إلى هذا المصير الذى صرت اليه اليوم ، أنت الآن متألم جداً ، بل لا يوجد فى العالم كله ألم مثل الالم الذى يعتلج فى أعماق نفسك ، لانك فقدت فى يوم واحد شرفك وكرامتك ، ومالك وحريتك ، وموضوع حبك ، ووجهة آمالك فى حياتك ، وهذا ما كنت أريده وأرجوه ، وهذه هى الساعة الوحيدة التى شعرت فيها بلذة العيش وهنائه من بين ساعات حياتى

فنظر إليها نظرة منكسرة دامعة وقال لها ما كنت لأحفل

بخسران شىء فى الحياة لو أنى ربحتك يالوسى ، أمّا وقد أصبحت يدى صفراً منك فلا خير فى العيش من بعدك ، ثم تهافت على مقعد بجانبه وانفجر باكياً ما تهدأ دموعه ،ولا يفتر نشيجه ، حتّى حضر الجند فاعتقلوه ، وساقوه الى سجنه وهو صامت واجم لا يرفع طرفه ، ولا يلتفت وراءه ،وإيلين تشيعه بنظرات السرور والاغتباط حتّى انقطع أثره

٥

نعم إن الانتقام لذيذ جداً كما يقولون ، ولكنه اللذة التى يعقبها الندم والاسف ، وتأتى على أثرها الحسرات والآلام، وما استطاع منتقم قط أن يزن عمله بميزان العدل والحكمة فتهدأ نفسه ويستريح ضميره بعد فراغه من انتقامه كما تهدأ نفس القاضى العادل بعد صدور حكمه بالعقوبة التى يراها ، والفرق بينهما أن القاضى يصدر فى رأيه عن نفس هادئة مطمئنة ، قادرة على الروية والاناة ، والمقارنة والمقابلة ، والوزن والتقدير ، والمنتقم يصدر فى عمله عن روح هائجة

محتدمة لاهمّ لهـا إلا أن تلتهم وتستأصل ، وتأتى على كل ما تستطيع الاتيان عليه ، فهو يقضى قضاءه لا ليعاقب المجرم على جريمته ، ولا ليدفع عن المجتمع شروره وآثامه ، بل ليجرح نفسه ويؤلمها ، وينال منها أقصى مايرى أنه كاف لشفاء حقده ، وإطفاء غلته ، فيجازى على الشتم بالضرب ، وعلى الضرب بالقتل ، وعلى القتل بالتشويه والتمثيل ، ولا يأبى أن يأخذ البرىء بذنب المجرم ، والجار بذنب الجار ، فالانتقام جريمة كيفما كان الباعث عليه ، والدافع له ، وكلُّ جريمة تترك فى نفس صاحبها نصيباً من الألم والحسرة بمقدارها ما من ذلك بدٌّ ، ولقد صدق الذى يقول إن العفو مرارة ساعة ، ثم السعادة إلى الابد ، وإن الانتقام لذة ساعة ، ثم الشقاء الدائم الذى لا يفنى

عادت إيلين إلى غرفتها بعد ذهاب « لورين » وكان الليل قد أظلها فجلست تراجع فهرس حياتها الماضية ، وتقلب صفحاتها صفحة صفحة ، فشعرت بدبيب السآمة والملل

فى نفسها ، وخُيل اليها أنها ستعيش بعداليوم عيشة نافهة مملولة لاطعم لها ، ولا لذة فيها ، ورأت كأن سحابة سوداء من شقاء الحياة وبؤسها تدنو منها شيئاً فشيئاً ، وأخذت تسائل نفسها هل أصابت فيما فعلت أم أخطأت ؛ وهل سعدت بالانتقام أم شقيت ؟ وهل كان خيراً لها أن تُلقى بنفسها فى عباب الماء عند ما فكرت فى ذلك يوم خروجها من سجنها ؛ أم تعيش لتضحى بعرضها وشرفها وكرامتها فى سبيل انتقامها ؛ وهل خرجت من المعركة التى خاضتها ظافرة تمام الظفر ؟ أم نالها من الخسران فيها ما يذهب ببهاء ذلك الانتصار الذى انتصرته ؟

ولم تزل تسائل نفسها هـذه الاسئلة فلا تسمع جواباً يرضيها ، حتى مضى الليل إلا أقله ، فحاولت أن تأوىَ إلى مضجعها فلم تستطع ، وأن تسرّى عن نفسها بعض همومها فأعجزها ما أرادت ، فلم تنقض دولة الظلام حتى كانت قد حكمت بنفسها على نفسها أنها مجرمة آثمة ، وأنها لم تستفد من كل ما عملت سوى أنها باعت عرضها بأبخس الأثمان

وأدناها ، وأنها لم تسيء إلى الرجل الذى أرادت الانتقام منه بقدر ما أساءت إلى نفسها ، فقررت الالتحاق بأحد المستشفيات الخيرية لتكفر عن ذنبها بخدمة المرضى ومواساتهم طول حياتها ، حتى يوافيها أجلها

٦

دخلت المستشفى ، وأخلصت إلى الله فى عملها ، فسهرت على المرضى ، وأحسنت مواساتهم ، وبذلت فى ذلك من الجهد ما يعجز غيرها عنه ، حتى أصبحت مضرب المثل فى صلاحها وتقواها ، ورحمتها وإحسانها

وكانت المحكمة قد حكمت على المسيو لورين بالسجن عامين ، فلقى فى سجنه من المتاعب والآلام ما لا طاقة لمثله باحتماله ، فسقط مريضاً لا يحفل به أحد ، ولا يواسيه مواس ، حتى اشتد به المرض ، وأشرف على الهلاك ، فنقلوه إلى المستشفى الذى كانت تعمل فيه « إيلين » فعرفته حين رأته رغم تغير صورته ، واستحالة حالته ، فلم تستطع أن تملك عينيها من البكاء ،

وأخذت نفسها بتمريضه والعناية به وظلت على ذلك عدة أيام وهو ذاهل مستغرق لايشعر بشيء مما حوله ، حتى استفاق في ليلة من الليالي فرآها واقفة بجانب سريره تمد اليه يدها بالدواء ، فظل يحدق النظر في وجهها طويلا حتى عرفها، فتناهض من مكانه ، وأكب على يدها يقبلها ، ويسألها العفو عن ذنبه إليها فازداد نشيجها وبكاؤها ، وقالت له إنني أنا التي أسأت إليك، وأنا التي أطلب منك العفو والصفح ،وكأن حياتها الجديدة التي انتقلت اليها قد أنستها حياتها الأولى وأكاذيبها وأباطيلها ، فلم يبق في قلبها أثر للبغض والموجدة ، وأصبحت سريرتها بيضاء نقية لاتجول فيها غير خواطر الخير والاحسان، ولا تنطوي إلا على حب الانسانية وحب الله

وهكذا ظلت تعالج هذا المسكين باخلاص لاتضمر مثله الام لواحدها ، وتقوم على خدمته ليلها ونهارها ، ما تهدأ ولا تفتر ، ولكن الداء كان قد تمكن منه ، فلم يغن عنه العلاج شيئاً ، وما هي إلا أيام قلائل حتى حضره الموت ، فجلست

بجانبه تعزيه وتواسيه ، وتلقى فى رُوعه أن الله قدغفر له جميع سيآته فى حياته بما كابد فيها من العلل والأسقام ، والهموم والآلام ، وأن جوار الله فى دار جزائه خير له من جوار هذه الحياة الباطلة الفانية ، حتى أسلم روحه بين ذراعيها

وفى صباح اليوم الثانى رآها الناس سائرة بهدوء وسكون فى طريق الدير ، وقد لبست مسوحها وسوادها ، وعلقت صليبها على صدرها ، حتى بلغته ، ففُتح بين يديها بابُه العظيم الذى لا يخرج منه داخله إلى الابد ، فدخلته وكان هذا آخر عهدها بالعالم وما فيه.

الخطبة الصامتة

لما بلغ أميرَ المؤمنين عبد الله بن الزبير نَعْيُ أخيه مصعب ابن الزبير أمير العراق صعد المنبر فجلس عليه ، ثم سكت ، فجعل لونه يحمر مرة ، ويصفر أخرى ، فقال رجل من قريش لآخر بجانبه ماله لا يتكلم ، فوالله إنه للخطيب اللبيب ، فقال له الرجل لعله يريد أن يذكر مقتل سيد العرب فيشتدّ ذلك عليه ، وغير ملوم إن جزع

ووقف ليلة أمس سعد باشا زغلول فى حفلة تأبين أخيه فتحى باشا زغلول ، وأراد أن يقول كلمة قصيرة يشكر فيها القائمين بتلك الحفلة فاختنق صوته بالبكاء وأُرتج عليه ، وهو الرجل الجلْد الصبور الذى ما جزع فى حياته قط ، والخطيب المفوه الذى ما أُرتج عليه مرة فى أصعب المواقف وأحرجها ، وأذهبِها بالعقول والالباب ، فما أشبه هذا البطل الباكى ، بذلك البطل الجازع

وكذلك عظماء الرجال يضنون بدموعهم على نكبات الدهر وأرزائه أنفة وإباء ، حتى إذا نزلت بهم كارثة من الكوارث التى لاأمر فيها إلا لله وحده لايستحيون أن يقفوا بين يديه باذلين من شؤونهم ما كانوا يضنون به من قبل

على أن البكاء الذى حال بين سعد باشا وبين كلمته التى أرادها لم يحل بينه وبين أن يكون أفصح القائلين فى ذلك الموقف وأنطقهم ، فقد خطب الخطباء وأنشد الشعراء من قبله ساعتين كاملتين ، فكان كل ما كان لكلماتهم من الأثر فى النفوس أن كان السامعون يتهامسون فيما بينهم بالاعجاب بفصاحة الفصيح ، أو نباهة المؤرخ ، أو بلاغة الشاعر ، أو إبداع المبدع فى معانيه ، أو إحسان المحسن فى القائه ، حتى وقف هو وأرسل من جفنيه تلك الدمعة الحارة فبكى الناس جميعاً لبكائه كباراً وصغاراً ، شيوخاً وشباناً ، وكان مشهداً مؤثراً لم نر مثله فى حفلة تأبين قبل اليوم ، فكان لتلك الخطبة

القصيرة الصامتة المتفجرة من قلب مصدوع مكلوم من الأثر فى النفوس ما لم يكن لتلك الخطب الناطقة الطوال

ليس الذى يبكى صديقاً كان يأنس بحديثه ، أو عالماً كان ينتفع بعلمه ، أو كريماً كان يستظل بظلال مروءته وكرمه ، كمثل الذى يبكى شظيّة قد طارت من شظايا قلبه

*

اللفظ والمعنى

لم أر فيما رأيت من الآراء فى قديم الادب وحديثه أغرب من رأى أولئك الذين يفرقون فى أحكامهم بين اللفظ والمعنى ، ويصفون كلا منهما بصفة تختلف عن صفة الآخر ، فيقولون ما أجمل أساوب هـذه القصيدة لولا أن معانيها ساقطة مرذولة . أو ما أبدع هـذه القطعة لولا أن أسلوبها قبيح مضطرب ، كأنما يخيل اليهم أن اللفظ وعاء ، وأن المعنى سائل من السوائل يملأ ذلك الوعاء ، فتارة يكون خمراً ، وتارة يكون خلا ، ويكون حيناً صافياً ، وأخرى كدراً ، والوعاء باق على صورته لايتغير ، وما علموا أنهما متحدان ممتزجان امتزاج الشمس بشعاعها ، والخمر بنشوتها ، فكما لايجوز أن نقول ما أجمل الشمس وأقبح شعاعها ، ولا ما أعذب الخمرة وأمرّ نشوتها ، كذلك لايجوز أن

نَصِف اللفظ بالجمال ، والمعنى بالقبح ، أو نعكس ذلك ، فليعلم الناشىء المتأدّب انه ليس للفظ كيان مستقل ، ولا حيز خاص ، فجماله جمال معناه ، وقبحه قبحه ، وأن القطع الأدبية الشعرية أو النثرية التى نصف أسلوبها بالجمال انما نصف بذلك معانيها وأغراضها ، وأن الذين يزعمون من الشعراء أو الكتاب أن أساليبهم الغامضة الركيكة المضطربة تشتمل على معان شريفة عالية كاذبون فى زعمهم أو واهمون

لا يضطرب اللفظ الا لأن معناه مضطرب فى نفس صاحبه ، ولا يَغمض إلا لأن معناه غامض فى نفسه ، ومحال أن يعجز الفاهم عن الافهام ، ولا المتأثر عن التأثير ، ولا المقتنع عن الاقناع ، وما البيان الا المرآة التى ترتسم فيها صورة النفس ، فحيث تكون جميلة فهو جميل ، أو قبيحة فهو قبيح ، أو مضيئة فهو مضيء ، أو مظلمة فهو مظلم ، فاذا استطعنا أن نتصور مرآة تَكذب فى تمثيل الصورة الماثلة أمامها ، استطعنا أن نتصور بيانًا يختلف فى وصفه عن وصف نفس صاحبه

يقول القائلون بمذهب التفريق بين اللفظ والمعنى عن مثل هذه القطعة

ولما قضينا من مِنى كل حاجة
ومَسَّح بالاركان من هو ماسح
وشُدت على حُدب المهارَى رحالنا
ولم يعلم الغادى الذى هو رائح
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا
وسالت بأعناق المطى الأباطح

إنها جميلة الأسلوب ، ولكنها تافهة المعنى لا تشتمل على أكثر من الوصف والتصوير ، كأنهم لا يعلمون أن التصوير نفسه أجمل المعانى وأبدعها ، بل هو رأس المعانى وسيدها ، والغاية الأخيرة منها ، وقد رسم الشاعر فى كلمته هذه صورة واضحة ناطقة للحجيج فى حلهم ومرتحلهم ، يسمعها السامع باذنيه ، وكأنه يراها بعينيه ، فقد أتى بأجمل المعانى فى أجمل الاساليب

وإنّ وصفاً قصيراً لحركة صغيرة من حركات النفس كقول الشريف

وتلفتت عيني فمذ خفيت عنى الطلول تلفت القلب

لخيرٌ ألف مرة من قصيدة طويلة مملوءة بالمعانى الغريبة، والخواطر المبتكرة، لاتمثل الحقيقة، تلتئم مع النفس ومزاجها، كقصيدة المتنبي التى مطلعها «أيطمع فى الخيمة العذل»

ويقولون أيضاً عن هذ البيت

أنّى يكون أبا البرية آدم وأبوك والثقلان أنت محمد

إنه قبيح اللفظ ولكنه جميل المعنى، وهم واهمون فيما يقولون، فان ذلك المعنى الجميل الذى يتوهمونه ليس معنى هذا البيت، بل المعنى الذى خطر على أذهانهم وانبعث فى أفئدتهم عند سماعه، فألصقوه به إلصاقا، وتوهموه له توهما، أما البيت نفسه فلا معنى له مطلقاً، وهذا شأن جميع المعانى التى يتوهمها متوهموها عند سماع بيت مستغلق، أو كلمة

غامضة ، فهى بأن تكون معانى السامعين ، أولى من أن تكون معانى القائلين

إذا سمعت بيتاً من الشعر فأطربك ، أو أحزنك ، أو أقنعك ، أو أرضاك ، أوهاجك وأنت ساكن ، أوهدأروعك وأنت ثائر ، أو ترك أى أثر من الآثار فى نفسك ، كما تترك النغمة الموسيقية أثرها فى نفس سامعها ، فاعلم أنه من بيوت المعانى ، وانهذا الذى تركه فى نفسك من الأثر إنماهو روحه ومعناه ، وان مررت ببيت آخر فاستغلق عليك فهمه ، وثقل عليك ظله ، وشعرت بجمود نفسك أمامه ، وخيل اليك أنك بين يدى جثةهامدة لاروح فيها ، فاعلم أنه لامعنى له ، ولاحياة فيه . فان وجدت صاحبه واقفاً بجانبه يحاول أن يوسوس لك أن وراء هذه الظلمة الحالكة المتكاثفة نوراً متوهجاً يكمن فى طياتها ، فكذِّبه ، وفر بنفسك وأدبك وذوقك منه فراراً لاعودة لك من بعده

هذا هو الميزان الذى يجب أن تزن به الكلام ، ونصيحتى

إليك ألا تصدق تعريفاً واحداً من تلك التعريفات المتعددة المتناقضة التي يضعها واضعوها من الأدباء لاشعارهم خاصة، ويزعمون أنها للشعر عامة، واجعل شعور نفسك هو الميزان الذي تزن به ماتسمع، فكما أنك لاتعتمد على تعريف من تعريفات الجمال، ولاتلجأ الى قانون من قوانينه عند وقوع نظرك على وجه امرأة لمعرفة درجتها من الحسن، كذلك لاتعتمدْ في استحسان ماتستحسن من الكلام، واستهجان ماتستهجن منه، الا على شعور نفسك وإلهام حسك

***

الشعر نغمة موسيقية قبل كل شيء، ثم يأتي بعد ذلك جمال الوصف، وحسن التصوير، وتمثيل الحقيقة، واكتناهُ أسرار الكون، وتحليل مشاعر النفس، وأمثال ذلك من الأغراض والمقاصد، على أن تكون تلك النغمة الموسيقية أساسها، والروحَ السارية فيها، ليتحقق الفرق بين الشعر والفلسفة، فالفلسفة غذاء العقل برزانتها وهدوئها، وحججها

وبراهينها ، والشعر غذاء النفس برناته ونغماته ، وأهازيجه ونبراته

نظم الشعراء الشعر من عهد الجاهلية الأولى الى اليوم فمات جميع مانظموا ، ولم يبق منه الا البيت الموسيقى الرنان الذى لو لم يغنه مغنيه لغنّى وحده ، وسيموت شعر جميع الشعراء فى هذا العصر ولا يبقى منه فى المستقبل الا كما بقى من الماضى فى الحاضر

الآداب العامة

يتحدث كثير من الناس عن فئة من الشبان المصريين المتعلمين قد ظهروا فى هذه الايام واتخذوا لانفسهم فى حياتهم العامة طريقاً غير الطريق اللائقة بهم وبكراماتهم وبمنزلة العلم الذى يزاولونه ، فأصبحوا متبذّلين فى شهواتهم ، مستهتَرين فى ميولهم وأهوائهم ، ينتهكون حرمات الاعراض ماشاءوا وشاءت لهم نزعاتهم ، ويعبثون بها فى كل مكان عبث الفاتك الجرىء الذى لايخاف مغبة ، ولا يخشى عاراً ، وأهولُ مايتحدثون به عنهم فى هـذا الشأن أنهم يُغرون الطالبات الصغيرات اللواتى لايزلن يختلفن إلى مدارسهن ، أو اللواتى انقطعن عنها منذ عهد قريب إلى منازلهن ، وينصبون لهن صنوف الحبائل وأنواع الاشراك لاصطيادهن وإسقاطهن

فى هوة الاثم والعار ، وهذا ماأريد أن أتكلم عنه قليلا

أصحيح مايقولون عنكم أيها الفتيان التعسون أنكم تتخذون صلة العلم التى هى أشرف الصلات وأكرمها صلة فسادٍ بينكم وبين أولئك الفتيات الضعيفات ، وأن الحبالة التى تنصبونها لهن لاصطيادهن إنما هى حبالة القلم الذى هو أفضل أداة للخير ، وأعظم وسيلة للفضيلة ، وخير واسطة للأدب والكمال ؟

أصحيح مايقولون عنكم أنكم تكتبون إليهن ليكتبن اليكم ، وتهدون اليهن صوركم ليهدين اليكم مثلها ، فاذا امتلأت حقائبكم وجيوبكم بصورهن ورسائلهن أخذتم تنشرونها فى كل مكان ، وتعرضونها فى كل معرض ، وأخذ بعضكم يفاخر بعضاً بكثرة مايملك منها أو بجماله ورونقه ، كما يفخر المرء بأفضل المزايا وأشرف الخصال ؟

أصحيح انكم تقفون لهن بكل طريق ، وتأخذون عليهن كل سبيل ، وتضايقونهن فى مغداهن ومراحهن ، وحيث

ذهبن إلى عمل ، أو خرجن لزيارة ، أو برزن فى مجتمع ، فاذا عجزتم عنهن فى الطريق أرسلتم وراءهن الرسل فى منازلهن يخادِعنهن ويخاتِلْنهن ، وربما توسلتم اليهن بأخواتكم وبنات أعمامكم ليَسفرن بينكم وبينهن ويدارِخانْهن مداخلة الاصدقاء حتى يجتذبْنَهن إلى منازلكم ؟

أصحيح أنكم تقضون أكثر لياليكم مكبين على كتابة رسائل الغرام ، وأكثر أيامكم حائمين حول المنازل تنتظرون خدمها الذين اصطنعتموهم ليحملوا رسائلكم إلى ساكنيها ، وربما جلستم على أبوابها بجانب البوابين والحوذيين ترقبون نوافذها وكُواها علها تنفرج لكم عمن تحبون ؟

أصحيح أنكم أصبحتم لا تقنعون فى أمر أولئك الفتيات البائسات اللواتى يقعن فى مخالبكم بافساد أخلاقهن حتى تسجلوا عليهن ذلك الفساد تسجيلا موقَّعاً عليه بتوقيعاتهن ، مستشهداً عليه بصورهن وخطوطهن ، لتملكوا عليهن أمرهن بعد ذلك ، وتحولوا بينهن وبين التفلُّتِ من أيديكم ، والحياة

بعيداً عنكم ، فى جو غير جوكم ، وجوار غير جواركم ، عذارى أو متزوجات ؟

أصحيح أنكم لا تكتفون بإفساد نفوسهن وضمائرهن ، حتى تفسدوا عليهن عقولهن وصحتهن ، فتشركوهن معكم فى شرب الخمر وتناول المخدرات سائلها وجامدها ، فلا تلبث أن تنتهىَ حياتهن بما تنتهى به حياة النساء الساقطات اللواتى يلفظن أنفاسهن الأخيرة فى أقبية الحانات أو بين جدران المواخير ؟

أصحيح أنكم فقدتم فى تلك السبيل التى تسلكونها خلق الرجولة والشهامة ، فأصبحتم تتجمَّلون للنساء بأخلاق النساء ، وتزدلفون اليهن بمثل صفاتهن وشمائلهن ، وأصبح الرجل منكم لا هم له فى حياته الا أن يتجمل فى ملبسه ، ويتكسر فى مشيته ، ويرقق من صوته ، ويلون ابتساماته ونظراته بألوان التضعضع والفتور ، ويقضى الساعات الطوال أمام مرآته

متعهداً شعره بالترجيل ، وبشرته بالتنضير ، وثناياه بالصقل والجلاء ، حتى صار ذلك عادة من عاداتكم التى لا تنفك عنكم ، وحتى سرى التأنث من أجسامكم إلى نفوسكم ، فلم يبق فيكم من صفات الرجولة وأخلاقها غير الاسماء والالقاب

إن كان حقاً ما يقولون كلّه أو بعضُه فرحمة الله عليكم أيها الفتيان المساكين ، وسلام على الفضيلة والشرف سلام من لا يرجو عودة ، ولا ينتظر إيابا

إن هـذه الفتاة تحتقرونها اليوم وتزدرونها ، وتعبثون ماشئتم بنفسها وضميرها، إنما هى فى الغد أم أولادكم ، وعماد منازلكم ، ومستودع أعراضكم ومروآتكم ، فانظروا كيف يكون شأنكم معها غداً ، وكيف يكون مستقبل أولادكم وأنفسكم على يدها

أين تجدون الزوجات الصالحات فى مستقبل حياتكم إن أنتم أفسدتم الفتيات اليوم ! وفى أى جو يعيش أولادكم ويستنشقون نسمات الحياة الطاهرة إن أنتم لوثتم الاجواء

جميعها وملأتموها سموماً وأكداراً ؟

لا تتكون أخلاق الفتاة فى عهد طفولتها أو فى عهد شيخوختها ، بل فى عهد شبابها ، فاذا سلم لها ذلك العهد فقد سلم لها كل عهد بعد ذلك ، فدعوها تجتز هذه المرحلة الوحيدة من مراحل حياتها شريفة طاهرة تجدوا فيها بعد قليل من الزمن خير زوجة لازوج ، وخير أم للولد، وخير سيدة للمنزل

لا تعجلوا عليها وانتظروا بها قليلا لتستطيعوا أن تجدوها غداً زوجة طاهرة شريفة فى منازلكم ، بدلا من أن تجدوها فتاة ساقطة مزدراة مطرحة على أعتاب المواخير والحانات

لا تزعموا بعد اليوم انكم عاجزون عن العثور بزوجات صالحات شريفات يحفظن لكم أعراضكم ، ويحرسن سعادتكم وسعادةَ منازلكم ، فتلك جناية أنفسكم عليكم ، وثمرة ما غرست أيديكم ، ولو أنكم حفظتم لهن ماضيَهن لحفظن لكم حاضركم ومستقبلكم ، ولكنكم أفسدتموهن ، وقتلتم نفوسهن ،

ففقدتموهن عند حاجتكم اليهن

إننى لاأفزع فى أمركم إلى القانون ، فالقانون فى هـذا البلد مدنى لاأدبى ، ولا إلى الحكومة ، فالحكومة مشغولة بشأن نفسها عن شأن غيرها ، ولا إلى الدين ، فقد ضعف شأنه فى نفوسكم حتى هان أمره عليكم ، ولا إلى آبائكم وأولياء أموركم ، فقد عجزوا عنكم ، وأصبحوا يبكون مع الباكين عليكم ، بل أفزع فى أمركم الى ضمائركم التى هى الامل الباقى لنا بعد فقد جميع آمالنا فيكم ، فاصغوا الى صوتها ساعةً تسمعوا منها هذا الرجاء الذى نرفعه اليكم ، وصوتُ الضمير أقوى من كل صوت فى العالم

أصغوا اليه تسمعوه يقول لكم : إن هؤلاء الفتيات اللواتى لاتستحيون أن تمدوا اليهن أعينكم وأيديكم انما هن أخواتكم الحميات يجمعكم واياهن أب واحد وهو النيل ، وأم واحدة وهى البلد ، وشرفُ الاخوّة هو الملجأ الامين لاعراض الاخوات وشرفهن

يجب أن لا يُفتح قلب الفتاة لاحد من الناس قبل أن يفتح لزوجها لتستطيع أن تعيش معه سعيدة هانئة لا ينغصها ذكرى الماضى ، ولا تختلط فى مخبآتها الصور والالوان . ولا أعرف فتاة فى هذا البلد بدأت حياتها بغرام قط فاستطاعت أن تتمتع بعده بحب شريف

ولا أزال أذكر حتى اليوم حادثة ذلك الفتى الذى أهدت اليه حبيبته رسمها موقعاً عليه ، بتوقيعها ، فلما تزوجت وكان لا يحب ذلك منها أراد الانتقام منها فقطع رأس الصورة ووضعها على جسم عار بتلك الطريقة الفنية المعروفة، ثم أرسلها مع كتاب وشاية الى زوجها ليلة عرسها ، فما لبثت أن خسرت فى لحظة واحدة سمعتها وسعادتها

وحدثنى من أثق به ان كثيراً من الفتيات الفاسدات لا يتزوجن الا بعد أن يأخذن على أنفسهن عهداً أمام أخلائهن أن يكن لهم بعد الزواج ، أى بعد أن يصبحن مطلقات من قيود العذرة وروابطها ، وقلما تتزوج فتا

ذات صلات فاسدة من رجل إلا وردت عليهٌ ليلةَ البناء بها أو فى صبيحتها كتب الوشاية بها من الاشخاص الذين اتصلت بهم ، وأخلصت اليهم ، فانتهى أمرها فى حياتها الجديدة بالشقاء والعار

نحن فى حاجة الى ان نعلم بناتنا ، لاننا لانريد ان يعشن جاهلات متأخرات ، فتنحوا عن طريقهن أيها الغواة المفسدون ليستطعن ان يختلفن الى مدارسهن آمنات مطمئنات على نفوسهن وأعراضهن ، ولا تزعجوهن بفضولكم وإسفافكم ، فاننا لم نبعث بهن فى تلك السبيل ليفسدن شرفهن وعفتهن ، بل ليضفن الى فضيلة الأدب والكمال فضيلةَ العلم والمعرفه

أفسحوا الطريق لهن، وأفسحوها للعاملة الخارجة فى طلب رزقها ، والارمل المسترزقة لبنيها ، والفقيرة العاجزة عن قضاء حاجتها إلا بنفسها ، والذاهبة لصلة رحمها ، والسائرة لزيارة قبر فقيدها ، ولا تكونوا حجر عثرة فى سبيل حرية

المرأة فى ذهابها وجيئتها واضطرابها فى مذاهب الارض سعياً وراء رزقها ، وقضاء مصالحها ، فان أبيتم عليها ذلك فاعترفوا أنكم أعداؤها القساة المتوحشون ، لانكم تأبون عليها إلا إحدى الخطتين القاتلتين ، إما الجهل الدائم ، أو السقوط العظيم

الفضيلةَ الفضيلةَ أيها القوم ! فهى العزاء الوحيد لهذه الامة المسكينة عن جميع آلامها ومصائبها ، والامل الباقى لها إن ضاعت لاقدر الله جميع آمالها وأمانيها ، والشرفَ الشرفَ فربما جاء يوم ندير فيه أعيننا من حولنا فلا نجد مما تملك أيدينا شيئاً سواه

المؤتمر الاسلامى

سرنى منظر ذات الرجل [١] العظيم ، والداعى الكريم ، وهو قادم الى مصر ، يجتاز التخوم ، ويتخطى البلدان ، ويطوى الغبراء ، طى الكواكب الخضراء ، يقوده الامل ، ويسوقه الرجاء ، وبين جنبيه همة عالية ، ونفس كبيرة ، وقلب مشيّع ، وفؤاد فى الافئدة ، كالنسر فى الطيور ، يحلق فى جو الاسلام تحليق من يحاول أن يظلله بجناحيه

سرنى منظره ، وإن لم أره ، وهو قائم بين جماعة المسلمين يحاول أن يرأب صدعهم ، ويلم شعثهم ، ويجمع كلمتهم ، ويؤلف بين قلوبهم ، ويدعو الى الله تعالى دعوة النبوة الأولى ، إلا أن تلك عربية تدعو الاعجمية ، وهذه أعجمية يدعو العربية الفصحى

---

(١) كتبت لمناسبة حضور المصلح الاسلامى الشهير اسماعيل بك غصبرنسكى الروسى الى مصر فى سنة ١٩٠٨ للدعوى الى مؤتمر إسلامى عام

هنا ذكرت الاسلام ومجده ، والاسلام وجنده ، والاسلام ودولته ، والاسلام وصولته ، وذكرت أبا بكر وهو يقاتل أهل الردة ويقول . والله لو منعونى عقال بعير لقاتلتهم عليه ، وذكرت عمر وهو واقف فى مرابض المدينة فى حمارّة القيظ يستقبل شبحاً أسود يرفعه الآل ويخفضه ، ويطويه الأديم وينشره ، حتى اقترب منه فتبينه فاذا هو أعرابى قادم من سواد العراق فجعل يسايره وهو راجل والأعرابى راكب لا يعرفه ويسأله ما فعل الله بسعد وجنده ، فيحدثه القادم عن فتح القادسية والمدائن ، وما أفاء الله به على المسلمين من عرش كسرى وذخائره ، وتراث مرازبته ودهاقينه ، وعمر لاه عن نفسه سروراً بما سمع ، وفرحا بما تم ، وذكرت صلاح الدين وهو يقود الجحفل اللجب ، والجيش العرمرم ، إلى حيث يستنقذ الثغور ، ويستخلص الأمصار ، ويخوض جمرة الحرب المتأججة ليفتدى بنفسه

أجساما ان لم تلتهمها النيران فكأنْ قد ، وذكرت محمداً الفاتح وهو يلعب بكرة الأرض لعب الصبى بكرته ، ويخترق بسفائن البحر ، رمال القفر ، حتى نزل بالقسطنطينية نزول القضاء ، من السماء ، وسجد فى معبد آياصوفيا سجدة الشكر لله على نعمته وحسن توفيقه ، وذكرت صقر قريش وقد طار من الشرق إلى الغرب ، فأنشأ وحده دولة خضعت لها أفريقيا وبعض أوربا ، وذكرت مع أبطال الحرب أبطالَ السلم ، فذكرتُ عمر بن عبد العزيز وعدله ، والمأمون وفضله ، والغزالىّ وحكمته ، وابن رشد وفلسفته ، ومعاوية وسياسته ، وعبد الملك وكياسته ، وذكرت مدارس بغداد وبخارى والاسكندرية والقاهرة وغرناطة واشبيلية وقرطبة ، وذكرت مترجمى كتب إقليدس وبطليموس وإرسطو ، وواضعى علوم الجبر والمقابلة والكيمياء ، وذكرت مخترعى البندول والبوصله « بيت الأبرة » والساعة الدقاقة التى أهداها الرشيد الى شارلكان

ملك فرنسا ففزع منها سامعوها فزعا شديداً ، وسموها شيطانا رجيما ، أو آلة سحرية ، أو مكيدة عربية ، إلى كثير من أمثال هذه الآثار العربية ، والمفاخر الاسلامية

ثم ذكرت الاسلام إذ ضربه الدهر بضرباته ، ورماه بنكباته ، فأصبح أثراً من الآثار ، وخبراً من الأخبار ، وعليلا حار فيه أطباؤه ، ومله عواده ، وظل مترجحا بين داهيتين ومضطراً بين غايتين ، إما أن يموت موتة أبدية وبالله العياذ ، أو يحيا حياة مادية ، لا حياة أدبية ، وينهض جامعة تجارية ، لا جامعة دينية ، مادامت المادة قاعدة الحكومات ، ومادامت الحكومات عدوة الأديان ، ومادامت الأديان لا تستطيع التحليق إلا فى فضاء من الحرية لا ينتهى البصر فيه الى مدى. لذلك أحزننى عند سماع خطبة الخطيب ما يحزن الأشيب من ذكرى الشباب إذا عثر بين أوراقه البالية على رسائل الحب ، وأناشيد الغرام ، وأمضى ما يمض العاشقَ المفارق ، إذا مر بالآثار ، واطلال الديار ، فرأى النؤىَ والأحجار ،

وموقد النار ، ومجال الخيول ، ومجر الذيول ، فذكر ما كان ناسياً ، وهاج من وجده ما كان كامناً ، فبكى واستعبر

وودّ بجدع الأنف لو عاد عهدها
وعاد له فيها مصيف ومربع

ليست الجاهلية الأولى بأحوج الى الأصلاح الدينى من الجاهلية الأخرى ، بل ربما كانت هذه أحوج من تلك اليه

كانت الجاهلية الأولى تعبد الأوثان لتقربها الى الله زلفى ، وجاهليتنا تعبد الأحجار والأشجار ، والأحياء والأموات،والأبواب ، والكُوَى،والقواعد والأساطين ، تبركا ، أو تقربا ، لفظان مترادفان ، مختلفان لفظا ، متفقان معنى ، ومن ظن غير ذلك فقد خدع نفسه

كانت الجاهلية الأولى متفرقة قبائل وشعوبا ، وجاهليتنا متفرقه منازل وبيوتا ، بل آحاداً وأفراداً ، فلا تراحم ولا تواصل ، ولا تعارف ولا تعاطف ، حتى بين الأخ وأخيه ، والأب وبنيه

كانت جاهليتهم تسفك الدماء فى طلاب الأوتار ، وجاهليتنا تسفكها فى سبيل السرقات ، وقضاء الشهوات ، وكان أفظعَ ما فى جرائمهم وأدُ البنات ، فصار أخف ما فى جرائمنا الانتحار ، وكان بعضهم يبغى على بعض بسرقة ماله ، أو استياق ماشيته ، ففعلنا مثل ما فعلوا ، وفوق مافعلوا ، ثمّ فضَلْنَاهم بعد ذلك بتزوير الأوراق ، وتحريف الصكوك ، وتقليد الأختام ، والبراعة فى النصب والاحتيال، يكاد يستوى فى ذلك العالم والجاهل ، والشريف الهاشمى ، والفلاح القروى

وليتنا إذ أخذنا جاهليتهم أخذناها كما هى رذائل وفضائلَ فيهون على المصلحين أمرها ، ولكننا أسأنا الاختيار ، فلنا خرافاتهم الدينية ، وأدواؤهم الاجتماعية ، وليس لنا كرمهم ووفاؤهم ، وغيرتهم وحميتهم ، وعزتهم ومَنَعتهم ، فكيف لا يكون الأمر خطيراً ، وكيف لا تكون الجاهلية الأخرى ، أحوج إلى دعوة كدعوة النبوة من الجاهلية الأولى

نبئنى عن الاسلام أين مستقره ومكانه ، وأين مسلكه

ومضطربه ، وفى أى موطن من المواطن حل ، ومعهد من المعاهد نزل

أفى الحانات والمواخير التى يغص بها الفضاء ، وتئن منها الأرض والسماء ، والتى ينتهك فيها المسلمون حرمات دينهم بلا خجل ولا حياء ، كأنما هم يشربون الماء الزلال ، ويغشون البضع الحلال ، ولقد هان عليهم أمر أنفسهم حتى لو وجدوا بينهم من يرى النقيّة فى عمله ، أو الاحتشام فى أمره ، سموه جبانا جامداً ، أو متكلفاً بارداً ، كل ذلك على مرأى ومسمع من الحكومة الاسلامية ، والمعاهد الدينية ، والقضاءين الشرعىّ والنظام

أم فى حوانيت الباعة حيث الغش الفاضح ، والغبن الفاحش ، مزخرفا بالأقوال الكاذبة ، والايمان الباطلة

أم فى مجالس الأحكام حيث للدينار الأحمر السلطان الأكبر على سلطان العدل وسلطان الذمة وسلطان الشرائع ، اللهم الا ما كان من تلك الألواح المكتوب فيها (العدل

أساس الملك أو (واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل)

أم فى المساجد حيث يعتقد المصلون أنه لو كان بين الصلاة والصلاة مائة عام ، وكانت تلك الأعوام مملوءة بالآثام والجرائم ، والمفاسد والمظالم ، لكفت تلك الحركات التى يسمونها صلوات ، ويحسبونها حسنات ، لغفران تلك السيآت

أم فى معاهد الدين حيث يتلقى المتعلمون الدين جسما بلا روح ، وعلما بلا عمل ، كأنما يتلهون بدراسة إحدى الشرائع الدائرة ، أو أحد الأديان الغابرة ، وحيث يتلقون كشكولا عجيباً وخلقاً غريباً من الأكاذيب والترهات ، فلا تكاد تسمع من أفواههم الا حديثاً موضوعا ، أو قولا مصنوعا ، أو خرافة تاريخية ، أو بدعة دينية ، وحيث يقضون حياتهم فى المناظرات والمجادلات ، والتحاسد والتباغض ، والتقاطع والتدابر ، وهى بعينها الأخلاق والرذائل التى ما جاءت الأديان الا لمحاربتها ، والقضاء عليها ،

فهم يَهـدمون من حيث يظنون أنهم يبنون ، ويسيئون ويحسبون أنهم يحسنون صنعاً

أم فى مجالس المتصوفة حيث الألعاب الجمبازية ، والحركات البهلوانيـة ، والسرقات باسم العادات ، وانتهاك الحرمات بعنوان البركات

إن أراد المصلحون لأنفسهم نجاحا ، وللاسلام صلاحا ، فليبدأوا أعمالهم بتهذيب العقائد الدينية ، وتربية النشء الحديث تربية اسلامية ، لا تربية مادية ، أى انهم يدخلون الى الاصلاح من باب الدين ، لا من باب الفاسفة ، حتى يجمعوا للمسلمين بين صلاح حالهم ومآلهم ، ودنياهم وآخرتهم ، وحتى يكون الدين هو الزاجر والمؤدب ، والمعلم والمهذب ، والاسلامُ وان كان دين العقل والفطرة ، والتهذيب والاصلاح ، ألا ان الخطر كل الخطر على المسلمين أن يكون فى نظرهم تابعاً للعقل ، وان يكون العقل هو الحكم بينهم وبينه ، والخيرُ كل الخير فى أن يكون الدين حاكما ، والعقل مفسراً ومبيّناً

فاذا تم ذلك للمصلحين بالرفق والأناة ، والحكمة والسياسة ، فقد تم لهم كل شىء ، وتم للمسلمين ما يريدونه من الجامعتين الدينية والسياسية ، كما تم لهم ذلك فى العهد الأول من هذا الباب نفسه ، وفى هذا الجادة المستقيمة ، فهل يستطيع دعاة الاصلاح فى الجاهلية الحاضرة أن يكونوا كدعاته فى الجاهلية الأولى ، وهل يستطيعون أن يخلصوا لله فى عملهم جادين مثابرين ، لا تأخذهم فيه هوادة ، ولا تأخذه سِنة ، وأن لا يرى أحدهم لنفسه على أخيه فضلا إلا بالإيمان والتقوى ، وأن يرى كل منهم نفسه بمنزلة المجاهد فى سبيل الله ، يتحمل الأذى ويستسهل الوعر ، ويحتمل الكريهة ، ولا يجعل لليأس الى قلبه سبيلا ، ولا للهوان على نفسه سلطانا

هل يستطيع المصلحون أن يكونوا كذلك ليصلحوا فى الآخرين ، ما أصلح المصلحون فى الاولين

« لست أدرى ولا المنجم يدرى »

لعمرك ما تدرى الطوارق بالحصى

ولا زاجرات الطير ما الله فاعل

في أكواخ الفقراء

« مترجمة »

مضى الليل إلا قليلا والظلام مخيم على الكون بأجمعه ، والكواكب متلفعة بأردية السحب ما يستشف منها الناظر بصيصاً ولا قبساً ، والفضاء بحر خِضَم مترامى الارجاء إلا أنه ساكن الصفحة ، هادئ النأمة ، يقصر فيه قاب العين ، وتضل فى تيهه أشعة النظر حتى عن نفسها ، والغيوث منهلة متواصلة ، تهمى بقوة واحدة ، وقوام واحد ، لا تَغزُر ولا ترق ، ولا تضطرب خيوطها ، ولا تختلف نغمتها ، كأنما هى شباك ممتدة بين السماء والأرض ، وكوخُ السماك « فيليب » جاثم فى مجثمه بين الأكواخ المحيطة به ، لا يرى فيه الداخل غير مصباح ضئيل تجاهد ذُبالته جهاداً شديداً فى تمزيق قطع الظلام المتكاثفة حولها ، وغير جمرةٍ هامدة قد خبت نارها إلا

بقايا جمرات شاحبات قد التفّت بأكفانها البيضاء ، وأخذت طريقها في مدرجة الفناء ، وقد يرى الناظر على ضوء ذلك المصباح الضئيل بضع شبكات معلقة بالجدران كأنهن الأشباح الماثلة ، ومنضدةً عارية قد نُشرت فوقها بضعة آنية نحاسية تلمع لمعاناً ضعيفاً في ذلك الخندس كأنها عيون الجنادب ، فاذا دار الواقف بنظره حوله رأى حشية مبسوطة على الأرض قد اضطجع فوقها ثلاثة أطفال متلاصقين آخذٍ بعضهم بأعناق بعض ، كما تتآخذ الافراخ في أعشاشها ، وكما يَضم الخوف الضلوع بعضها الى بعض ، وعلى مقربة من فراشهم امرأة صفراء شاحبة جاثية على ركبتيها تصلى وتبتهل ، وتدعو الله تعالى بصوت خافت متهافت أن يرد لها زوجها سالماً ، وكان قد خرج كعادته لصيد السمك من البحر فلم يعد حتى الساعة

وإنها لكذلك إذ هبت الزوبعة هبوباً عظيما ، فاهتزت لها جوانب الكوخ اهتزازاً شديداً ، وأنَّ لوقعها الأطفال

في لفائفهم ، فطار قلبها فزعا ورعباً ، وخيل إليها أن هدير الأمواج ، ودمدمة الرعود ، وزفيف الرياح ، وقعقعة السقوف والجدران ، إنما هي نُذُر السوء تنذرها بمصير زوجها المسكين في أعماق ذاك الأوقيانوس العظيم ، فظلت تُردد بينها وبين نفسها رب إني بائسة مسكينة لاسند لي ولا عضد ، وإن هؤلاء الأطفال الصغار عاجزون لايستطيعون أن يقوتوا أنفسهم ، ولا أن يعتمدوا على حولهم وحيلتهم في شؤون حياتهم ، فاحفظ لي ولهم حياة ذاك الرجل المسكين الذي أسلْم أمرَه اليك ، وأودع حياته بين يديك ، وخرج في طلب الرزق من ساحتك ليعود به على هذه الأسرة الفقيرة المعدمة، فلم يعد حتى الساعة ، ولا ندري ما فعلت به يد الاقدار

ما أعظم بؤسنا وشقاءنا نساءَ الصيادين وأولادَهم !

إنهم يتركوننا وحدنا في هــذه الأكواخ الموحشة ، ويذهبون لطلب العيش في ذلك التيه المائِيّ العظيم الذي لانهاية لعمقه ، ولا حد لاتساعه ، ولا عاصم من مخاطره ، ويحاولون.

انتزاع أررافهم من بين ماضغى تلك الامواج الثائرة الفاغرة أفواهها كالذئاب الجائعة ، تحاول التهام كل ما يدنو منها . ولعل القدر الذى نخشاه عليهم فى هذه الساعة قد نزل بهم ، فلم تغن عنهم شيئاً تلك الرقائق الخشبية المتلاصقة التى يسمونها زوارق . ولعلهم لبثوا ساعات طوالا يصارعون الامواج وتصارعهم حتى غلبتهم على أمرهم ، فداروا بأعينهم حولهم ليفتشوا عن زوارقهم المنقلبة فلم يروا منها الا بقاياها المتطايرة فى مهاب الرياح ، فحاولوا أن يسبحوا اليها فأفلتت من أيديهم ، فنال منهم العياء ، فهووا إلى ذلك القاع العميق ليصبحوا فيه طعاما للاسماك التى كانوا يظنون منذ ساعة أنها ستصبح طعاما لهم

هنالك يأتينا نَعْيهم فنبكى ونندب ، ونهرع إلى الشاطىء والهين مُدَلّهين ، ونقف أمام ذلك العالم المجهول الغامض صائحين أن رُدّ إلينا أيها الوحش المفترس بعولتنا وأولادنا ، وأفلاذ أكبادنا ، أو تَكشّفْ عن نفسك،قليلا

عانا نرى جثثهم فى قاعك العميق ، فلا نسمع ملبياً ولا مجيباً

وهنا هدأت الزوبعة قليلا ، وخفتت أصوات الرياح ، فسكن بعض ما بها ، ونهضت من مكانها فتناولت المصباح وفتحت باب الكوخ وقلبت وجهها فى السماء لترى كم بقى بينها وبين الصباح ، وكان الظلام لم يزل حالكا ، والمطر لم يزل منهلاً ، فمدت يدها بالمصباح أمامها لترى هل من مقبل يتقدم ، أو شبح يتحرك ، فلم يقع نوره إلا على كوخ بعيد منفرد لا نور فيه ولا حركة ، فتذكرت حينما وقع نظرها عليه أنه كوخ تلك الارملة المسكينة « جانت » التى مات زوجها غريقاً منذ بضعة شهور وخلف لها أطفالا صغاراً تقاسى الآلام الشداد والاهوال العظام فى تدبير عيشهم ، وتقويم أودهم ، فمر بخاطرها ان تزورها وتتعرف حالها ، لانها كانت تعلم انها مريضة مدنفة ، وانها كابدت ليلة أمس من دائها عناء عظيما ، وأقرب ما تكون النفوس إلى النفوس إذا جمعتها فى صعيد واحد همومُ الحياة وآلامها ، فأخذت طريقها

إلى ذلك الكوخ حتى بلغته ، فوقفت على بابه وقرعته مراراً فلم يرد عليها أحد ، فدفعته ففتح ، فدخلت رافعة مصباحها أمامها فأنار لها ما حولها فرأت بين يديها ما أرعد فرائصها ، واستوقف دقات قلبها ، وأمسك الدم عن جريانه في عروقها

رأت الكوخ يهتز ويضطرب في أيدى الرياح المتناوحة ورأت مياه الامطار تسيل من سقفه الواهى الاخرق فتبلل كل شيء فيه ، ورأت فراشاً قذراً من القش قد رقدت فوقه الأرملة « جانت » رقدة ساكنة جامدة لاحس فيها ولا حركة ، فدنت منها ولمستها بيدها فاذا هى ميتة ، وإذا قطرات من الماء تتحدر من السقف على جبينها ورأسها وغطائها البالى الممزق ، فوقفت امام هذا المنظر المخيف المرعب ذاهلة مشدوهة ثم صاحت :

هذه نهاية الفقراء على ظهر الارض ، وهذا مصيرهم الذى يصيرون إليه بعد جهادهم فى سبيل الحياة زمناً طويلا

إنهم يعيشون في هذا العالم مجهولين مغمورين لا يعرفهم أحد ، ثم يخرجون منه متسللين متلاوذين ، لا يشعر بخروجهم حتى أهلوهم وذوو أرحامهم

ما يدريني ألا يكون مصيري ومصير أولادي غداً هـذا المصير الذي أراه الآن ، وقد لا تدخل عليّ في تلك الساعة جارة من جاراتي تراني وترثي لحالي كما أرثي الآن لحال هؤلاء المساكين

ثم خلعت رداءها فأسبلته على جثة الميتة ، ودارت بمصباحها في أنحاء الغرفة فرأت طفليها الصغيرين نائمين على فراشهما وجهاً لوجه ، وعلى ثغر كل منهما ابتسامة صغيرة ، كأن شبح الموت الهائم حول مضجعهما لا يخيفهما ، ولا يزعج سكونهما ، ورأت رداء أمهما وكانت تعرفه قبل اليوم مسبلا عليهما فخيل إليها أنها ترى منظر تلك المرأة المسكينة قبل ساعة أو ساعتين وهي تعالج في فراشها سكرات الموت ، ثم تلتفت من حين إلى حين إلى طفليها النائمين ، والمطر يتساقط عليهما

والبرد يعبث بأعضائهما ، فتشفق عليهما ، وترثى لهما ، حتى ضاقت بها ساحة الصبر ، فخلعت عنها رداءها وهى أحوج ما تكون إليه ، وألقته عليهما ، ثم ألقت بنفسها على فراشها وأسلمت روحها

وقفت مارى أمام هذه المناظر المؤلمة ، والريحُ تئن أنين الوالهين المتسابين ، والموج يعج عجيج أجراس الموت، وقطراتُ الماء تنحدر من جبين الميتة إلى خديها الشاحبين كأنما هى تذرف دموع الحزن على فراق ولديها ، وكان الفجرُ قد أخذ يمسح عن وجهه صبغة الظلام ، ويرسل بعض أشعته فى جوانب الكوخ ، فأطفأتْ مارى المصباحَ الذى بيدها ووضعته جانباً، ثم جثت بجانب الميتة وصلّت لها ما شاء الله أن تفعل، ثم نهضت ومشت إلى مكان الطفلين وحملتهما برفق وسكون ومشت بهما حتى بلغت كوخها ، فاضجعتهما بجانب طفليها ، وأسبلت عليهم جميعاً رداء واحداً

ثم جلست بجانبهم تقول بينها وبين نفسها : لاأدرى أأصبت فيما فعلت أم أخطأت ، وإنما أدرى أن المرأة التى أودع اللهقلبَها شعورَ الأمومة وإحساسها لاتستطيع أن ترى طفلين طريحين على فراشهما فى كوخ عارٍ من كل شىء إلا من جثة أمهما فتتركهما وشأنهما دون أن تعلم ما مصيرهما بعد ذلك

إن المنظر الذى رأيته ما كان يسمح لى بالتفكير فى نتيجة العمل الذى أعمله ، فان تبين لى بعد ذلك أننى مخطئة فليس معنى هذا أنى كنت أستطيع تجنب الوقوع فى هذا الخطأ ، لأن قلبي من لحم ودم ، لا من فولاذ وصوان

نعم إن زوجى فقير ، وإن طفلىّ معدمان بائسان لا يكادان يشبعان من الخبز ، وإن عناءنا فى تربية أربعة أطفال سيكون ضعف عنائنا فى تربية طفلين ، ولكن لا يجوز لنا ضناً براحة أنفسنا أن نترك طفلين صغيرين يموتان على مرأى منا ومسمع برداً وجوعاً

ذلك ما سأقوله لزوجي عند رجوعه ، وما أحسبه قاسياً ولا متوحشاً فينكر عليّ فعلتي هذه ، ويأمرني بالقائهما خارج الباب

ثم وقفت عن الكلام فجأة لأنها سمعت صرير الباب وهو يدور على عقبه فارتعدت ، ثم علمت أنها الريح ، فأطرقت برأسها ساعةً ذهبت فيها بتصوراتها وأفكارها كل مذهب ، فبكت وضحكت ، وغضبت ورضيت ، وأمّلت ويئست ، ورحمت وقست ، وحمدت فعلتها ، وندمت عليها ، وأحسنت الظن بزوجها ، وأساءته به ، وظل فؤادها نهباً مقسماً في يد الهموم والأفكار ، حتى شعرت بسواد يتقدم نحوها ، فاستطير قلبها خوفاً ورعباً وانتبهت فاذا زوجها داخل يحمل شبكته على ظهره والماء يقطر منها ، فنهضت إليه وعانقته ، ثم ألقت نظرها على وجهه فأنكرت شحوبه وتضعضعه كما أنكر ذلك منها حين رآها ، وسألته كيف كان حظه الليلة ، وماذا كان شأنه مع العاصفة ، فألقى بشباكه وقصبه

على الأرض وظل يقول لها : أما الليلةُ فكانت مزعجة جداً لم أر في حياتي مثلها ، وأما الصيدُ فهاهي يدي صفر منه كما ترين، ولولا رحمة الله بي وبكم لهلكت ، وما أنا بآسف على شيء ما دمت أراكم بخير ، وكيف حال الولدين ؟ فارتعشت وقالت هما بخير ، قال مالى أراك شاحبة صفراء ، وكيف قضيت ليلتك ؟ فأطرقت برأسها وقالت : قضيتها في خياطة قميصين الولدين ، وكنت كلما سمعت صوت العاصفة وهدير الأمواج خفت عليك ، أما الآن فقد زال كل شيء والحمد لله ، ثم نظرت إليه وبين شفتيها كلمة تحاول أن تنطق بها فلا تستطيع ، ثم استنصرت جلدَها وقوتها وقالت . وشيء آخر أحزنني جداً ، قال وما هو ؟ قالت قد علمتُ الساعة قبل رجوعك بقليل أن جارتنا « جانت » قد لبت دعوة ربها ، وأن ولديها الصغيرين قد أصبحا وحيدين في هذا العالم لا عائل لهما

فاضطرب عند سماع هذه الكلمة ، ونهض من مكانه وتمشى قليلا ، ثم ألقى بقبعته المبللة بالماء على سريره ، وظل

يعبث بشعر رأسه ، فيشده حيناً ، ويمسحه أخرى، وهي تتبعه بنظراتها لتفحص صورة نفسه المرتسمة على وجهه ، ثم جلس على المائدة القائمة في وسط الكوخ ، وظل يقول بينه وبين نفسه بصوت ضعيف متهدّج

رب إني وان كنت رجلا جاهلا فَدْما لا أستطيع أن أفهم حكمتك في حرمان هذين الولدين البائسين من أمهما إلا أنني معترف بوجود تلك الحكمة لاأنكرها ، ولا بدأنّ الذين يعلمون أكثر مما أعلم ، يفهمون من شؤونك وتصرفاتك فوق ما أفهم

نعم إنني فقير مسكين أعيش تحت رحمة المصادفات والاتفاقات ، وربما مر عليّ وعلى أولادي أيام لانجد فيها ما نأتدم به ، ولكن ماذا أصنع وقلبي يتألم لحال هذين اليتيمين الصغيرين أكثر مما يتألم من الجوع والسغب

ثم التفت إلى زوجته وقال لها : إنني متألم جداً ياماري ، ويخيل إليّ أن روح تلك المرأة المسكينة واقفة

الآن أمام هذا الباب تقرعه وتضرع إلينا أن نأخذ ولديها إلينا ، ونكفلهما من بعدها ، ولكن كيف العمل يا إلهي ؟ فقالت إني أكاد أسمع هذا الصوت الذي تسمعه يافيليب ، وإني ألمي عظيم كألمك ، فصمت هنيهة ثم انتفض انتفاضة شديدة ودنا منها وقال لها : ألم يمت لنا طفلان في العامين الماضيين ياماري ؟ قالت بلى ، قال ماذا كنا نصنع لو أنهما بقيا حيين حتى اليوم ؟ قالت لاشيء سوى أننا نفزع إلى الله في أمرهما ، قال فانفزع إلى الله في أمر هذين الطفلين اليتيمين ، وكأنّ ولدينا لا يزالان حيين حتى اليوم ، أو كأنهما بعثا من قبرهما بعد موتهما

اذهبي اليهما ياماري وأحضريهما ، فربما استيقظا بعد هنيهة من نومهما فرأيا منظر أمهما الميتة في فراشها فماتا خوفاً ورعباً

اذهبي إليهما واحمليهما برفق وهدوء دون أن توقظيهما وأضجعيهما على فراش ولدينا فسيكون منظرهم جميعاً جميلا

جداً حينما يستيقظون من نومهم وينظر بعضهم فى وجوه بعض ، وحرام علىّ النبيذ واللحم بعد اليوم لأستطيع أن أقوم بنفقة هذه الأسرة الكبيرة التى أصبحتُ سيدها وعائلها ، إذهبي ياماري وثقى أن الله سيملأُ علينا بيتنا خبزاً ولحماً ببركة هؤلاء الأطفال الطاهرين

فتهلل وجهها بشراً وسروراً ونهضت من مكانها ومشت إلى مضجع الأطفال فرفعت عنهم الغطاء ، ونظرت إلى زوجها صامتة لاتقول شيئاً ، فما وقع نظر « فيليب » على هذا المنظر الغريب حتّى استطير فرحاً وسروراً ، وهرع الى زوجته واحتضنها الى صدره وقال لها ما أشرف قلبك ياماري !

ياسكان القصور : ليتكم من سكان الأكواخ لتستطيعوا أن تكونوا من الراحمين المحسنين

الضمير

أتدرى ما هو الخُلق عندى ؟

هو شعور المرء أنه مسئول أمام ضميره عما يجب أن يفعل

لذلك لا أسمى الكريم كريما حتى تستوى عنده صدقة السر وصدقة العلانية ، ولا العفيف عفيفا حتى يعف فى حالة الأمن كما يعف فى حالة الخوف ، ولا الصادق صادقا حتى يصدق فى أفعاله صدقَه فى أقواله ، ولا الرحيم رحيما حتى يبكى قلبُه قبل أن تبكى عيناه ، ولا المتواضع متواضعا حتى يكون رأيه فى نفسه أقل من رأى الناس فيه

التخلق غير الخلق ، وأكثر الذين نسميهم فاضلين متخلقون بخلق الفضيلة ، لافاضلون ، لأنهم انما يلبسون هذا الثوب مصانعة للناس ، أو خوفا منهم ، أو طمعا فيهم ، فان

ارتقوا عن ذلك قليلا لبسوه طمعا فى الجنة التى أعدها الله للمحسنين ، أو خوفا من النار التى أعدها الله للمسيئين

أما الذى يفعل الحسنة لأنها حسنة ، أو يتقى السيئة لأنها سيئة ، فذلك من لانعرف له وجوداً ، أولا نعرف له مكانا

لاينفع المرء أن يكون زاجرَه عن الشر خوفه من عذاب النار ، لانه لايعدم أن يجد بين الزعماء الدينيين من يُلبس له الشر لباس الخير فيمشى فى طريق الرذيلة ، وهو يحسب أنه يمشى فى طريق الفضيلة ، أو خوفُه من القانون ، لان القوانين شرائع سياسية وضعت لحماية الحكومات ، لا لحماية الآداب ، أوخوفُه من الناس ، لان الناس لاينفرون من الرذائل ، بل ينفرون مما يضرّ بهم ، رذائل كانأم فضائل ، وإنما ينفعه أن يكون ضميره هو قائده الذى يهتدى به ، ومناره الذى يستنير بنوره فى طريق حياته

ومازالت الأخلاق بخير حتى خذلها الضمير وتخلى

عنها ، وتولت قيادتهـا العادات والمصطلحات ، والقواعد والأنظمة ، ففسد أمرها ، واضطرب حبلها ، واستحالت الى صور ورسوم ، وأكاذيب وألاعيب ، فرأينا الحاكم الذى يقف بين يدى الله ليؤدى صلاته وأسواطُ جلاّديه تمزق على مرأى منه ومسمع جسم رجل مسكين لاذنب له عنده إلا انه يملك صُبابة من المال يريد أن يسلبه إياها ، والامير الذى يتقرب الى الله ببناء مسجد قد هـدم فى سبيله ألفَ بيت من بيوت المسلمين ، والفقيهَ الذى يتورع عن تدخين غليونه فى مجلس القرآن ، ولا يتورع عن مخالفة القرآن نفسه من فاتحته الى خاتمتـه ، والغنىَّ الذى يسمع أنين جاره فى جوف الليل من الجوع فلا يرق له ولا يحفل به ، فاذا أصبح الصباح ذهب إلى ضريحٍ من أضرحة الأولياء ، ووضع فى صندوق النذور بَدرةً من الذهب قد ينتفع بها من لاحاجة به اليها ، والمومس التى تتصدق بنفسها ليلة فى كل عام على روح بعض الاولياء عندها أنها قد كفّرت بذلك عن سيآتها طول العام

الى كثير من أمثال هذه النقائض التى يزتم أصحابها ويزعم لهم كثير من الناس أنهم من ذوى الاخلاق الفاضلة ، والسيرة المستقيمة

الخُلق هو الدمعة التى تترقرق فى عين الرحيم كلما وقع نظره على منظر من مناظر البؤس ، أو مشهد من مشاهد الشقاء

هو القلق الذى يساور قلب الكريم ويحول بين جفنيه والاغتماض كلما ذكر أنه ردّ سائلا محتاجا ، أو أساء الى ضعيف مسكين

هو الحمرة التى تلبس وجه الحييّ خجلا من الطارق المنتاب الذى لا يستطيع رده ، ولا يستطيع مد يد المعونة اليه

هو اللجاجة التى تعترى لسان الشريف حينما تحدثه نفسه بأكذوبة ربما دفعتهُ اليها ضرورة من ضرورات الحياة

هو الشرر الذى ينبعث من عينى الغيور حينما تمتد يد من الايدى الى العبث بعرضه أو بكرامته

هو الصرخة التى يصرخها الأبيّ فى وجه من يحاول

مساومته على خيانة وطنه ، أو ممالأة عدوه

الخلق هو أداء الواجب لذاته ، بقطع النظر عما يترتب عليه من النتائج ، فمن أراد أن يُعلم الناس مكارمَ الأخلاق فليُحْيِ ضمائرهم ، وليبث في نفوسهم الشعور بحب الفضيلة ، والنفور من الرذيلة ، بأية وسيلة شاء ، ومن أي طريق أراد ، فليست الفضيلة طائفة من المحفوظات تُحشَى بها الاذهان ، بل ملكات تَصدر عنها آثارها صدور الشعاع عن الكوكب ، والأريج عن الزهر

*

مدرسة الغرام

كنت لا أسأل الله تعالى إلا تقدم هذه الأمة وارتقاءها، وبلوغها في المدنية مبلغاً يؤهلها لمجاراة الأمم الغربية في عظمتها وسلطانها، فأصبحتُ أسأله ألا يستجيب دعائي وألا ينيلها من تلك المدنية فوق ما أنالها

أصبحت أعتقد أن مفاسد الأخلاق والمدنيةَ الغربية شيئان متلازمان، وتوأمان متلاصقان، لا افتراق لأحدهما عن صاحبه إلا إذا افترقت نشوة الخمر عن مرارتها، فكيف أتمناها لأمة هي أعز على من نفسي التي بين جنبيّ

قرأت حوادث الانتحار في الغرب، فقلت قوم ضعفت قلوبهم عن احتمال حوادث الدهر وأرزائه فلم يستطيعوا الوقوف في طريقها وقفة الشجاع المستقتل ففروا من وجهها إلى حيث يجدون الراحة الدائمة في أعماق القبور، وما أكثر

الجبناء فى مواقف الحرب وميادين الجهاد

قرأت حوادث المبارزة فقلت قوم قد عجزت يد المدنية الحاضرة أن تستل من بين جنوبهم ما كانوا يعتقدون فى عهد الهمجية الأُولى من أن العِرض إناء إذا ألم به القذى لا يغسله إلا الدم المسفوح، وكثيراً ما أوردت العقائدُ النفوسَ موارد الحتوف

قرأت حوادث عشاق الموتى الذين يتسللون تحت جنح الظلام إلى المقابر فينبشونها عن رفات الفتيات المقبورات، شوقا إلى لثمة من خد يرشح صديدُه، أو رشفة من ثغر يتناثر دودُه، حتى انه ليروقهم من منظر الساكنات تحت الرِجام، فوق ما يروقهم من منظر المقصورات فى الخيام، فلما طاردتهم الحكومة عن أمنيتهم، وحالت بينهم وبين مواطن غرامهم، ومواقف عشقهم وهيامهم، رأوا أن يحتالوا على الالمام بأولئك الموتى خيالا، لمّا فاتهم الالمام بهم حقيقة فأنشأوا لأنفسهم فى باطن الأرض قاعة كبرى كسو

جدرانها بالأستار السوداء ، ووضعوا فى وسطها صندوقاً من صناديق الموتى تنام فيه فتاة حية تتصنع الموت باصفرار لونها ، وإسبال جفونها ، وسكون أعضائها ، وتعليق أنفاسها ، فاذا لج بأحدهم الشوق إلى الالمام بفتاة ميتة نزل إلى تلك القاعة السوداء ، وعالج مخيلته على أن يتصورها قبراً مظلماً موحشاً ، يضم بين أقطاره فتاة ميتة لاحراك بها ، فيلمّ بها وهو يسمع نغمات الاحزان من قيثارة أعدت وراء القاعة لتجسيم ذلك الخيال

قرأتُ هذا وقرأت أن منهم من تجاوز به جنونه وهوسه إلى الغرام ببعض أنواع الحيوان ، حتى أنهم نصبوا لأنفسهم مواخير خاصة يلمّون فيها بالدّجاج والبط والأوز إلمام غيرهم بالنساء البغايا ، فقلت لاعجب فى ذلك ، وهل هو إلا فن من فنون الجنون التى لايجد المرء إلى حصرها سبيلا

إن كنت أغتفر للمدنية الغربية كل ذنوبها فانى لاأغتفر لها ذنبها فى مدرسة الغرام التى أنشأها قوم من الاميريكيين

فى وسط مدينة من مدن أمريكا ليعلموا فيها النساء والرجال فنون الحب والمغازلة جهرة من حيث لايرون فى ذلك بأساً، ولا يجدون فيه متلوَّماً ، وقد وضعوا لها البرنامج الآتى :

يوم الاحد — دروس استعدادية
« الاثنين — الغزل
« الثلاثاء — المطارحة
« الاربعاء — صناعة التقبيل والتجميش
« الخميس — فلسفة الدلال والتصبي
« الجمعة — اختيار مواعيد اللقاء
« السبت — الامتحان

هذه هى المدرسةُ الغرامية ، وهذا نظامُها ، فهل سمعتَ فى حياتك أن أمة من الأمم المتوحشة التى يسمونها الامم البهيمية إشارة إلى ما بينها وبين البهائم من الشبه فى حب الشهوات والاستهتار فيها قد بلغت فى تهتكها وفساد أخلاقها مبلغ تلك الامة التى يقولون عنها إنها زهرة المدنية الحديثة، وتاجها المرصع .

لماذا نسمى قبائل الزنوج قبائل متوحشة ، ونحن نعلم فيما نعلم من أخلاقهم أنهم لايتركون عزابهم ينامون وسط البيوت مخافة أن يكون لهم سبيل الى مخالطة النساء ، فيأخذونهم جميعاً الى مكان خاص بهم خارج القرية يبيتون فيه فوق هضبة مرتفعة ينثرون حولها تراباً ممهَّداً ، حتى اذا أراد أحدهم أن يختلس من ظلام الليل غرة نم أثره عليه ، كما نعلم أنهم يَخيطون فروج العذارى حيطة وحذرا ليحفظوا أعراضهن لازواجهن سالمات بريئات ، ولماذا نسمى الامة الاميريكية أمة متمدينة ، وهاهى ذى تفتح المواخير باسم المدارس حتى لاتكون فى نفس أحد من الناس غضاضة فى دخولها ، والاخذ بنصيبه من لذائذها وشهواتها

ان كان توحش الأولين لاغراقهم فى صون الاعراض والحيطة لها ، فالآخرون أكثر منهم توحشاً لاغراقهم فى هتكها وابتذالها ، والاغراق فى الخير ، خير من الاغراق فى الشر

فيأيها الزنجى المسكين لقد ظلمك من سماك متوحشاً ،
ويأيها الاميركى المتوحش لقد كذَبك من سماك متمديناً

أيها الزنجى الاسود : ان كنت أسود اللون ، فالفضيلة أعلى قدراً من أن تتنزل لاعتبار السواد ذنباً تنفر منه ، وجريمة لاتغتفرها ، وإن كنت جاهلا ، فهل استفاد صاحبك من علمه الا إمتاع نفسه بشهواتها ولذائذها ، والتفنن فى فجور الحياة وفسوقها ، تفنناً لاأحسبك تحن اليه ، أو تتقطع نفسك حسرات عليه ، وإن كنت عارياً ، فربما لبست من الفضيلة ثوباً يحسدك عليه لو يَعقلُ ذلك الذى يفخر عليك بخزه وديباجه ودِمَقْسه وحريره

ولو بتما عند قدريكما لبتَّ وأعلا كما الاسفل (١)

(١) اى لو نزل كل منكما المنزلة التى يستحقها لأحد الاعلى مكان الاسفل والاسفل مكان الاعلى

أمس واليوم

مَثلنا ومَثل آبائنا الأولين من قبل طلوع شمس هذا التمدين الحديث ومن بعده كمثل رجل ضل به طريقه فى ليلة ليلاء غُدافية الاهاب ، حالكة الجلباب ، قد تجسد ظلامها حتى كاد يُلمس بالراح ، فانقلب جوهراً بعدَ إذ هو عرض ، فاصبح كأنما هو فحم سائل ، أو مداد جامد ، فانشأ هذا الضال المسكين يخبط فى ذلك الديجور ، ترفعه النجاد ، وتخفضه الوهاد ، لايرى علما فيهتدى به ، ولا يتنوّر نجما فيعتمد فى سراه عليه

وإنه لكذلك وقد استوت فى نظره الجهات الستّ ، فسماؤه أرض ، وأرضه سماء ، ووراءه أمام ، وأمامه وراء ، واذا بقرن الشمس قد نجم فى جبهة الافق ، وأفرغ فى ناظره المملوء بالظلمة قطراتٍ ملتهبةً من ذائب أشعته المتلألئة ،

فَعَشِيَ بعد أن كان بصيراً ، فما أغنى عنه ذلك الضياء شيئاً ، وما زال فى ضلاله القديم ، الا أن ذاك ضلال الظلام ، وهذا ضلال الضياء ، وهو شر الضلالين ، وأقتل الداءين ، فان ضلال الظلام يتخلله بريقُ الامل فى الضياء ، فأمّا وقد أصبح الدواء داء ، فلا أمل فى الشفاء

لو بغير الماء حلقى شَرِق كنت كالغصّان بالماء اعتصارى

ذلك مثلنا ومثل آبائنا من قبلنا بين يدى هذه المدنية الجديدة التى همى سيلها على هذا العالم الانسانى فرأى الغربَ تربةً طيبة صالحة فسقاها فاهتزت وربت ، وأنبتت من كل زوج بهيج ، ورأى الشرقَ تربةً صامتة متحجرة قد نجم فيها كثير من الاعشاب الضعيفة ، والجذور الفاسدة ، فأما ما تحجر منها فلم تغن عنه السُّقيا شيئاً ، وأما ما اخضر وترعرع فقد نما فاسداً كأصله ، وكان خيراً له لو ذهب ذلك الفيضان به وبجذوره

أى إن المدنية الحديثة تمشت فى صدر الغرب بقدم

متثاقلة فما خفق لها قلبه ولا اضطرب ، ثم وضعت يدها فى أيدى الغربيين فصعدت بهم الى سمائها خطوة خطوة كما يعوّد الطفل الصغير على المشى، وما أعجلتهم عن أمرهم كما أعجلتنا، فبلغوا ما أرادوا ، وهوينا الى أعمق مما كنا، كالحجر الثقيل يُرمى به فى الجو ، فاذا ارتد الى حفرة يدفن نفسه فيها

أى إن الغربيين أحسوا ، فنهضوا ، فجدوا ، فأثروا ، فتمتعوا بثمرات أعمالهم ، ونحن أغفلنا جميع هذه المقدمات ، ووثبنا الى الغاية وثباً فسقطنا

فمها كان نصيب آبائنا من الجهل ، وانفراج المسافة بينهم وبين هذه المدنية الحاضرة ، فقد كانوا على عِلاتهم أسعد منا حالا، وأروح بالا، وأهنأ عيشاً ، وأسدّ خطوات فى سبل الحياة، وكانت المعيشة فيهم اجتماعية ، أكثر منها فردية ، فكانت الأسرة الواحدة أشبه شىء بالمملكة الدستورية المنظمة يديرها عقل واحد فى جسوم كثيرة متفقة فى الرأى والدين والمذهب والاخلاق والعادات ، تجتمع حول المائدة كما تجتمع فى نادى

المسامرة ، وتتلاقى فى قاعة الصلاة ، كما تتلاقى فى ساحة المتنزه ، يحبون الله ، ولا يختلفون الا فى الطريق الى رضاه ، ويحبون الوطن ، ولا يختلفون الا فى الطريق الى خدمته ، ويحترمون عاداتهم وأخلاقهم ولغتهم المكونة لهيئتهم الاجتماعية ، ويفرون من العادات والمشارب الغريبة عنهم فرارهم من الاسد ، مخافة أن يرق هـذا الحاجز القائم بينهم وبين الأمم الأخرى فتنحل جامعتهم ، فتهـدأ حميتهم ، فتجمد نفوسهم ، فاذا هم ميتون ثم لا يبعثون

وكان بين الصغار فى الأسرة والكبار فيها معاهد رحمة واحترام ، يحترم الصغيرُ الكبير فيُكبر عمله وارادته ومذهبه ، فاذا أنزل نفسه منه هذه المنزلةَ أصبح بحكم الطبيعة مرآة له تنطبع فيها تلك الاعمال والارادات والمشارب ، حتى اذا أصبح الصغير كبيراً وَجد من صغيره ما وَجد منه كبيرُه ، فلا تزال سلسلة التوارث فى الاسرة متصلة اتصالا تعيا به الحوادث ، وتكبو دونه عاديات الليال

ويرحم الكبيرُ الصغير فلا يألوه نصحاً فى حاضره ومستقبله ، ولا يفتأ يطلب عنده ما عند نفسه حتى يتم بينهما التناسخ فاذا هو هو ، حتى إذا قضى الله فيه قضاءه لا تفقد الأسرة بفقده شيئاً

فمن لنا اليوم بتلك السعادة التى أثكلتنا إياها المدنيةُ الغربية يوم أظلتنا بعلومها ومعارفها ، ومخترعاتها الخالية ، وزخارفها اللامعة الباطلة ، فانقلبت المعيشة البيتية الاجتماعية فردية محضة ، فالاخَوان متناكران ، والزوجان متنافران ، والولد شقى بأبيه ، والابن شقى بولده ، وكأن ساحة المنزل ساحة الحرب ، لا ترى فيها غير وجوه مقطّبة ، ونفوس منقبضة ، وأشلاء فوق أشلاء ، ودماء إثر دماء ، وشقاء ليس يَعدله شقاء

ومن كان فى شك من هذه الحقائق فانى أكله الى جداول القضايا فى المحاكم ، فان لم ير أن أكثر المخاصمات فيها

خصوصاً المدنيّة منها واقعة بين الاقارب وذوى الرحم فله حكمه ما شاء

وإن أبيت الا أن تتمثل لك الحقيقة بأكمل وجوهها فاسمع قصة رجل مصرى كان ذا ثروة متوسطة عاشرت آباءه أجيالا متعددة . فما كانت تضيق بهم، وما كانوا يضيقون بها ، وكان له ثلاثة أولاد و « امرأة جديدة » متعلمة تعرف كل شىء الا واجباتهـا وواجبات منزلها وزوجها وأولادها ، وليتها جهلت كل شىء إلا هذا فتكون قد علمت كل شىء ، وتحب مطالعة الروايات الغراميـة الفاسدة حباً ملك عليها مشاعرها وخوالجها ، فربما عرض لها المهم من الامر فلا تخف له قبل فراغها من الفصل الذى تطالعه ، وتحب التمثيل فتقضى ليلها فى مشاهدته ، ونهارَها فى سرد وقائعه ومشاهده على صواحبها وأترابها، وربما كانت تهمس فى آذانهن أنْ ليتها ترى (روميو) فتكون له (جوليت)[1] ، وتبغض الحجاب بغض

(١) روميو وجوليت اسم رواية لشكسبير

الحرائر للسفور ، فيومها نصفان ، نصف للخروج ، ونصف للتهيؤ له ، فهى خارج المنزل من مطلع الشمس الى مغربها ، بنى بها زوجها بعد وفاة زوجه الأولى فلم يغتبط بها غير عام واحد ، ثم ضرب الدهر ضرباته فاذا بينهما عيشة لاأظن ان الجحيم أشد نكالا منها .

أما أولاده فأدخلهم مدارس مختلفة تعلموا فيها لغات مختلفة ، الانكليزية والفرنسية والالمانية ، ثم تخرجوا ، هذا انكليزى بفظاظته وخشونته ، وهذا فرنسى بخلاعته واستهتاره ، وذاك ألمانى بخيلائه وكبريائه ، وجميعهم متفرنجون مشرباً ومذهباً ومطعماً وملبساً ومسكناً ، ومافيهم من تفرنج همة وعملا

خرجوا من المدارس بلا دين ولا وطن ، أما الدين فلأن أكثر مدارسنا حتى الاهلية منها مادية محضة لاتعلق للدين بشأن من شؤونها ، والدين خُلُقٌ شأنه كبقية الاخلاق ، لايرسخ فى النفس الا بتكرر الصور الدينية وتداولها عليه ،

فان بعد عهدها به أغفلته وأنكرته ، وكذلك كان شأن هؤلاء الاولاد المساكين ، فقست قلوبهم ، وجمدت نفوسهم ، وفقدوا بفقد دينهم أطيبَ عزاء يستروحه الانسان فى هذه الحياة المملوءة بالمصايب ، الحافلة بالكوارث والهموم

والانسان مهما طال حوله ، وكثر طوله ، واتسعت مذاهب قوته ، فليس ببالغ من دهره المعاند ما يريد ، لولا زهرة الأمل التى يتعهدها الدين بالسُّقيا فى قلب المؤمن ، فيستروحُ منها ما يروّح عن قلبه ، ويسرّى عن نفسه ، ولولا يقينُه أن هناك حولاً أكبرَ من حوله ، وطولا أعظم من طوله ، وإلها قادراً يقرب اليه ما يريد مما ضاق به ذرعه ، وعَيَّتْ عنه قوته

وأما الوطن فلأن المدارس عندنا تديرها من وراء ستار أيدٍ أجنبية تُربى التلاميذ لها لا لأوطانهم

فكنت ترى منزل الرجل كأنما هو مجمع من مجامع السفراء ، تركىٌّ متمسك بتركيته ، وانكليزى يهتف ليله

ونهارَه بأن الدولة الانكليزية سيدة البحار ، وان الشمس لاتغيب عن أملاكها ، وفرنسى يعبد فرنسا ويسبح بحمدها ، ويصفها بأنها أمة العدل والرحمة ، وان أسعد المستعمرات مستعمراتها ، وألمانى يستظهر خطَبَ الامبراطور ، ويتكهن ان المستقبل لألمانيا يوم يُمحى اسم انكلترا وفرنسا من مصوّرات الجغرافيا ، وكثيراً ما يقع بين المتفرنس والمتألمن النزاعُ الطويل فى شأن الالزاس واللورين ، وبين المتألمن والمتكلنز الشقاقُ العظيم فى واقعة واترلو ، وأى القائدين كان له الفضل فيها ، بلوخر أو والنغتون ، ولا يتفقون الا فى الساعة التى يذكرون فيها أمتهم ، فانهم يمثلونها لأنفسهم وللناس أقبح تمثيل ، ويُلبسونها ورجالَها قديما وحديثا أثواب المرافع المضحكة ، غير مستحيين من أنفسهم ولا من الناس ، ولا مبالين بالأدمع المنهلة من عين والدهم الجالس ناحيةً يندبهم ، ويندب نفسه معهم ، فبئس الاختلاف حين يختلفون ، ولا حبذا الاتفاق يوم يتفقون

وهكذا انحلت الجامعة فى هذا المنزل ، وتفرق أفراد تلك الأسرة أيّما تفرق، وانقسموا على أنفسهم كل الانقسام ، فلا يصطحبون فى متنزّه ، ولا يجتمعون لصلاة ، ولا يتصافون فى سمر ، ولا يتفقون فى شأن من شؤونهم البيتية ، حتى أصبح لكل منهم من المأكل والمشرب والملابس وجميع مرافق الحياة ما يطالبه به خلقه المباين لخلق أخيه أو أبيه

فأنى لهم التعاضد الذى كان لآبائهم من قبلُ فى خوض غمرات الحياة ، وأنّى لوطنهم ان يسعدَ بهم بعد عجزهم عن إسعاد أنفسهم ، والمنزلُ قوام الأمة تسعد بسعادته ، وتشقى بشقائه

وأى شأن لهذه المعلومات الكثيرة التى حشوا بها أذهانهم ، وهل أفادوا [1] بها الاّ هذراً فى المنطق ، وثرثرةً فى اللسان ، وشغلا للأذهان ، لا يغنى عن سعادة الحياة وهنائها فتيلا

(١) افادوا كاستفادوا

ولو عقلوا لعلموا ان ذلك العلم القليل الذى كان يعلمه آباؤنا ونسميه نحن جهلا وهمجية هو خير من علمنا الكثير المستفيض الذى نساجلهم به ، وننعى عليهم تاريخهم من أجله ، لأنهم كانوا بقليلهم هذا يعملون ما نعجز عنه نحن بكثيرنا

أجلْ انهم كانوا يجهلون عدد أقسام الأرض، وان مصر فى شمال أفريقيا ، وسوريا فى جنوب آسيا ، ولكنهم كانوا يعلمون ان وطنهم حيثما حل من أقسام الأرض محبوب لديهم ، وان أبناء وطنهم إخوة لهم يسعدون معاً ، ويشقون معاً ، وان سعادتهم فى استقلالهم ، وشقاءهم فى امتداد اليد الأجنبية اليهم ، وكانوا يعتقدون كثيراً من الخرافات والأوهام ، وأن هناك أرواحاً خيرية وشرية تنفع وتضر ، وكانوا يتمسحون بالمعابد والمشاهد ، ويطأطئون رءوسهم بين يدى رؤساء الأديان تخنثاً وتعبداً ، وعندى أن ديناً خرافياً خير من لا دين ، لأن لهذه المعبودات الوهمية فى نفوس العابدين لها سلطاناً قاهراً يقاوم أهواء الشر فيها ، ويطهرها من كثير من

الرذائل التي تعيا بها القوانين الشرعية والوضعية ، كالخيانة والكذب. والحقد والحسد ، وسفك الدماء ، واغتيال الأموال ، وغير ذلك من الشرور الانسانية التي لا تنزجر النفس عنها مالم يكن منها لها زاجر . والتي فشت اليوم بين طبقات المتعلمين الذين أخذوا العلم مجرداً عن روح التربية وصبغة الاخلاق

ولقد كان آباؤنا على علاتهم يعتمدون في أكثر عقودهم من بيع وشراء وهبة وقرض ورهن على صدق ألسنتهم ، ووفاء قلوبهم ، فكان الرجل يأمن أن يقرض صاحبه الآلاف المؤلفة من الذهب بلا كتابة صك ، ولا شهادة شاهد ، فأصبحنا نكتب الصكوك ، ونستشهد الشهود ، على الدانق والسحتوت ، والويل ثم الويل لصاحب الحق اذا ضاع صكه ، أو أنكر شهودُه ، وكثيراً ما يفعلون

وجملة الحال انهم كانوا يجهلون أكثر ما نعلم ، ولكن لم يجن عليهم جهلهم أكثر مما جنى علينا علمنا ، وكانوا محرومين أكثر ما ننعم به اليوم من مساكن فاخرة ، ومراكب

فارهة ، وملابس زاهية ، وفرش وثيرة ، وآنية صقيلة ، وأدوات للمأكل والمشرب ثمينة ، ولكنهم لم يكونوا محرومين فيما بينهم وبين أنفسهم شيئاً من هذا كله ، لأنهم ألفوا معيشتهم البسيطة ، كما ألفنا نحن هذه المعيشة المركبة ، فنحن وهم سواء في الرضا بحالنينا ، الا أن معيشتنا يكدرها الفقر والافلاس الآجل أو العاجل ، ومعيشتهم لم يكن يكدرها من ذلك شيء ، وهاهى دفاتر المصارف وبيوت الأموال مكتظة بديون الفلاحين التى كانوا فى غنى عنها لولا المدنية الحاضرة التى قلبت الكماليات فى نظرهم الى حاجيات ، فبنوا القصور ، وشادوا الدور ، وماشادوا لو يعلمون إلا قبوراً دفنوا فيها راحتهم وهناءهم ومستقبلهم ومستقبل ذريتهم من بعدهم ، فان هؤلاء الأولاد المساكين بعد أن خرجوا من المدارس بلا دين ولا وطن أرادوا أن لا يبقوا فى قوس الحرية منزعاً ، فأطلقوا لأنفسهم العنان فى سبيل الشهوات واللذائذ ، فكانوا يسهرون الليل

بين رنين الكؤوس ، وضرب الدفوف ، ثم يناموا النهار بين التمطي والثُّؤَباء ، حتى نبت بهم وظائفهم التى هى كل ما حصلوا عليه من علومهم ومعارفهم ، فأبعدتهم عنها ، فأصبحوا كلا على أبيهم وعلى الناس ، لم ينفعهم علمهم ، ولم تغن عنهم شهاداتهم ، بعد أن نفخت الكبرياء فى صدورهم ، فأبوا أن يتنزلوا للاحتراف بما يقوّم حياتهم كما يفعل أولئك الذين أنضوا ركائب شبابهم فى طريق تقليدهم ، وباعوا فى سوق التشبه بهم كل ما تملك أيمانهم وقلوبهم ، وبعد أن ملكت الشهواتُ قيادهم فما وجدوا فى أنفسهم متسعاً لسواها ، أُغروا بثروة أبيهم يأخذون منها بالحق تارة ، وبالباطل تارات ، وكانوا قد قلصوا ظلالها أولا بنفقات دراستهم ، وثانياً بابتياع ما حسن لفظه وقبح معناه من السلع الأوربية التى تفنى خزائن روكفلر وروتشلد قبل الوصول الى إشباع بطون تجارها ، فنضب معينها ولم يبق منها حتى الذماء[1] ، فتبدل ذلك النعيم شقاء ،

(١) الذماء بقية النفس

وتلك السعادة والرفاهية فقراً وعُدما ، أما الوالد فقضى شهيد العلوم والمعارف ، والمخترعات والمستحدثات ، وأما الاولاد فاغتالت أحدَهم يد الزهرى وكانت لأمثاله من المغتالين ، واحتوى الآخرَ فراش السل حيث لازائر ولا طبيب ، وافترش الثالثُ ترابَ السجن على أثر جناية دفعه اليها العوز والحاجة ، وفرت « المرأة الجديدة » الى معرض الاعراض حيث يبتاعها الشقاء بثمن بخس وهو فيها من الزاهدين

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا
أنيس ولم يسمر بمكة سامر

هذه قصة منزل من منازلنا ، وكل المنازل بيننا ذالك المنزل الا ما رحم الله ، فلو أن باكياً بكى على ما آلت عليه حالة هذه الأسرة الشقية فهو إنما يبكى أسراً متعددة ، وأمة كاملة

لقد لامنى عند القبور على البكا
رفيقى لتَذراف الدموع السواقك

فقلت له ان الأسى يبعث الأسى
دعونى فهذا كله قبر مالك [1]

وجملة القول ان للحاضر سيئات فوق سيئات الماضى ، فلاخير فى العصرين ، ولكنّ ويلاأخف من ويلين ، والامم لاتسعد بمعرفة الخير والشر ، فالخير والشر معروفان حتى لأمة النمل ، وإنما سعادتها فى معرفة خيرالخيرين،وشرالشرين، ولئن دام هذا الحال ، واطرد المقياس ، فالغد شر من اليوم ، كما كان اليوم شراً من الامس

(١) الابيات لمتمم بن نويرة يرثى اخاه مالكا

المرقص

حدث أحد الأصدقاء قال : ذهبت ذات ليلة الى مرقص من مراقص الازبكية ولم أكن زرته ولا زرت غيره من قبل فرأيت على بابه جنديا يتمشى فى عَرصته مشية هادئة مطمئنة ، فذعرت لمرآه ، وتراجعت قليلا قليلا ، وكدت أعتقد أننى أخطأت الطريق إلى المرقص ، وأننى بين يدى دار من دور الحكومة يحرسها حاجبها ، لولا أننى لم أر فى وجوه الداخلين ذلك الخوف والاضطراب ، والذل والانكسار ، الذى اعتدت أن أراه فى وجوه الشاكين والمتظلمين

وقفت ساعة أتردد بين الاقدام والاحجام حتى لمس كتفى لامسٌ فالتفت ورائى فاذا صديق من أصدقائى يسألنى ما وقوفك ههنا ؟ فقلت له ماقاله أبو العيناء لصاحبه حينما

سأله عن سبب بكوره « أراك تشاركني فى الفعل وتُفْردني بالعجب » ، قال أنا أفتش عن ابن عمى ، قات وأنا أفتش عنك ، فابتسم وقال هيا بنا ندخل قبل أن تمتد سلسلة التفتيش الى حيث مالا نهاية له ، وأمسك بيدى حتى جاز بى باب المرقص ، فسألته ما هـذا الجندى الواقف أمام الباب ، قال كيف ذهب عليك أن حكومتنا قد أصبحت اليوم حكومة مدنية لاأدبية ، فتساوت فى نظرها «المصالح» والمراقص ، واختلط عليها الامر بين مواقف القضاء ، ومعاهد البغاء ، فأصبح الجندى يحمى أبواب العاهرات ، كما يحمى أبواب الوزارات ، ويقف أمام البارات ، موقفه أمام الادارات

وإن العين لا تكاد تملك مدامعها سَحًّا وتَذرافًا كلما أبصرتْ هذا الجندىَّ الشريف ، واقفًا هذا الموقفَ الذليل ، يسمع قراع الدفوف ، لاقراع السيوف ، ويرى حمرة الصهباء ، لاحمرة الدماء ، ويحمى الفسق والفجور ، لا القلاع

والثغور ، وما أعجب لشيء عجبي لهذه الحكومة التي تضن بجنديها أن يشتمه شاتم ، أو يلمسه لامس، فتغضب له غضبة مضرية تتراءى فيها الشهامة والحمية ، والعزة والنخوة، ثم لا تضن به أن تُؤَجر نائحة في الجنائز ، أوقواداً في المراقص ، وهو هو بعينه الذي يمثلها في وقفاته ، وينوب عنها في غدواته وروحاته

هذا ما كان يحدثني به ذلك الصديق وهو سائر بي إلى قاعة المرقص حتى وصلت اليها ، فماذا رأيت ؟

إن كنت لم تسمع في حياتك أن فداناً واحداً من الأرض يبتلع في جوفه ستة ملايين من الأفدنة فاعلم أنه المرقص الذي يأكل وحده جميع ما تنبته تربة مصر من الخيرات والبركات ، فكأنه العين التي تسع الفضاء بأرضه وسمائه ، أو القلب الذي يحمل في سويدائه علم ما كان وما يكون

رأيت الدنانير ذائبة في الكؤوس ، والعقول جامدة في الرءوس ، والحبائل منصوبة لاستلاب الجيوب ، والسهام مسدده لاصطياد القلوب ، ورأيت من كنت أحسبه

أوفر الناس عقلا ، وأذكاهم قلباً ، ومن كنت أراد فأغضى بين يديه إجلالا وإكباراً ، واقعاً فى حبالة بغىٍّ تقيمه وتقعده، وتطويه وتنشره ، وتعبث به عبث الطفلة بلعبتها ، وهو فى غير هذا المكان قيصر الرومان عزة وفخاراً ، وكسرى فارس أنفة واستكباراً

رأيت من يزعم أن الله قد وهبه عقلا تخترق أشعته حجب الغيب ، وعلما تتساوى أمامه المادة وماوراءها ، ومن لا يزال يتمثل صبحه ومساءه بقول الشاعر

وعلمتُ حتى ما أسائل واحدا

عن حرف واحدة لكي ازدادها

يجهل قضية من القضايا الأولية التى تشترك فى فهمها الأذكياء والأغبياء ، والعلماء والجهلاء

رأيته يجلس فى المرقص فتمر به البغىُّ فما هى إلا لمحة طرف ، أو غمزة كف ، حتى تحدثه نفسه أنه قد وقع من نفسها ، وملأ فراغ قلبها،فيدعوها اليه فتجلس بجانبه ، فما هى

إلا ابتسامة خالبة ، أو كلمة كاذبة ، حتى يقسم بكل محرجة من الأيمان ، أن نفسه صادقة فيما حدثته ، وأن الفتاة قد علقت به علوقاً لا نجاة لها من بعده إلى يوم يبعثون

هنالك يبذل لها ما يشاء من نفسه وشرفه وماله ، ويرى أن ذلك قليل فى جانب ما تبذل له من دقائق تقضيها بين يديه ، وابتسامات تجود بها عليه

لقد كَذَبتك نفسُك أيها الرجل ، فها هى المرآة بجانبك فهل ترى فيها منظراً رائعاً ، أو جمالا ساطعاً ، يأسر أقسى النساء قلباً ، وأعصاهن عناناً

ان الفتاة التى أسمعتك كلمةَ الحب قد أسمَعَتها قبلك وستُسمعها بعدك كل صاحب جيب مثل جيبك ، وعقل مثل عقلك

وإن كنت فى شك مما أقول فأمسك عن فتح الزجاجات لحظة قصيرة ثم انظر بعد ذلك أين مكانك من نفسها ، وموقعك من قلبها ، فان لم تمطر عليك سحائب اللعنات ،

وتجعلك غرضا لسهام التهكمات ، فأنت أصدق الصادقين ، وأنا أكذب الكاذبين

رأيت هنالك كل حاسة من الحواس قد لبست منظاراً يكبر المنظورات ، ويضاعف المسموعات ، تغنى المغنية بصوت مضطرب النغمات ، بارد الترجيعات ، ثقيل الحركات والسكنات ، فتمتلىء أرجاء القاعة بالآهات ، وتدوى فيها الصيحات المزعجات ، وتطل العجوز الدرديس على الناس بوجه مغضّن ، وجفن مقرّح ، وسن بارز ، وخد غائر ، فتطير حولها القلوب ، وتتحلب لها الافواه ، وتترامى تحت أقدامها الوجوه ، فقلت فى نفسى أهذا هو المرقص الذى تخرب فيه البيوت العامرة ، وتذبل فيه الرياض الزاهرة

أهذا هو الذى تتدفق فيه الأموال الغزار ، تدفق الانهار فى البحار ، وتقبر فيه نفوس الكرام ، قبل أن تقبر تحت الرجام ، والله لا يبلغ العدومنا بخيله ورجله ، وأساطيله

وقنابله ، ولا تبلغ السماء منا بصواعقها ورجومها ، ولا الارض بزلازلها وبراكينها ، ما يبلغ منا المرقص ببغاياه

قال المحدث : والحق أقول إنى دخلت المرقص وأنا أحسب أنى أنفس عن نفسى كربة ، فرأيت ما زاد نفسى هماً ، وملأ قلبي غيظا ، فقلت لصاحبي هل لك فى القيام ، فقام وقمت وأنا أقول ، والله ما أدرى ما ترك هذا المكان للمارستان

الماضى والحاضر

عندى أن الفضيلة والرذيلة كالجمال والقبح أمران اعتباريان، يختلفان باختلاف الأمكنة والأزمنة، فكما أن الجمال فى أمة قد يكون قبحاً فى أمة أخرى، كذلك الفضيلة فى عصر، قد تكون رذيلة فى عصر آخر

ليست الفضائل والرذائل أسماء توقيفية كأسماء الله تعالى لا يمكن تغييرها ولا تبديلها، وليست الفضيلة فضيلة إلا لأنها طريق السعادة فى الحياة، ولا الرذيلة رذيلة إلا لأنها طريق الشقاء فيها، فحيث تكون السعادة فى صفة فهى الفضيلة، وإن كانت صفة اللؤم، وحيث يكون الشقاء فى صفة فهى الرذيلة، وإن كانت صفة الكرم

اعتاد علماء الأخلاق فى كل زمان وفى كل مكان من

عهد آدم الى اليوم أن ينشروا لنا فى كل كتاب يؤلفونه أو رسالة يدونونها جدولين ثابتين لا ينتقلان ولا يتلحلحان ، يكتبون على رأس أحدهما عنوان « الفضائل » وتحته كلمات الشجاعة والكرم والأمانة والوفاء والعفة والمروءة والصدق والعدل والرحمة ، وعلى رأس ثانيهما عنوان « الرذائل » وتحته كلمات الجبن والبخل والخيانة والغدر والطمع والكذب والظلم والقسوة ، وأرى أنه قد آن لهم أن يعلموا أن الناس اليوم غيرهم بالأمس ، وأن أساليب الحياة الحاضرة ، غير أساليب الحياة الماضية ، وأن كثيراً من الصفات التى كانت فى عهد البداوة والسذاجة رذائل يجتويها الناس ، ويتبرمون بها ، ويستثقلون مكانها ، قد أصبحت فى هذا العصر عصر المدنية المادية المؤسسة على المنافع والمصالح حالة واقعة متقررة فى نظام المجتمع البشرى ، وأسسا ثابتة تبنى عليها جميع أعماله وشؤونه ، فلا بد للناس منها ، ولا غنى لهم عنها ، ولا مندوحة لهم إن أرادوا أن يخوضوا معترك الحياة مع

خائضيه من أن يتعلموها تعلما نظاميا ، ويدرسوها مع ما يدرسون من علوم الحياة التى يتوقف عليها نظام عيشهم ، ويتألف منها شأن سعادتهم وهنائهم

***

كان الكرم فضيلة يوم كان الناس يحفظون الجميل لصاحبه ، ويعرفون له يدَه التى أسداها إليهم ، فاذا هوى به كرمُه فى هوة من هوَى الفقر لايعدم أن يجد من بين الذين أحسن إليهم أو عَظُمَ فى نفوسهم شأنُ إحسانه من يمد إليه يد المعونة ليستنقذه من شقائه ، أو يرفهه عليه ، أما اليوم وقد أنكر الناس الجميل ، واستثقلوا حمله على عواتقهم، بل أصبحوا يشمتون بصاحبه يوم تزل به قدمه ، ويصبون على رأسه جميع ما فى كتب المترادفات من أسماء الجنون وألقابه ، فليس الكرم فضيلة ، وليس من الرأى الدعاء له ، والحض عليه

وكانت الرحمة فضيلة يوم كان الناس صادقين فى أحاديثهم

عن أنفسهم ، فلا يعترف بالبؤس إلا البائس ، ولا يلبس القديم إلا من عجز عن لبس الجديد ، أما اليوم وقد ذلت النفوس ، وسفلت المروءات ، فلبس ثوبَ الفقر غير الفقير ، وانتحل البؤسَ غير البائس ، وأصبح نصف الناس كسالى متبطّلين لا عمل لهم إلا اللجوء إلى ظلال القلوب الرحيمة يعتصرونها ويحتلبون درّتها حتى تجف جفاف الحشف البالى ، فالرحمة هى الفقر العاجل ، والخسران المبين

وكانت الشجاعة فضيلة يوم كان الناس ينصرون الشجاع ويؤازرونه ، ويتبعون خطواته فى طريقه التى يذهب فيها ، فلا يتخلون عنه ولا يخذلونه حتى يتم له الظفر الذى يريد ، أما اليوم وقد فترت همم الناس ، ووهت عزائمهم ، وماتت فى نفوسهم الحفائظ والغير ، ووكلَ كلٌّ أمرَه الى صاحبه ، فان رأوه قائما بدعوة وطنية أو اجتماعية أغروه بالمضى فيها ، ثم وقفوا على كثب ينظرون ماذا يفعل ، فان ظفر هتفوا له ، وانحدروا اليه يقاسمونه الغنيمة التى غنمها ، وإن فشل خذلوه ،

وتنكروا له ، فالشجاعة جنون لا يجد صاحبها من ورائها إلا التهلكة والشقاء

وكانت القناعة فضيلة يوم كان الفضل هو الميزان الذى يزن به الناس أقدار الناس وقيَمهم ، ويوم كان الفقر مفخرة للشريف إذا عفّت يده ، وعزفت نفسه ، والغنى معرة للدنىء إذا سفلت مساعيه وأغراضه ، أما اليوم وقد مات كل مجد فى العالم إلا المجد المالى ، وأصبح الناس يتعارفون بأزيائهم ومظاهرهم ، قبل أن يتعارفوا بصفاتهم وأعمالهم ، فالقناعة ذل الحياة وعارها ، وبؤسها الدائم ، وشقاؤها الطويل

وكان الغضب رذيلة يوم كان الناس يعرفون فضيلة الحلم ويقدرونها قدرها ، ويطأطئون رءوسهم إجلالا لصاحبها ، أمّا وقد أصبح الناس أشراراً يحملون شرورهم على كواهلهم ، ويدورون بها فى كل مكان يطلبون لها رأساً يصبونها عليه ، ولا يعجبهم مثل الرأس الضعيف المتهالك

الذى لا يحسن الذياد عن نفسه ، فلا خير فى الحلم ، والخير كل الخير فى الغضب

الحياة معترك أبطاله الاشرار ، وأسلحتهم الرذائل ، فمن لم يحاربهم بمثل سلاحهم هلك عند الصدمة الأولى

يجب أن يكون الناس جميعاً إما فضلاء ليسعدوا بفضيلتهم ، أو أدنياء ليتقىَ بعضهم بأس بعض ، أمّا أنْ يتقلد سوادهم سلاح الرذيلة ، والنزرُ القليل منهم سلاح الفضيلة ، وهو أضعف السلاحين وأوهاهما ، فليس لذلك إلا معنى واحد ، هو أن يهلك أشراف الناس وفضلاؤهم ، فى سبيل حياة أدنيائهم وأنذالهم

إن الدعاء إلى البر والاحسان ، والرحمة والشفقة ، والعدل والانصاف ، والصدق والاخلاص ، فى هذا العصر ، إنما هو حبالة ينصبها الاقوياء الماكرون للضعفاء الساذجين ليخدعوهم بها عن مائدة الحياة التى يجلسون عليها ، فيستأثروا بها من دونهم ، فلا يدعو الداعى إلى الكرم إلا ليغتل ما فى جيوب

الناس إلى جيبه ، ولا إلى العفو إلا ليصيب بشره من يشاء دون أن يناله من الشر شيء ، ولا إلى القناعة إلا ليقال من سواد المزاحمين له على أغراض الحياة ومطامعها ، ولا إلى الصدق إلا ليتمتع وحده بثمرات الكذب ومزاياه

كلنا يكذب ، فلم يعيب بعضنا بعضاً بالكذب والتلفيق ، وكلنا يبسم لعدوه وصديقه ابتسامة واحدة ، فلم نستنكر الرياء والمصانعة ، وكلنا يطمع فى أن تكون له وحده جميع خيرات الأرض وثمراتها ، فلم نستفظع الطمع والجشع ، وكلنا يتربص بصاحبه الغفلة ليختله عما فى يده ، فلم نشكو من الظلم والارهاق

إننا لا نفعل ذلك الا لأنا نريد أن نستخدم الفضيلة فى أغراضنا ومآربنا كما كان يستخدم رجال الدين الدين فى الاعصر الماضية

يجب أن يتعلم الطفل من أول يوم يجلس فيه أمام مكتب مدرسته أن الموجود فى الحياة ، غير الموجود

فى الكتب ، وأن قصص الفضائل التى يقرؤها ونوادر المروءات والكرم والايثار ، وأحاديث الشهامة والشجاعة وعزة النفس وإبائها ، إنما هى روايات تاريخية قد مضت وانقضى عهدها ، حتى لا يصبح ناقماً على العالم يوم ينكشف له وجهه ، ويرى سوآته وعوراته . وحتى لا يضيع عليه عمره بين التجارب والاختبارات

وليت الذين يعرفون من شؤون الرذائل ودخائلها فوق ما أعلم يضعون للناشئ كتابا مدرسيا على نمط كتب التاريخ يوضحون لهم فيه كيف يكذب الناجر ، ويغش الصانع ، ويلفق المحامى ، ويدجّل الطبيب ، ويختلس المرابى ، ويرائى الفقيه ، ويصانع السياسى ، ويتقلب الصحافى ، ثم يقولون له هذه هى الحياة ، وهذا هو ما يجرى فيها ، فان أردتها على علاتها فذاك ، أولا ، فدونك مغارة موحشة فى قمة من قمم الجبال فعش فيها وحدك بعيداً عن العالم وما فيه ، وكل مما تأكل حشرات الارض ، واشرب مما تشرب منه ، حتى يوافيك أجلك

الشر لا يقاوَم الا بالشر ، والظلم لا يدفع الا بالظلم، وحامل السيف لا يغمده فى غمده الا أمام حامل سيف مثله ، والسيل الجارف لا يقف عن جريانه إلا إذا وجد فى وجهه سداً يعترض طريقه ، والظالم لا يَظلم إلا إذا وجد بين يديه ضعيفاً ،والمحتال لا يحتال إلا اذا وجد أمامه غبياً ، والناس لا يتحامون ولا يتحاجزون ولا يأمن بعضهم بأس بعض الا اذا برزوا جميعاً فى ميدان واحد ، يتقلدون سلاحا واحداً ، من نوع واحد

من أراد الفضيلة للفضيلة فسبيلها المقدس الشريف معروف لا ريبة فيه فليسلكه كما يشاء ، ومن أرادها على أن تكون وسيلة من وسائل العيش، فى عصر مثل هذا العصر، وناس مثل هذا الناس ، فليعلم أنه قد أخطأ الطريق ، وأضل السبيل

ما أجمل الفضيلة وما أعذب مذاقها وما أجمل العيش فى ظلالها لولا أن شرور الاشرار وويلاتهم قد حالت بيننا وبينها ، فرحمة الله عليها ، ووا أسفا على أيامها وعهودها.

الشيخوخة المتمردة

حدث منذ عهد قريب أن أحد الوجهاء الريفيين كان يختلف الى أسرة كريمة ليخطب اليها فتاة من فتياتها لابنه ، ثم اتفق له أن وقع نظره على تلك الفتاة عرضا فشغف بها حبًا وخطبها لنفسه ، فلم ير أهلها مانعاً من ان يزوجوها منه على تقدم سنه ، وإدبار أمره ، لانه أكثر من ابنه مالا ، وأوسع جاهاً وسلطاناً ، فكانت نتيجة ذلك أن هجر الابن منزل أبيه هجرة لارجعة له من بعدها ، لانه كان يحب الفتاة حباً جماً ، وأصاب الفتاةَ ذهول شديد لايزال ملازماً لها حتى اليوم ، وأصبح الشيخ حزيناً يائساً لانه أصبح بلا زوجة ولا ولد

سمعت بهذه الحادثة فتألمت لها كثيراً ، ثم قرأت حادثة أخرى وقعت فى فرنسا فى العام الماضى سأقصها عليك

لتوازن بين الحادثتين كما وازنت ، وتستنتج منهما ما استنتجت

فجعت سيدة اسمها « مارجريت بونفيل » بوفاة زوجها وهى فى الخامسة والثلاثين من عمرها ، وكانت امرأة بارعة الجمال ، رائعة الحسن ، لا يراها الرائى حتى يخيل اليه أنها الكوكب المشبوب رونقاً وبهاء ، وانها لا تزال فى مستهل العقد الثالث من عمرها ، فاستوحشت لوفاة زوجها استيحاشا شديداً ، وبدأت تختلف إلى بعض الاندية العامة علها تروّح عن نفسها وحشتها وكآبتها ، فاتصلت هناك بفتى من نبلاء الفتيان أعجبها منه جمال صورته وعذوبة أخلاقه وحلاوة سمره ورقة آدابه ، فأحبته وافتتنت به ، وأضمرت فى نفسها أن تتذرع بكل ما تعرف من الوسائل للزواج منه ، وان كان أصغر منها سنا بنحو عشر سنين . فلم تزل تتودد اليه ، وتستدنى قلبه ، حتى نزلت من نفسه المنزلة التى تريدها ، وكانت إذا جلست إليه للحديث معه يَرِدُ على لسانها كثيراً ذكرُ ابنتها التى

خلفتها من زوجها المتوفى ، فكان يخيل إليه أن تلك الابنة طفلة فى الخامسة أو السادسة من عمرها ، حتى زارها فى منزلها يوماً من الأيام فحمل معه لطفلتها هدية من اللعب التى يحبها الاطفال ويطربون لها ، فلما وقع نظر مرجريت عليه وعلى ما يحمل ضحكت وقالت ما هذا الذى تحمل ؟ قال إنها هدية لمارى أريد أن أقدمها إليها ؟ وأين هى فأرادت العبث به وقالت له إنك تجدها فى الجهة الشرقية من الحديقة على شاطىء الجدول ، فاذهب إليها وقدم لها هديتك بنفسك

فذهب حيث أشارت ، فراعه أنه لم يجد أمامه طفلة فى السادسة من عمرها كما كان يظن ، بل فتاة كاعباً رائعة الجمال فى السادسة عشرة ، فوقف أمامها موقف الحائر الذاهل لايدرى ماذا يفعل ، ولا ماذا يقول ، حتى رنّت من ورائه ضحكة مرجريت ، وكانت قد تبعته من حيث لايشعر فارفضّ جبينه عرقاً ، وتقدمت مرجريت نحو إبنتها وقالت لها أقدم لك يا مارى صديقى جورج الذى حضر اليوم

ليهديك حصاناً خشبيا ، جميلا ، فهل تحسنين ركوب الخيل الخشبية ؟ فابتسمت مارى وفهمت القصة ، فأثر فى نفسها خجل جورج وارتباكه ، فمشت إليه ووضعت يدها فى يده وقالت له أشكر لك هديتك ياسيدى ، وأتقبلها منك باغتباط وسرور ، وأعدك أنى سأحفظها لك عندى تذكاراً دائما لا أنساه ، فسرى عنه ما لحقه من الخجل ، وجلسوا جميعاً ، يتحدثون ويسمرون ، ومر لهم أطيب يوم مَرّ لاحدٍ حتى أظلهم الليل فاستأذن جورج وعاد إلى منزله

وأصبح بعد ذلك يختلف إلى منزل مرجريت لا من أجل الأم وحدها ، بل من أجل الأم والبنت . حتى حضر صباح أحد الأيام . وكانت الأم قد خرجت لبعض شأنها ، فوجد مارى وحدها ، فشعر فى نفسه بشىء من الارتياح لم يكن يشعر بمثله من قبل ، وكأنه كان يتمنى أن يجدها خالية فوجدها ، وكانت جالسة على شاطىء الجدول فى المكان الذى رآها فيه أول ما رآها ، فجلسا معاً يتحدثان حديثاً طويلا

ذهبا فيه مذاهب مختلفة ، حتى أشرفا على ذلك المورد العذب من حديث الحب ، فوَرَدَاه ، فإذا كل منهما يضمر لصاحبه من الوجد فوق ما تضمر الأفئدة والقلوب ، وإنهما لمضطجعان وجهاً لوجه على ذلك البساط الأخضر الجميل ضِجعةً يتمنى المصور أن يراها فيرسمها فيرسم فيها صورة السعادة الكاملة التي يفتش عنها الناس جميعاً فلا يجدونها ، إذ وقفت بهما الأم من حيث لا يشعران ، فرابها منظرهما ، وخيل إليها أنهما يتحدثان في شأن غير الشأن الذي يأخذان فيه عادة أمامها ، فأصغت إليهما فألمت بطرف من حديثهما ، فدارت بها الأرض الفضاء دورة كادت تصعق فيها ، وتمثل لها أن صرح حياتها الشامخ العظيم قد خرّ بين يديها دفعة واحدة فثارت من حولها غبرة قاتمة حجبت عن عينها كل شيء فاملّستْ من مكانها املّاساً ومشت تتحامل على نفسها حتى وصلت إلى غرفتها فتهافتت على فراشها وبكت ما شاء الله أن تفعل حتى هدأ بعض ما بها ، فمسحت عبرتها بيدها فإذا المرآةُ أمامها ، وإذا شعراتٌ بيض سانحات

فى رأسها تهتف بها أن قد انقضى عصر شبابك أو كاد ، وقد خطوتِ الخطوات الأولى إلى شيخوختك ، فأخلى مكانك لابنتك ، فهى أولى به منك ، وحسبك من السعادة أن تفرحى لفرحها ، وتهنئى لهنائها ، واعلمى أن للطبيعة حكما قاسياً لا يختلف عليه مختلف ، ولا يتمرد عليه متمرد ، إلا هلك
ومرت بها على حالتها تلك ساعة كانت عواطف قلبها ونوازعه تعترك فيها اعتراكا ، وكان يميل بها الميزان نحو نفسها مرة ، فتثور ثائرتها ، وتأبى إلا أن تتمتع بالحياة الطيبة كما يتمتع بها أمثالها ، ونحو ابنتها أخرى ، فتلين عريكتها ، ويسلس قيادها وتقول فى نفسها إنها أولى به منى ، لأنه خُلق لها وخُلقت له حتى غلبت نزعة الخير فيها على نزعة الشر ، فخرجت من غرفتها باسمة متطلّقة حتى وصلت إلى مكانهما ، فرأتهما مستغرقين فى شأنهما الذى كانا فيه لا يشعران بشىء مما حولهما ، فصاحت بهما : أأنتما هنا ياولدىّ ، فاضطربا إذ رأياها ، فابتسمت لهما ووضعت يدها فى أيديهما وعادت بهما إلى غرفتها ، وجلست

تتحدث إليهما حديثاً طويلا انتهى بعقد الخطبة بينهما ، وما هى إلا أشهر قلائل حتى زفت اليه ، وولدت لهما بعد عام واحد طفلة كان نصيبها ذلك الحصان الخشبى الذى أهداه أبوها لأمها منذ عامين حين ظن أنها طفلة فى السادسة من عمرها

وكانت قد بقيت بقية من مرارة الألم فى أعماق قلب مرجريت لم تزل تتضاءل شيئاً فشيئاً حتى رنّ فى أذنها يوماً من الأيام صوت حفيدتها تدعوها « جدتى » فكان هذا آخر عهدها بها

وكذلك استطاعت مرجريت أن تعيش بعد ذلك سعيدة هانئة فى ظل سعادة ابنتها وهنائها

ذلك ما فعل الرجل فى السبعين من عمره ، وهو يخطو الى القبر خطوات حثيثة ، وهذا ما فعلت المرأة وهى نصَفٌ لا إلى الشيخوخة ولا إلى الشباب ، فجوزى هو على تمرده على الطبيعة ، وخروجه عن سنتها شر الجزاء ، وجوزيت هى على تعلقها ورزانتها ، وتأدبها بأدب الحياة ، أحسن الجزاء

عجائز بوشنج

القاعدة المطردة فى هذا البلد أن الرجل إذا ابتسم له دهره من الأيام فنقله من أرض الخصاصة والفقر ، إلى سماء الثروة والغنى ، بنى بينه وبين ماضيه سداً محكما لا تنال منه المعاول ، ولا تعصف به العواصف ، ثم ألقى وراء ذلك السد جميع متعلقات ذلك الماضى ، زيّه وهيأته ، ولغته ، ولهجته ، ومناخه ومسكنه ، وعاداته وأخلاقه ، وأصحابه ، وعشراءه ، وجميع صلاته وعلائقه ، ولو استطاع أن يلقى بالأثرين الوحيدين الباقيين له ، صورته وإسمه لفعل

يريد أنه قد أصبح إنساناً غير ذلك الإنسان الأول ، لاصلة له به ، ولا شأن له معه ، وأنه قد خلق خلقاً جديداً

إنها لخلة رديئة جداً ما رأيت فى الخلال أقبح منها

إنه يفعل ذلك لأنه يعتقد أن الفقر عيب وعار ، والفقرُ

ليس بعيب ولا عار ، فان كان لا بد له أن يرى ذلك فليعلم أنه قد قضى على أبويه وأهله وعشيرته وأصدقائه ، بل على السواد الأعظم من أمته ، بل على نفسه أيضاً ، لأنه قضى عصر شبابه ، والشبابُ هو الحياة من مبدئها إلى منتهاها . فى الفقر والخصاصة ، والعُدم والاقلال

ولا أدرى ما ذا يكون شأنه غداً إذا استرد الدهر هبته منه ، وكثيراً ما يسترد الدهر هباته وعطاياه ، بل لا يكاد يهب هبة ، أو يمنح منحة ، حتى يستردها

عَذَرته فى ثوبه الذى خلعه ، وقلت قد لبس لكل حالة لبوسها ، وفى داره التى هجرها ، وقلت لابد أن يكون هنالك فرق بين حياة السعة وحياة الضيق ، وفى لهجته التى غيرها ، لأنه يعيش فى قوم غير القوم الذين كان يعيش فيهم وفى خده الذى صعره ، وصدره الذى أبرزه ، وأنفه الذى شمخ به . لأن للثروة طغياناً كطغيان الشراب ، لاسبيل إلى دفعه والخلاص منه ، ولكننى لا أستطيع بحال من الأحوال أن

أعذره فى زوجه التى طلقها واستبدل بها سواها

إنها رفيقة حياته ، وعشيرة صباه ، وشريكته فى سرائه وضرائه ، ويسره وعسره ، وشبعه وجوعه ، وريه وظمئه ، وأحسب أنها كانت إذا خلت بنفسها وخلا لها وجه السماء بسطت يديها بالدعاء إلى الله تعالى أن يبدل عسره يسراً ، وضيقه سعة ، وشدته رخاء ، فليس من الرأى ولا من الوفاء أن يخلعها فيما يخلع من أثوابه وأرديته ، وان يلقيها وراء ذلك السد كما يلقى نعله واداته

إنها شاركته فى شدته ، فيجب ان تشاركه فى رخائه ، واحتمالته والدهر مدبر عنه ، فيجب ان يحتملها والدهر مقبل عليه ، وأقرضته الصبر على عشرته ، فيجب أن يوفيها الصبر على عشرتها ، إن كان يرى أنها عبء ثقيل عليه

أيريد ان يتمنى النساء جميعاً لازواجهن دوام الفقر والفاقة حتى لايستبدلوا بهن يوم يجدون السبيل إلى ذلك ؟

إنهن يتمنين ذلك فعلا ، بل يسعين له سعيهن ، لأنهن

يجدن الأمان على أنفسهن فى ضاحية الفقر ، أكثر مما يجدنه فى ظلال الغنى ، فياللفظاعة والهول ! ويا للمعيشة النكدة المريرة ! وياللشقاء الذى يهدد الحياة الزوجية وينذرها بالمحو والفناء :

حدثنى من أثق به انه دعى إلى وليمة أقامها أحد أولئك الحديثى النعمة فلما قضوا ليلتهم وانصرفوا لفت نظرهم منظر امرأة بائسة واقفة تحت جدار البيت تتحدث الى بعض الناس وتقول لهم : إنها سيدة هذا البيت بالأمس ، وإن زوجها طلقها وطردها هى وطفلها الصغير فى اليوم الذى أنعم الله فيه عليه بنعمة الغنى ، وليته صنع بها ما يصنع الكريم بأهله ، فكفاها مؤونة العيش، وحماها عادية الشقاء ، بل تركها فى قريتها وحيدة منقطعة ، لا يعود عليها بقليل من المال ولا بكثير ، ولا ذنب لها ولا لولدها عنده سوى انه أصبح ذا زوجة جديدة ، وولد جديد ، وقالت إنها تحاول منذ ساعتين أن تدخل المنزل لتقابله وتسأله المعونة والمساعدة فيمنعها الخدم

انه لموقف مؤلم جداً أن تقف امرأة على باب البيت الذى كانت سيدته بالأمس موقف السائل المنكفف فلا تجد من يمنحها ما يمنح السائلين المتكففين

لا يجد المرء لذة الطعام الا اذا ذكر الجوع ، ولا لذة الماء الا اذا ذكر الظمأ ، ولا لذة السعادة الا اذا تمثل أمام عينيه عهد الشقاء ، فما أحوجه اذا انتقل من عذاب الفقر الى نعيم الغنى الى أصدقاءِ عهده الأول وعشرائه ، ليجلس اليهم من حين الى حين ، ويتحدث معهم عن ماضيه وحاضره ، فيشعر بلذة الانتقال من حال الى حال ، وما أحوجه إلى زوجه التى قضى معها عهد شقائه ، أن تبقى معه فى عهد سعادته ، ليرى فى مرآة وجهها صورتيه القديمة والحديثة فيعلم حين يقارن بينهما أن فضل الله عليه كان عظيما

وتعجبنى كثيراً قصة خالد بن برمك جد البرامكة وكان رجلا أعجمياً من قرية من قرى فارس اسمها « بوشنج » وفد إلى بغداد وحظى عند الخليفة فولاه الوزارة فلما ركب

فى الموكب الذى اعتاد أن يركب فيه الوزراء يوم العهد اليهم بذلك المنصب العظيم ، وقف الناس له صفوفا على جانبي الطريق ، وأطل عليه النساء من نوافذ الدور والقصور ، وهو مطرق واجم ، فقال له أحد أصدقائه وكان يسير بجانبه ، ألا ترى هؤلاء النساء الجميلات المشرفات عليك من نوافذ قصورهن ؟ قال نعم أراهن ولكننى كنت أفضل أن أرى بدلا منهم عجائز « بوشنج »

أى انه كان يتمنى أن العيون التى رأته بالأمس وهو وضيع ، تراه اليوم وهو رفيع

* * *

الاجواء

مازلت مذ حدثت تلك الحادثة الكبرى التي رجف لها قلب مصر، وسال لها دموع الفضيلة حزنا وأسى، وتحدث المتحدثون عن أولئك الفتيات الساقطات اللواتى يعشن فى تلك السجون العميقة التي يسمونها بيوتا عيش البؤس والفاقة ؛ أعجب لهن ولأمرهن ، وأقول فى نفسى ليت شعرى لم يرضين لأنفسهن هذه الحياة الشقية النكدة التي لا يجدن فيها علالة من العيش يتعللن بها عما فقدن من شرفهن وكرامتهن ، ولم يصطبرن على ظلم ذلك الرجل الجبار الذى يستبد بهن، ويستأثر بجميع شؤونهن ومصالحهن ، ويسوقهن بين يديه سوق الراعى ماشيته ، ولم لا يهربن من وجهه ويذهبن فى مذاهب الأرض حيث شئن ، يطلبن لأنفسهن الحياة فى جو حر مطلق ، والأجواء الحرة المطلقة كثيرة ، وأسباب العيش فيها متنوعة ،

ـما على وجه الأرض جو أسوأ من جوهن الذى يمشن
ـيه فيخفن أن يصرن اليه ، ولم أصدق ما يقوله بعض الناس
ـى تأويل ذلك من أن ذلك الرجل الجبار قد ضرب حولهن
ـطاقا من بأسه وقوته فلا سبيل لهن الى اختراقه ففى البلد
ـحكومة نظامية لاتسمح بقيام حكومة أخرى بجانبها ،
و أنه وضع فى أعناقهن أغلالا من الديون وليس فى وسعهن
ـن يبرحن مكانهن حتى يؤدينها فان من لايبالى بحق الله
ـلاحق عرضه لايبالى بحقوق الناس ، ولم أزل فى حيرتى هذه
ـحتى قرأت بالأمس قصة وقفت منها على سر هـذا الخلق
ـالغريب فى النساء فأنا أروى لك خلاصتها لتقف منها على
ـمثل ما وقفت

***

توفيت زوج أحد الدوقات العظام فى فرنسا فحزن عليها
حزناً شديداً لانها كانت أحب اليه من نفسه التى بين جنبيه ،
فكان يروح عن نفسه بالاختلاف الى الأندية الخاصة

والعامة حتى ملها وسئمها ، فمر بخاطره يوماً من الأيام أن يزور حى « مونمارتر » وهو القرارة التى تنصبّ فيها جميع قاذورات باريس الاجتماعية وفضلاتها ، فظل سائراً بمركبته يستطرق من زقاق الى زقاق ومن معبر الى معبر حتى وقف بباب حانٍ فى زقاق مظلم مهجور سمع من داخله ضوضاءَ عظيمة تكاد تتصدع لها أركانه ، فانحدر اليه وأطل من بابه فوقع نظره على طوائف كثيرة من الصنّاع والعمال والغوغاء والمتبطّلين والمتشردين وأشباه اللصوص والمجرمين ، ما بين قائم وقاعد ، وصائح وهاتف ، وممسك قدحه بيده يجرع منه الجرعات الكبار ويصرخ صراخ المجانين ، ولابطٍ بالارض قد بلغ منه السكر مبلغه فكبّه على وجهه ، وراقصٍ يوقع حركات قدميه على نغمة شبّابة ينفخ فيها آخر ، وقد عقدت الأبخرة المتصاعدة فى سماء الحان سحباً متكاثفة يرى الرائى من خلالها بعد لأْىٍ مائدة خشبية مستديرة فى وسط المكان ترقص عليها فتاة بائسة عارية الثياب الا قليلا ،

وتنثر على الناس نُثارات من الورق الرقيق الملون ، والناسُ من حولها طائرون بها فرحاً ، يداورونها ، ويعابثونها ، ويخاطبونها بأقبح ما خاطب به أحدٌ أحداً ، وربما مد بعضهم اليها يده فجذبها من ثوبها جذباً شديداً حتى يكاد يَزلِقها من مكانها ، أو دفعها فى صدرها بعصاه فآلمها ، وهى تبتسم مرة ، وتقطب أخرى ، فلم يدر الرجل أهو فى مارستان من مارستانات المجانين ، أم فى حظيرة من حظائر الوحوش الضارية ، ولكنه رأى على كل حال منظراً غريباً لم ير مثله قط فأعجبه وسكن اليه ، وكذلك الملول يعجبه كل ما يطرد عن نفسه عادية الملل ، ولو كان منظر الجحيم ، فانتبذ فى الحال مكاناً قصياً ، وجلس الى مائدة منفردة ، وألقَى نظره على تلك الفتاة الراقصة فاذا هى رائعة الجمال ، إلا انه جمال مبعثر مذال ، كما يعثر العاثر باللؤلؤة الثمينة بين القمامات المجتمعة ، فلم يزل ناظراً اليها لا يُقلع حتى فرغت من رقصها ، ونزلت تدور بعينيها عليها تجد مَن يدعوها الى لقمة تسدُّ جوعتها ، أو كأس تَبل

بها غلتها ، حتى مرت على مقربة من الدوق فدعاها للجلوس معه ، فاستطيرت فرحا وسروراً ، لانها لم تر قبل اليوم زائرا مثله فى فخامة هيئته ، وجلال منظره ، وأخذ يتحدث اليها ويسائلها عن نفسها ، فعلم أنها تكابد أشد ما كابد امرؤٌ قط فى حياته من بؤس وشقاء ، وقد سمع فى صوتها نغمةً تختلف بعض الاختلاف عن تلك النغمة الفاجرة الوقحة التى يسمعها السامعون من أفواه النساء الفاجرات ، فوقع فى نفسه أنه إن أنقذ تلك الفتاة المسكينة المتألمة من بؤسها وشقائها فقد أحسن اليها وإلى الانسانية إحسانًا عظيما ، فسألها ألها بأحد من الناس صلةٌ من زواج أو مخالةٍ ، فأطرقت برأسها وأجابت أن لا ، فعرض عليها رأيه الذى رآه لها ، فاستطارت به فرحاً وسروراً ، وما هى الا ساعة أو بعض ساعة حتى كانت بجانبه فى مركبته فسار بها إلى منزله

وهنالك تغير من شأنها كل شىء ، فأصبحت تلك الفتاةُ البائسة المسكينة الضاوية الصفراء ذات الاسمال البالية ،

والقبعة القذرة ، والحذاء المرقع ، سيدة فخمة يتلألأ وجهها بنور العزة والكرامة ، وتسيل على أعطافها مخائل النعمة والرفاهة ، حتى ظن كثير من الناس أنها من ذوات الشأن في الحياة ، وان الدوق يوشك أن يتزوج منها

وكان الدوق يعيش وحده في قصره لا يعاشره الا خدمه ، ولا يختلف إليه إلا القليل من أصدقائه القدماء من حين الى حين ، لأنه كان منقطعاً لا زوج له ولا ولد ، ولا قريب ولا نسيب ، فكانت « مارسيل » مِلهاتَه التي يتلهى بها في وحدته ، وأنسه الذي يأنس به في وحشته ، وكانت هي سيدة المنزل والآمرة الناهية فيه لا ينازعها في ذلك منازع . وظل الأمر بينهما على ذلك شهوراً عدة

وكانا يخرجان أصيل كل يوم في مركبتهما الى ضاحية المدينة يرتاضان في غاباتها وبساتينها ساعة أو ساعتين ثم يعودان ، فانهما لعائدان ليلة من الليالي من متنزههما اذ مرت بهما المركبة على مقربة من حي « مونمارتر » فاقترحت عليه

«مارسيل» أن يمرا بذلك الحي ليلهوا بمناظره الغريبة، ومشاهده العجيبة ، فأذعن لرغبتها ، وظلا سائرين يخترقان شوارعه وأزقته حتى بلغا الخان الذي وجدها فيه ، فطلبت اليه أن يأذن لها بدخوله لترى ماحل بأصحابه وزائريه من بعدها ،فلم ير في ذلك بأسا ، ودخل معها ، فوجداه على هيئته التي تركاه عليها ، واتجها الى بعض الموائد المنفردة فجلسا اليها ، فما وقع نظر الناس على مارسيل حتى هاجوا هياجا عظيما ، وهتفوا لها هتافاً شديداً ، وأقبلوا عليها يحيونها ويعتنقونها ، وهي تبسم لهم ، وتعطف عليهم ، وتطرب لنغمات أحاديثهم الوحشية المزعجة ، ثم لم يلبثوا أن جذبوها من مكانها ، وأصعدوها الى المائدة لترقص لهم ، فكأنما ثارت في نفسها ثائرة الطرب القديم ، فرقصت وافتنت في رقصها ما شاءت ، حتى أتمت دورها ، ثم نزلت وودعتهم وداعا لطيفاً وانصرفت هي والدوق

وهنا بدأت تشعر بملال شديد من حياتها الحاضرة التي تحياها في قصر الدوق ، حتى أصبح يخيل اليها ان هذا القصر

الذى تعيش فيه انما هو سجن ، وأن هذا الرجل الذى يحبها ويكرمها وينزل على حكمها فى جميع ما تحب وتشتهى انما هو سجانها ، وأن هذا السكون الذى يحيط بها انما هو سكون الموت الذى يخيم فى فضاء القبور ، فكانت اذا خلت بنفسها تراءى لها فى فضاء خيالها منظرُ الحان ومنظرُ زائريه وموقفُها فوق المائدة الخشبية بين جماعة الاشرار والغوغاء وهم يجاذبونها ثوبها ، ويشدون يدها ، ويصبون عليها فضلات كؤوسهم ، فتطرب لتلك الحياة الهائجة الثائرة ، وتحن اليها حنين العاشق المفارق ، ولم تزل هذه الفكرة تنمو فى نفسها شيئاً فشيئاً حتى أخذت مكانها من قلبها ، فعزمت على الفرار بنفسها والعودة الى عيشتها الأولى ، فنهضت من فراشها ذات ليلة والقصر ساكن هادىء قد هجع كل من فيه ، فخلعت أثوابها وحلاها وألقتها على بعض المقاعد ، وارتدت بدلا منها أثوابها الاولى التى جاءت بها ، وكانت لا تزال ملقاة فى بعض الغرف ، وتسللت من باب القصر من حيث لا يشعر أحد

بمكانها ، وأخذت سبيلها الى حى مونمارتر

وهكذا قضى عليها أن تشقى ، بل هى التى قضت بنفسها على نفسها

ولقد كان أسف الرجل عظيما جداً حينما تفقدها فى صباح اليوم الثانى فلم يجدها ، خصوصاً عند ما رأى ثيابها وحلاها ملقاة على بعض المقاعد وعلم أنها هى التى آثرت الفرار واختارته لنفسها ، فبكاها كثيراً ، وعادت له وحشته التى كان يعالجها من قبل

ومر على ذلك عام وبعض عام ، وبينما هو مقبل على قصره فى ليلة من الليالى إذ لمح على عتبة الباب امرأة مسكينة تئن وتتوجع ، وتحاول أن تمد يدها إلى حلقة الباب لتطرقه فلا تستطيع ، فدنا منها ليتبينها فاذا هى مارسيل ، أو هى شبح متهافت باق منها ، فلما أحست به مدت ذراعيها اليه وقالت له بصوت خافت ضعيف : اغفر لى ذنبي يامولاى ، فدهش لمنظرها دهشة شديدة ، ورق لحالتها ، فأمر الخدم بحملها الى القصر ،

فحملوها الى غرفتها التى كانت تنام فيها ، وهى فى حالة من البؤس والشقاء تذيب الاكباد ، وتستذرف الدموع ، ثم جلس اليها يسائلها عن شأنها ، فقالت انها مريضة مدنفة منذ شهور عدة ، وانها قد عجزت عن أن تجد سبيلا الى علاجها من دائها لفقرها وفاقتها ، فما زال المرض يأخذ منها مأخذه حتى مزق صدرها تمزيقاً ، فلم تجد بداً من أن تأتيَ اليه لتستغفره من ذنبها وتسأله أن يعينها على أمرها ، لأنها لاتعرف فى الدنيا لها راحما سواه ، فسألها لمَ فرت من قصره ، وما الذى كانت تنقمه منه فقالت لاأعلم ، وانما هو قدر قدره الله ، ولا حيلة لامرىء فيما قدره وقضاه ، فسألها أين كانت تعيش بعد فرارها ؟ قالت فى المكان الذى أنقذْتَني منه ، فأبيتُ لشقوتى وبلائى الا أن أعود اليه لتنفذ فىّ ارادة الله ، فرثى لحالها . وأمر باستدعاء الطبيب لينظر فى أمرها ، فلم يستطع الطبيب أن يصنع شيئاً ، لأنه جاء بعد الاوان ، وما أصبح الصباح حتى

صعدت روحها الى خالقها ،وخلفت للدوق حسرة فوق حسرته الاولى بوفاة زوجته ، فلم ينتفع بحياته طويلا بعد ذلك

لكل جو من الاجواء رائحة خاصة به يألفها أصحابه ويستنيمون اليها ، فحولوا أيها الرجال بين نسائكم وبين تلك الأجواء الخبيثة ، ولا تقولوا إنهن سيجزعن منها ويهجرنها حين يستنشقن رائحتها ، فالرائحة الخبيثة لا يتألم منها الا البعيد عنها

الرسائل

كتاب فى التقاضى

أنا إن سألتك حاجتى أعزك الله ، وبسطت إليك يد رجائى ، فقد طرقتُ باب المكارم ، واستمطرتُ غيث المراحم ، ورجوت واحد الدهر همة وحزماً ، ونادرة الوجود كرماً وفضلا ، فان أنجزتَها فليست أُولى الهمم ، ولا واحدة النعم ، فلكم سبقتْ الىّ منك أيادٍ تَخرس دونها ألسنة الشكر ، وتضيق بها جرائد الحصر ، ولقد مثلتُ أيدك الله بين أن أستشفع اليك بذوى الجاه عندك ، والزلفى لديك ، وبين أن أكل ذلك الى كرمك وفضلك ، وما طبعت عليه نفسك الشريفة من خلال الخير ، وسجايا البر ، فرأيت أن الثانية بك أحرى ، وبفضلك أجدر ، والسلام

كتاب مقاطعة

أتانى كتابك وقد أبللتُ من مرض حبك ، وصحوت

من رقدةٍ طال عليّ الغيب فيها حتى خفت أن تتصل برقدة الموت ، فلم ترُعني روائعك [١] ، ولا أجدى عندي اعتذارك ، ولا أخذ حديثك من قلبي مأخذه من قبل ، ولم أر بين سطورك ذلك النور الذي كان يملأ عيني روعة [٢] ، وقلبي هيبة ، فالحمد لله الذي أدالني منك ، وأعتقني من رقك ، وكشف لي من مكنونك ما كشف غشاء الهوى عن بصري ، فجفت الدموع التي طالما أذَلتها [٣] بين يديك ، وقرت العين التي كنت أساهر بها الكوكب شوقاً اليك ، ولم يبق في خاطري من ذكرك إلا كما بقي في قلوب الناس من الوفاء ، والحب شجرة يغرسها الامل في القلب ، ثم يغذوها بمائه وهوائه ، فلا تزال تشتجر أغصانها ، وترفّ [٤] ظلالها ، وترن أطيارها ، حتى يعصف بها عاصف من اليأس فتموت ، ولقد عالجت هـذا القلب الشَموس [٥]

(١) اى لم تسحى محاسنك (٢) الروعه المسحه من الجمال (٣) ادلها اهتها
(٤) رف النبات اهتز واضطرب (٥) شمس امتنع وابى

فى الرجوع الى سالف عهدك ، وسابق ودك ، فجمح جموح المهر الارنِ (١) وركب رأسه إلى حيث لامطمع فى أوبته ، وله العتبى فيما فعل ، فقد ملكنى قياده برهة من الزمان فأسأتُ عشرته ، وخفرت ذمته ، وأرغمت معطسه ، وركبت به فى سبيلك أخشن مركب ، وأنهلته من جفائك وكبريائك شر منهل ، فما هو الا أن أمكنته الغِرة فانطلق انطلاق السجين من سجنه ، والطائر من قفصه ، فلا أوبة حتّى يؤوب القارظان ، ويَبلى الجديدان

إذا انصرفت نفسى عن الشىء لم تكد
اليـه بوجه آخر الدهر تقبـل

كتاب تهكم

علمت أن ساسانياً (٢) طرق بابك بالامس ، وما زال يكيد لك ويماحلك ، ويتغلغل فى مواضع الضعف من قلبك ، حتّى خدعك عن نفسك ، واقتطف زهرة من

(١) المهر الارن النشيط (٢) النسبة الى ساسان وهو رجل كان معروفا بالفقر والبصر والاحتيال على الصدقات

روضة مالاك ، وراح يفتر عن ثغر باسم ، ورحت تقرع سن نادم ، فما هذا الخلق الغريب الذى تخلقتَه ، وما هـذا المذهب الجديد الذى اعتنقته ، ومتى أقامك آدم وصيا على أولاده من بعـده ، تكسو عاريهم ، وتشبع جائعهم ، على أن الفقراء فى الدنيا كثير قد ضاقت بهـم خزائن الأرض والسماء فـكيف تسعهم خزائنك ، وهـل بين الدرهم الذى أعطيت ، والدراهم التى أبقيت ، إلا حرف واحد [(1)] ، فليت شعرى من أين دُهيت ، ومن أى باب نفذ هذا الشيطان الى قلبك ، وإن أخوَف ما أخاف عليك أن تـكون أُتيت من باب الخدعة الشيطانية التى يسمونها الرحمة ، فان كانت هى فالخطب عظيم ، والبـلاء جسيم ، فانك حيثما ذهبت ، وأنى حللت ، لاتقع عينك الا على يد شلاء ، ورجل بتراء ، وعين عمياء ، وصورة شوهاء ، وثوب مخرق ، وشلو ممزق ؛

---

(1) يشير الى ان الفرق بين مفرد الدراهم وجمعه حرف واحد وهو الالف اللينة فى الجمع . ويريد بذلك تعظيم شأن الدرهم وانه لايستهان به لان الدراهم وان كثرت فهى ليست الا درهما على درهم

وطريح على التراب سقيم ، وجسم أعرى من أديم ، فان لم تفارق الرحمة قلبك ، فارق المال جيبك ، فطفت مع الطائفين ، وتسولت مع المتسولين ، ثم لاتجد لك راحماً ولا معيناً ، فارحم نفسك قبل أن ترحم سواك ، ولا تنس أن تردد فى صباحك ومسائك ، وفى مستأنف خطواتك ، وفى أعقاب صلواتك ، كلمة ابن الزيات « الرحمة خور فى الطبيعة »

وعلمت أنك دعيت إلى وليمة فلان فتحلّب لها فوك ، ورقصت لها أشداقك ، فطرت اليها ، ثم وقعت على خبزها وشوائها ، وفاكهتها وحلوائها ، مثلج الصدر ، ثابت القدم ، ساكن القلب ، طيب النفس ، كانك لاتعلم أنها لذة الساعة ، ومرارة العمر ، وشبع اليوم ، وجوع الابد ، وأنك إنما طعمت ما فى الحِبالة من الحب ، تأكله اليوم ليأكلك غداً ، فمن لك بالنجاة من مضيفك إذا جاءك يوماً يتقاضاك دينه، وقد حفت به كوكبة من خلانه وصحبه ، فطار لمرآه لبك ، وتمشى له قلبك فى صدرك ، وخيرك بين لحم شاتك ولحمك ، فالفقر إن منحت،

والعار إن منعت ، وأعجب من ذلك أنك ما برحت الوليمة حتى أخذ المغنى مجلسه ، فسمعت وطربت ، ومن طرب شرب ، ومن شرب وهب ، ومن وهب خرب ، ولقد كان لك فى انزوائك واعتزالك ، واكتفائك بقرصك وزيتك ، وخلوتك بصندوقك فى كِسر بيتك ، من حيث لا تزور ولا تزار مَنادحُ عن هذه اللقمة التى أسهرت ليلك ، وأقضت مضجعك ، وأقعدتك على مثل رَوق الظبى خيفة وحذاراً ، فاياك والعود الى مثلها يطلْ غمك ، ويسودَّ عيشك، والسلام

كتاب يأس

كتابى الى سيدى ومولاى والنفس بين جنة من الأمل تَغِنُّ أشجارها ، وترنّ أطيارها ، وتشتجر أغصانها ، وتعتنق غدرانها ، وهاجرة من اليأس تتلظى نارها ، ويعتلج أُوارها ، وتحول بين الجفون واغتماضها ، والجنوب ومضاجعها ، والقلب يهبط به الخوف فيتمشى بين الاضالع مِشية الطائر الحذر ، ثم يدركه الأمن فيقر فى مستقره ، قرار الماء فى نهاية

نحدره ، وحالى كحال هذه الدنيا تضطرب مابين فرح وهم ، وسرور وحزن ، وقبض وبسط ، ومد وجزر ، أذكر الله ورحمتـه وإحسانه ، ورأفته وحنانه ، فيشرق لى من خلال ذكراه وجه الحياة الناضر ، وثغرها البارق ، وجمالها الساطع ، وبشرها الضاحك ، ثم أذكر الدهر وصروفه ، والعيش وحتوفه ، والأيام وما أعدت فى طياتها لبنيها من عثرات ، فى الخطوات ، ونكبات ، فى الغـدوات والروحات ، وما أخذته من العهد على نفسها من الوقوف بين النفوس وآمالها ، والقلوب وأمانيها ، فألمس صدرى بيدى لأعـلم أين مكان قلبى من أضالعى ، ثم أثنى على كبدى من خشيةٍ أن تَصدعا ، فليت الله يصنع لى فيمطر على قطرة واحدة من غيوث رحمته واحسانه أبل بها غلتى ، وأطفئ بها لوعتى ، أو ليت القدر ينشب أظافره بين سَحرى (١) ونحرى نشوباً لا يستبقى بعـده عرقاً نابضاً ، ولا نفَساً متردداً ، فيستخلصنى من

(١) السحر الرئة

موقف أنا فيه كالمريض المشرف ، لاهو حى فيرجى ، ولا ميت فيبكى

يقولون ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل ، وأقول ما عذب الله عباده بنازلة القضاء ، وصاعقة العذاب ، وطاغية الطوفان . والزلزال الأكبر ، والموت الأحمر ، والخوف من الجوع ، والنقص فى الأموال والأنفس والثمرات ، بمثل ماعذبهم بالأمل الباطل ، وما ليلة نابغية ضرير نجمها ، حالك ظلامها ، يبيت منها صاحبها على مثل رَوق الظبي خيفة وحذاراً ، فوق أرض تعزف جِنّانها [1] : وتحوم عقبانها ، وتزأر سباعها ، وتعوى ذئابها ، وتحت سماء تتهاوى نجومها ، وتتوالى رجومها ، وتتراكم غيومها ، بأسوأ فى نفسه أثراً من رجاء كاذب يتردد بين جنبيه . تردد الغصة بين لحييه ، لاهى نازلة فيطعمها ، ولا صاعدة فيقذفها

قد أصبحت أحسد الوحوش الهائمة على وجوهها

(١) جمع جان

فى بطون الأودية ، وقنن الجبال ، أن أراها ساربة فى مساربها ، سارحة فى مسارحها ، تتناول رزقها رغداً من بوارق المصادفات ، ومفاجآت المقادير ، لا يعنيها الأسف على فائت من العيش ، ولا يقلقها الطمع فى آت من الرزق ، قد قنعت من الماء بالكدر ، ومن العيش بالجشب [1] ، فتساوى لديها شحمها ولحمها ، وشيحها وقيصومها ، وسعدها ونحسها ، ونعيمها وبؤسها ، فما تحفل بنوازل القضاء ، ولا رجوم السماء ، ولا تبالى أسقطت على الموت أم سقط الموت عليها

فمن لى بهذا العيش من عيش مَثَلى فيه كمثل رجل زلت به قدمه فسقط فى جوف بئر بعيد غورها ، ناء مكانها ، فما زال يتخبط ويضطرب ، ويهب ويثب ، حتى عثر بمرقاة علقت رجله بها ، ثم تلمس أخرى غيرها فما وجدها ، حتى بلغ منه الجهد أو كاد ، فلم يصبر على الثانية صبره على الأولى ، فسقط ، فخاف الغرق ، فعاد إلى تلمسه ، فعاد إلى سقوطه ، فلا هو

(١) الجشب الخشن من الطعام

بالغ رأسَ البئر فينجو من الموت ، ولا هو بالغ قرارة الماء ، فينجو من الشقاء

إرم بطرفك حيث شئت من الناس هل تبصر إلا صريعاً صرعه أمله ، أو قتيلا قتله رجاؤه ، أو صديقاً يشكو غدر صديق كان يعده لنوائب الدهر فأصبح عونَ النوائب عليـه ، أو باكياً يبكي وليـداً كان يرجوه لمستقبل دهره ففجعته الأيام فيـه ، أو ساعياً دائباً وراء غاية يطلبهـا من الدهر فلا يقرب منها حتى يبتعد عنها ، ولا يمسك بها حتى تفلت من يده ، أو ساهراً متململا لولا أمله أن تنيله الأيام ما يشتهيه من هواه ما بات ليله شاكياً باكياً ، داعياً مناجياً ، لا تراه إلا عين السماء ، ولا تسمعه إلا أذن الجوزاء

هذه حالي ، وذلك همي ، وهذا ما وسوس لي أن أعتزل الناس جميعا ، وأفارق عشيرتي وصحبتي ، ويراعي ومحبرتي ، علني أجد في البعد عن مثارات الأماني ، ومباعث الآمال ، راحة اليأس ، فاليأس خير دواء ، لأمراض الرجاء

فهاأنذا قابع فى كسر بيتى لامؤنس لى إلا وحشتى، ولا أنيس إلا وحدتى، أتخيل البيت قبراً، والثوب كفناً، والوحشة وحشة المقبورين فى مقابرهم، لأعالج نفسى على نسيان الحياة، وأمانيها الباطلة، ومطامعها الكاذبة، حتى يبلغ الكتاب أجله، وهذا آخر عهدى بك وبغيرك، والسلام

*

الكلمات

الجرائد

لاأرى الصحف فى مصر إلا نادياً من أندية القمار ،ولا هؤلاء الكتاب إلا جماعة من اللاعبين ، قد وضعوا رؤوس المصريين على مائدة اللعب كما توضع الأكر على طاولة « البليار » ، ثم داروا حولها يلعبون بها ويتدافعونها، فيكسبها فى الصباح « زيد » ويخسرها فى المساء « عمرو » ، وربما لا يأتى آخر الليل حتى يدور النحس دورته عليهم جميعاً ، فيخسرها الكل ويكسبها صاحب النادى

عبد الحميد

حضرت منذ أشهر قلائل تمثيل رواية فى مسرح عربى اختتمها جوق التمثيل بنشيد للسلطان عبد الحميد يصفه فيه ناظمه بالعدل والرحمة ، والرفق والاحسان ، ويدعو له بسلامة

عرشه ، وطول بقائه ، فما سمع الناس باسمه حتى هتفوا له هتافاً يصم المسامع ، وصفقوا له تصفيقاً كاد يضم أضلاع المسرح بعضها الى بعض ، وحضرت ليلة أمس منظراً من مناظر الصور المتحركة فرأيتهم يمثلون ذلك السلطان بعينه رجلا ظالماً سفاحاً ، ضعيف الهمة ، ساقط النفس . زمن المروءة ، جباناً مستطاراً ، ورأيتهم قد عمدوا الى صورته فجعلوها مواطىء أقدامهم ، ومضارب سيوفهم ، فما رأى الناس هذا المنظر حتى راق فى أعينهم ، وابتهجوا لمرآه ابتهاجاً ملأ فضاء صدورهم ، فتمشى فى أعصاب أدمغتهم ، حتى وصل الى أعصاب أيديهم ، فصفقوا له تصفيقاً شديداً بتلك الأكف التى رأيتهم يصفقون بها فى مسرح التمثيل

أنا لا أعلم ان كان عبد الحميد ظالماً أو عادلا ، كريماً أو لئيما ، شريفاً أو وضيعاً ، وانما أعلم أننى سأموت قبل أن أقف على حقيقة تاريخية فى أمره ، مادام الناس عامتهم وخاصتهم ، كتابهم وشعراؤهم ، علماؤهم وجهلاؤهم ، هم الناس الذين يقول فيهم القائل

والناس من يلق خيراً قائلون له
ما يشتهى ولأمّ المخطىء الهبَل

الشهرة

لا يمكن أن تكون الشهرة بحال من الأحوال ميزاناً للفضل فى مصر ، خصوصاً فى عالم الأدب ، ولن يجرى الفضل والذكر فى ميدان واحد الا اذا سلم السباق من كيد العابث ، وخدعة الاريب ، وأنّى لنا ذلك وفى شعراء مصر من يغتصب الشهرة اغتصاباً ، ويلصقها بنفسه إلصاقاً ، وينزع اليها بوسائل لو عرفها الناس لأنزلوه منزلتـه ، وألبسوه حلته ، بينما ترى الآخر قد قنع من أدبه بلذة نفسه ، وإمتاع وجدانه ، فلا يترنم بقصائده فى المنتـديات والمجامع ، ولا يبتاع من الصحف الاسماء والالقاب ، ولا يستخدم الـكتاب لاطرائه والاشادة بذكره ، ولا يتمم ما يجـده من النقص فى أدبه بالغض من أدب غيره ، فترى للاول فى هذا البلد الساذج دوياً كدوى الرعد ، وترى الآخر مطَّرحاً مجفواً لا يؤبه له ،

والدر فى الصدف أغلا قيمة ، وأرفع قدراً ، من جميع ما على وجه الارض من ألواح البلور ، وان كان ملء العيون حسناً وبهاء ، ورونقاً وماء

فكاهة

حدثنى بعض الأصدقاء انه دخل فى أيام الحرب الروسية اليابانيـة حانوت حلاق معروف بالثرثرة أكثر من أفراد طائفته ليحلق له رأسه ، وكان عنده جماعة من زائريه، فأجلسه على كرسى أمام المرآة وأمسك بالموسى وأنشأ يحلق له رأسه حلقاً غريباً لا عهد له بمثله من قبل ، فكان يحلق بقعة ويترك الى جانبها أخرى مستطيلة أو مستديرة وأخرى مثلثة أو مربعة حتى رِيع الرجلُ وظن أن الحلاق قد أصابه مس من الجنون، فارتعد بين يديه ، وخاف أن يمتـد به جنونه الى مالا تحمد عقباه ، واعتقل لسانه فما يستطيع أن يسأله عن سر عمله

فما انتهى الحلاق من أشكاله الهندسـية ، ورسومه الجغرافية ، حتى التفت الى جلسائه وقال لهم كأنه يتمم حديثاً

سابقاً بينه وبينهم : لأجل فض النزاع بيننا ها قد رسمت لـكم خريطة الحرب الروسـية اليابانية فى رأس « الزبون » هنا طوكيو ، وهنا بور أرثر ، وهنا انكسر كروباتكين ، وهنا انتصر أوياما ، وفى هذا الخط مر الاسطول الروسى ، وفى هذه البقعة تلاقى الاسطولان ، وهنا أخذ يتكلم بحدة وحماسة عن شجاعة اليابان وبسالتهم ، ثم أردف كلامه بقوله « وفى هذه البقعة ضرب اليابانيون الروس الضربة القاضية » وضرب بجُمع يده أم رأس الزبون ، فقام صارخاً يولول ويهرول مكشوف الرأس يلعن السياسة والسياسـيين ، والروس واليابانيين ، والناس أجمعين

لا أعلم ان كان المحدث هازلا أو مجدا ، وإنما أعلم أنه قد أجاد التمثيل

الأقسام

لا أعرف فرقاً بين حنث الحانث فى يمينه ، وكذب الـكاذب فى حديثه ، كلاهما ضعيف المُنة ، وكلاهما ساقط

الهمة ، وكما لايستطيع الـكاذب أن يكون صادقاً ، كذلك لايستطيع الحانث أن يكون باراً ، وناقضُ العهد أن يكون وفياً ، فخداع من المتكلم أن يزعم أن لاحاديثه من الشأن فى مواقف الأقسام ما ليس لها فى غير تلك المواقف ، وأنه يتحرّج فى الحنث ، مالايتحرج فى الـكذب ، فان من يستصغر جرم الكذب لا يستكبر من بعده جرماً

الدين

أيها الناشىء : إن من الناس قوما قد ضعفت نفوسهم عن احتمال ثقل الدين ، وسلطان أمره ونهيه ، فخرجوا عليه ، ونبذوا طاعته ، ثم علموا أن الناس سيأخذون عليهم ضعفهم وعجزهم ، فلم يجدوا معذرة يعتذرون بها اليهم غير دعوى إنـكار الدين وجحوده استثقالا وتبرما ، لا تقلداً وتمذهباً ، وماهم بمنكر به ولا جاحد ، فاعلم أن الله سيبتليك بهم ، وأنهم سيزينون لك إنـكار ما يزعمون أنهم ينكرونه ، وسيخيِّلون اليك أنك لن تستطيع أن تبلغ ما تريد من هذه المدنية الحاضرة ، وأن

تنال الحظوة الباسقة فى نفوس أصحابها ، الا اذا تنكرت لدينك ، وتسلبت منه ، وخفرت ذمته ، فاحرص الحرص كله على أن لايعلق بنفسك عالق من هذه الخيالات الباطلة ، واعلم أنك الى نفسك أحوج منك الى الناس ، وأن الناس لايغنون عنك من الله شيئا إن أنت آثرت مرضاتهم على مرضاته ، وأن هذه الحياة الحافلة بصنوف الشقاء ، وأنواع الآلام ، والتى لايفيق المرء فيها من غمرة الا الى غمرة ، ولا ينتقل من عثرة الا الى عثرة ، لايعين عليها الا عقيدة راسخة يلوذ بها الحائر كلما عثرت خطواته ، وتداركت عثراته ، ويستروح من أعطافها رائحة الجنة كلما ضاق ذرعه باحتمال جحيم العذاب الحقيقة

قال لى بعض الناس ان قوماً يغرقون فى مدحك فهلا زجرتهم ، فقلت له ان آخرين قد أغرقوا فى ذمى فلم أصنع شيئا ، فدع الأكاذيب يقرع بعضها بعضا ، فربما استطارت من تلك المعركة شرارة تضىء للناس مكان جوهرة الحقيقة

المذالة تحت الأقدام فيلتقطونها

الانتقاد

بين نقد المؤلفات هنا ونقدها هناك فرقان ، أحدهما يتعلق بالناقد ، والآخر يتعلق بأثر النقد فى الاذهان ، أما الاول فهو أن الناقد هناك ينتقد الـكتاب من حيث ذاته ، فلو لم يكن للـكتاب صاحب معروف لانتقده ، وهنا ينتقده باعتبار شخص مؤلفه ، أى إنه لاينتقد الكتاب ، بل صاحبَ الـكتاب فى كتابه ، وأما الثانى وهو أثر طبيعى للاول ، فهو أن للانتقاد هناك أثراً ظاهراً فى الـكتاب من حيث رواجه وكساده ، وشهرته وخموله ، فـكما يقول المنتقد يقول الناس بقوله ، وهنا يمر الانتقاد بالاذهان مَرًّا فلا يبقى من آثاره فيها إلا أثر واحد ، وهو أن الـكتاب جليل القـدر ، سنى القيمة ، ولولا ذلك ما احتفل بأمره محتفل ، لذلك رأيت كثيراً من عقـلاء الادباء لايرضون عن أنفسهم إلا إذا انتقد الناقدون مؤلفاتهم ، بل رأيت من يتوسل الى بعض

الناقدين أن ينتقد مؤلفه ، بل رأيت من يبلغ به الامر أن ينتقد كتابه بنفسه بتوقيع منحول ، أولئك هم الذين يعرفون قيمة المنتقِدين عندنا وأثر انتقاداتهم فى نفوسنا ، أما الذين يغضبهم الانتقاد ويحرج صدورهم فهم الذين لايعرفون من هذا ولا ذاك شيئا

الحزم

ان الدرهم الذى تمنحه من لايستحقه ، قدخرج من يدك فلا سبيل لك الى وجدانه فى اليوم الذى ترى فيه أمامك من يستحقه ، وان الدينار الذى تعطيه الشاربَ ليشترى به كأساً يقتل بها نفسه قد استحال عليك أن تعطيه الفقير العائل ليشترى به رغيفاً يسد به جوْعة أولاده

الالم

إن فى كثير من الآلام التى نعالجها لذائذ ومسرات يدركها من عرف أن الانسان غافل بطبيعته عما يهدده من مصائب هذه الحياة وأرزائها ، وأن الآلام الضعيفة التى تناله

من العثرات الصغيرة ، هى نُذُر تأتيه من عالم الغيب لتحذّره من الآلام الشديدة التى تناله من السقطات الكبيرة

الغفران

ليس الحقد واحتمال الضغينة غريزة من الغرائز اللازمة للانسان ، فان الرجل قد يصفح عن سيئات الأطفال لانهم لايملكون الخيار لانفسهم ، ويذكر لاصحاب السيئات من الموتى حسناتهم لان الزمن الذى ذهب بهم ذهب بخيرهم وشرهم ، فلم لانغتفر ذنوب أولئك الذين ماأذنبوا الا بعد معركة مستمرة قامت بين عقولهم وقلوبهم ، ثم سقطوا على أثرها صرعى لايملكون لانفسهم ضراً ولا نفعاً

الدعوى

ان أردت أن تكون فى الامة الجاهلة كل شىء فادّع لنفسك كل شىء ، تنل بقولك فى الزمن القصير ، مالا ينال غيرك بفعله فى الزمن الطويل ، فان الكاذب لايزال يكذب حتى يصدقه الناس ، ثم لايزال يكذب حتى يصدقَ نفسه

الدين والوطن

من لاخير له فى دينه لاخير له فى وطنه ، لانه ان كان بنقضه عهد الوطنية غادراً فاجراً ، فهو بنقضه عهدالله وميثاقه أغدر وأفجر ، وإن الفضيلة للانسان أفضل الاوطان ، فمن لم يحرص عليها فأحرِ به ألا يحرص على وطن السقوف والجدران

الحلم

اذا تَوَرَّد متورِّد بكلمة سوء فلا تبتئس بها ، فانك فى موقفك هذا بين اثنتين ، إما أن يكون الرجل صادقا فيما يقول أو كاذبا ، فان كانت الاولى فاحمد الله تعالى على أن قيض لك من أرشـدك الى عيبك ، وكشف لك عن خبيئة نفسك ، وان كانت الاخرى فاربأ بنفسك أن تكون من الجاهلين الذين يتوهمون أن فى استطاعة الا كاذيب أن تبقى زمنا طويلا على ظهر الارض

الأدب

لا تكافئ السفيه على سفهه بمثله ، فانك إن فعلت قضيت له على نفسك ، وأصبحت شريكه فى الخلة التى تزعم أنك تنقمها منه ، فان كنت لابد منتقما فليكن مثلك مثل الاحنف ابن قيس اذ جاءه رجل قد جعل له بعضُ الناس جُعلا على أن يغضبه ، فما زال يسبه ويشتمه ويلح فى ذلك إلحاحا محرجاً والأحنف ساكت لايقول شيئاً حتى ضاق بالرجل أمره فانقلب إلى قومه باكياً نادباً يأكل أصبعه أكلا ويقول والله ما سكت عنى إلا لهوانى عليه

الأخلاق

مثل المتعلم غير المتأدب كمثل شجرة عارية لاتورق ولا تثمر قد انتصبت للناس فى ملتقى الطرق تعترض الرائح ، وتصد سبيل الغادى ، فلا الناس بظلها يستظلون ، ولاهم من شرها ناجون

الاعتدال

بين الجبن والتهور منزلة هى الشجاعة والأقدام ، وبين البخل والاسراف منزلة هى الكرم ، وبين العفو والانتقام منزلة هى العقوبة ، وبين العجز والجهل منزلة هي الحكمة ، فليكن من أفضل ما تأخذ به نفسك التريث والتثبت عند النظر فى الفرق بين مشتبه الفضائل والرذائل ، واعلم أنك لاتزال كريما حتى تنفق مالك فى غير موضعه فاذاً أنت مسرف ، وأنك لاتزال حليما حتى تغضب للباطل فاذاً أنت جهول ، وأنك لاتزال جبانا حتى تقاتل عن عرضك وشرفك فاذاً أنت شجاع ، وإن كل الناس يعرفون الفضائل والرذائل ويفهمون معانيها ، أما إدراك الفرق بين غوامضها ومتشابهاتها فتلك مرتبة العقلاء الأذكياء

البر

ربما كان لك من أبويك أو من ذوى رحمك ممن تولوا شأنك فى مفتتح عمرك من لم تساعده شؤون دهره أو

عصور نشأته على أن ينال حظًّا من العلم والمعرفة مثل مانلت فاياك أن يدعوك ذلك إلى تسفيهه أو تجبيهه أو السخرية به ، أو الإدلال بنفسك عليه ، فانك إن فعلت خسرت من الأدب أضعاف ما كسبت من العلم ، على أنه ربما كان لكبيرك هذا الذى عققته وظلمته وكفرت بفضل نعمته عليك من العلم بتجارب الحياة ومقاتلها . وموارد الأمور ومصادرها ، مايبهر علمك الذى تعتد به ، وتدل بمكانك منه عليه ، وهنالك تكون قد خسرت فوق خسران أدبك ما كان خليقاً بك أن تتلقاه بين يديه من علوم التجارب التى ليست علوم الدراسة بالاضافة إليها إلا كالنقطة من البحر ، والذرة من القفر

الشقاء

السبب فى شقاء الانسان أنه دائماً يزهد فى سعادة يومه ويلهو عنها بما يتطلع إليه من سعادة غده ، فاذا جاء غده اعتقد أن أمسه كان خيراً من يومه ، فهو لاينفك شقيا فى حاضره وماضيه

الفتاة والبيت

الكلمة التى قرظ بها المرحوم كتاب الفتاة والبيت

حضرة صديقى الكاتب الفاضل أنطون افندى الجميِّل

أهديتَ إلىَّ كتابك . الفتاة والبيت فأهديتُه إلى ابنتى ، لأنه مكتوب لها ولأترابها من الفتيات الناشئات ، وربما كانت وكن أقدر منى ومن الرجال جميعاً على فهم مزيته ، وتقدير منزلته ، فلما قرأته عادت إلىَّ تقول إننى لم أُهد إليها فى حياتها خيراً من هذا الكتاب

سامحها الله : فقد كان فيما أهديتُ إليها كتاب « النظرات » فقد فضلتْه على كتاب أبيها : ولكن ما لها وللنظرات وأمثالها من كتب الكليات العامة والخيالات السائرة : فهى فتاة على باب المستقبل يهمها أن تعرف أسباب الحياة المنظمة التى لا تستطيع فتاةٌ فى هذا العصر أن تعيش

بدونها والتي عجز أبواها عن أن يرشداها إليها ، لأنهما بقية من بقايا العصر الماضي ، عصر المصادفات والاتفاقات ، ولا يزال عصرهما لاصقاً بهما حتى اليوم ، ويعنيها أن تعلم كيف تنسج من أخلاقها وآدابها ثوباً يغنيها جماله عن الجمال ، وتعيش من عقلها وحكمتها في ثروة تقوم لها مقام ثروة المال ، وكيف تدبر القليل من الرزق وتنتفع به ، إن قدر لها أن تعيش عيش المقلين ، وتحسن التصرف في الكثير منه وتبقى عليه ، إن قدر لها حظ المكثرين ، وكيف تكون شمساً مشرقة في أفق بيتها تضيء نفوس جميع ساكنيه ، من زوجها إلى خادمتها ، فتسعد بهم ويسعدون بها ، وكيف تتولى أمر نفسها بيدها ، حتى لا يخدعها الخدم عن مالها ، إن كانت ذات خدم ، أو تستغني عن معونتهم ، إن عجزت عن اتخاذهم ، وكيف تستنبط من ثقب الإبرة ، في اليوم الذي تفقد فيه عائلها ومعينها ، قطرات من الرزق تقيم بها أَوَدَها ، وتصون بها ماء وجهها

وكتابك ، يا سيدى ، هو الجواب عن جميع ما تطلبه ،

وتسائل نفسها عنه ، فلا غرو إن أعجبها وأطربها ، ولا عجب
إن فضلته على كل كتاب حتى كتاب أبيها

أشكر لك ، يا أنطون ، تلك اليد البيضاء التى أسديتها
إلىَّ وإلى أمتك ، وأنصح لجميع الآباء والأمهات أن يجعلوا
كتابك هذا خير هدية يقدمونها إلى فتياتهم ، وأن يأخذوهن
بتلاوته مع كتب صلواتهن فى مطلع كل شمس ومغربها ،
فما أحرزت الفتاة فى بيتها خيراً من كتاب « الفتاة والبيت »

*

البعث

هي قصة خيالية الغرض منها تمثيل أبي العلاء المعرى فى أخلاقه وآرائه لم يكتب منها غير هذه الأيام الثلاثة ، وقد ننشر فى الذيل من كلام أبي العلاء عند المناسبات مايميز بين الحقائق التاريخية والتصورات الخيالية

﴿ اليوم الأول ﴾

نبا بى مضجعى ليلةً لهمّ نزل بى والهمُّ رسول من رسل الشر ينزل بأهداب العيون فلا يزال يسعى سعيه حتّى يوقظ الفتنة بين أشياعها ، فظللت أساهر الكوكب حتى ملنى ومللته وضاق كل منا بصاحبه ذرعاً ، فلما تقضى الليل إلاّ أقله ولم يبقَ إلاّ أن تنفرج لمة الظلام عن جبين الصباح سمعت طارقاً يدق الباب دقًّا ضعيفاً ما كدت أتبينه لولا هدوء الليل وسكونه ، فقلت من الطارق ، قال غريب حائر ضلّ به سبيله فى هذه الرقعة السوداء وأعوزه المأوى يطلب كريماً

يعتمد عليه ، ومصجعاً يأوى اليه ، وقد أعدّ لمن يسدى اليه تلك النعمة ذخيرة صالحة من شكر لا يبلى ودعاء لا يخيب ، فأعجبت بعابر سبيل يمر بعفو لسانه من فصيح القول وصحيحه ما يعيي على جهد المتكلفين ، وتزويق المزورين ، (١) وقلت فى نفسي ما لهذا الرجل بدّ من شأن وفتحت الباب فاذا شيخ كُنتيّ (٢) من حملة أعباء الدهر قصير القامة ، ناحل الجسم ، زرىّ الهيئة ، قد نيّف على الثمانين من عمره نخيل إلىّ أن ظهره المحدودب قد قوّس وأن عصاه التى يعتمد عليها وتر قد شُد إلى تلك القوس وأنه قد أعد من هذه وتلك سلاحاً يذود به عن نفسه عادية المنون (٣) ، فلما شعر بمكانى رفع رأسه إلىّ

(١) زور الشيء حسنه وقومه (٢) الرجل الكنتى الكبير العمر نسبة الى قوله كنت في شبابي كيت وكيت (٣) وصف أبو العلاء نفسه فى شيخوخته في احدى رسائله بقوله : (وانى لأعجز اذا اصطحب عن القعود فربما استعنت بانسان فاذا هم باعانتى وسط يدبه لنهضتى ضربت عظامى لأنهن عاريات عن كسوة كانت عليهن) وقوله فى لزومياته

يانفس جسمك سربال له خطر ... وما يبدل في حال بسربال
قد أخلقته الليالى فاتركيه لنى ... فما يزيدك لبس المخلق البالى

ورمانى بنظرة خلت أنها نفذت إلى موضع الأسرار من قلبي وأحاطت بما بين قمة رأسي وأخمص قدمى فرأيت وجهاً أسمر اللون قد انتثرت فى أكنافه حفائر الجدَرى [١] وأسارير تنطوى تارة على عبر القرون ، وحوادث الدهور ، وتنفرج أخرى عن أنوار الصلاح والتقوى ، ولحية بيضاء إلاّ أنها شعثاء ، وعينين كبيرتين مستديرتين ينبعث منهما نور ساطع خفاق لا يراه الرائى حتى يطرق له إجلالاً وإعظاماً ، وسحنة غريبة لا عهد لى بمثلها فى حمراء الأمم وسودائها وأحسب أن لو كان بين يدىّ مثال من صور الناس فى القرون الغابرة لنسبتها [٢] فمشيت اليه مشية الهائب الوجل وقلت على الرحب والسعة يا سيدى لقد حللت بمنزل أنت صاحبه وولىّ الأمر فيه ، ثم قدمت اليه يدى فمشى معى يتوكأ ويتحامل ويهمس بهذه الكلمة

(١) اعتل أبو العلاء فى الرابعة من عمره بعلة الجدرى فذهبت ببصره وبقيت آثارها فى وجهه بعد ذلك

(٢) نسبتها أى ذكرت نسبتها الى نوع من أنواع تلك الصور

ما أوسع الموت يستريح به الجسـ ـم المعنى ويخفت اللجب

حتى وصلنا إلى غرفة الأضياف فأعاد النظر إلىّ وقال اذهب لشأنك فأنا فى حاجة إلى الانفراد بنفسى، فتركته وذهبت إلى غرفة منامى وقد أخذ منظر الرجل مكاناً من قلبى وشغلنى من أمره ما كاد ينسينى هموم نفسى فلم أزل أقلب النظر فى حاله وأذهب المذاهب فى استبطان سره حتى أخذ عينىّ نومٌ ثقيل لم أستيقظ منهُ إلاّ فى صفرة الأصيل

سألت الخادم عن الضيف فعلمت أنه أخذ حظه من المطعم والمشرب والمضجع والمستحمّ وأنه لا يزال فى مصلاه فهبطت اليه فى خلوته أهيبَ ما أكون له فرأيته جالساً إلى قبلته يقلب وجهه فى السماء، ويكرر هذا الدعاء

اللهمّ لا رادّ لقضائك ؟ ولا سخط على بلائك، أمرت فأطعنا، وابتليت فرضينا، فأمطرنا غيث إحسانك، وأذقنا برد رحمتك، وألهمنا جميل صبرك، وثبت قلوبنا على طاعتك، فلاعون إلاّ بك، ولاملجأ إلاّ إليك، إنك أرحم الراحمين،

وأعدل الحاكمين (١)

ثم أطرقَ بعد ذلك إطراقاً طويلاً خلت أنهُ وصل فيه إلى مقام التجريد وأن الذى أراه بين يدىّ جسد هامد قد أسرى بروحه إلى الملأ الأعلى ، فجعلتُ أختلس الخطى اليه حتى صاقبتهُ ، فرفع رأسه إلىّ ذاهلاً ، وقال أنتَ هنا . قلتُ نعم ، قال فى أى سنة نحن من تاريخ الهجرة فعجبتُ لسؤاله وقلتُ فى السنة التاسعة والعشرين بعد الثلثمائة والألف ، قال ما إسم هذا المصر الذى تعمرونه ، قلت القاهرة المعزية ، قال أفى هذه الأمة كثير مثلك ، قلتُ لم أفهم ما تريد يا سيدي ، قال لقد استفتحتُ هذه الأبواب التى

(١) حدث القاضى أبو الفتح انه دخل على أبى العلاء فى خلوته فسمعه يقول وهو لا يعلم بمكانه

كم بودرت غادة كعوب   وعمرت أمها العجوز
يحوز أن تبطئ المنايا   والخلد فى الدهر لا يجوز

ثم تأوه مرات وتلا قوله تعالى (ان فى ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ، الآية) ثم صاح وبكى بكاء شديداً وطرح نفسه على الأرض وهو يقول سبحان من هذا كلامه . قال فعلمت صحة دينه ويقينه

تليك فلم أجد من ورائها إلا ضعيفاً لايلبث أن يراني حتى يرعد مني فرقا فيوصد بابه في وجهي ، أو ضنينا يرى بؤسى وشكاتي فيزوى ما بين حاجبيه ثم ينصرف عنى ، أو أعجمياً لايفهم ما أقول ولا أفهم ما يقول . قلتُ ما في هذه الحلة التى تراها أعجمى ، قال انهم خاطبونى بلحن لا أعرفه وإن شئت أعدته عليك كما سمعته ، ثم أخذ يسرد عليّ الكلمات العامية التى سمعها من الناس فى طريقه إليّ سرداً متواصلا كما تسرد الببغاء كلماتها ، فقلتُ أنك قد أعدت يا سيدى بذكائك هذا عهد أبى العلاء المعرى فانهم يتحدثون عنه أنه كان إذا سمع أعجميا يتكلم حفظ كلامه بدون أن يفهم معناه (١) فما سمع كلمتى هذه حتى اضطرب جسمه وانكفأ لونه (٢) ورأرأ بمقلتيه (٣) وزحف إليّ حتى اصطكت ركبتانا ، فعجبت لأمره وما رأيت من استحالة حاله ، ثم قال لى من

(١) ذكر المؤرخون لأبى العلاء قصصا معددة تتضمن انه كان يحفظ مايسمعه من الأعاجم بلغتهم فيبقى فى ذهنه زمناً طويلا حتى يلقيه كما سمعه

(٢) انكفأ لونه تغير (٣) رأرأ بعينيه حركهما وأدارهما

هو هذا المعرى الذى حدثوك عنه ، قلت رجل من علماء الأمة العربيـة وشعرائها عاش في القرن الرابع والخامس من الهجرة تقرأ سيرته في كتب التاريخ والأدب ونعجب بفهمه وعلمه وذكائه كل الاعجاب ، قال وماظنكم به ، قلت إن الناس فى أمره مختلفون ، ومن يرفضه أكثر ممن يتشيع له ، قال ومن أيهم أنت ، قلت وممن يتشيع له ، فقد قرأت كتبه قراءة مستثبت مستبصر فما شككت فى مذهبه ودينه ، قال أكنت تؤثر أن تكون فى عصره أو أن يكون في عصرك حتى تراه ، قلت ما أعدل بهذه الأمنية غيرها ، قال قد بلغك الله طلبتك ، قلت لم أفهم يا سيدى شيئاً مما تقول ، قال أكاتم أنت على سرى ؟ قلت نعم ، قال أتقسم ، قلت إن الوفاء عندى حرمة مثل حرمة القسم ولو كنت متهما نفسي لأقسمت ، قال الآن عرفتك . أنا احمد بن عبد الله بن سليمان التنوخى المعرى ، فما قرعت هذه الكلمة مسمعى حتى أسقط فى يدى وعلمتُ أنى قد هلكت ، وكان أول ما كان منى أن

ألتفت ناحية الباب لأرى هل أجد السبيل إلى الهرب إن عرض لى من هذا المجنون عارض سوء ، وكأنه ألم بما فى نفسى فقال لا ألومك على ما ظننت فقد قدرت قبل أن ألقى اليك كلمتى هذه أنها بالغة منك ما بلغت فهل تؤمن بالله ، قلت نعم قال وتؤمن بالبعث ، قلتُ نعم ، قال وما يريبك من رجل أماته الله ثم بعثه بعد موته ، قلت ذلك يوم يبعثون ، قال هبْها قصة ابراهيم إذ قال له ربه (فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعياً) وبعد فوالله يا بنى ما كفرت مذ آمنت ولا كذبت مذ عرفت أن الصدق منجاة من النار ولا استرد الله منى نعمة العقل بعد ما محنى إياها ولو كذبتُ الناس جميعاً ما كذبتك فقد أسلفت إلىّ من أياديك مالا أحتاج بعده إلى كذبة أتنفّق بها عليك ، أو أزدلف بها إليك ، وإنى قاصٌ عليك قصتى فاصغ لها ولك بعد ذلك حكمك . فسُرّى عنى قليلا ما كان ألم بنفسى من القلق فأقبلتُ عليه بوجهى فأنشأ يقول

لا أزال يا بنيّ حتى الساعة أشعر بمرارة الحساب في فمي فقد حوسبت حسابا غير يسير على الكبير والصغير والدقيق والجليل والقومة والقعدة والخطرة واللمحة وكل ما وجدته حاضراً بين يدى فى صحائفى فكادت حسناتى تكافىء فى الميزان سيئاتى لولا تلك الكلمات التى كنت أرددها فى حياتى الاولى فى تزهيد الناس فى النسل والزواج (١) فقد دخلت بها فى

---

(١) لابى العلاء أقوال كثيرة فى النهى عن الزواج والتزهيد فى النسل جاء بها على صور مختلفة فتارة كان يفرح بموت الطفل فى مهده كقوله :

قدم الفتى ومضى بغير تئبه   كهلال أول ليلة من شهره

لقد استراح من الحياة معجل   لو عاش كابد شدة فى دهره

وتارة كان يفضل بقاءه فى عالم الغيب كقوله :

واذا أردتم للبنين كرامة   فالحزم أجمع تركهم فى الأظهر

وتارة كان يظهر سروره بأنه لم يتزوج ولم ينسل كقوله :

تواصل حبل النسل ما بين آدم   وبينى ولم يوصل بلامى باء

تثاءب عمرو اذ تثاءب خالد   بعدوى فما أعدتنى الثوباء

وقوله

بنت عن الدنيا ولا بنت لى   فيها ولا عرس ولا أخت

وقوله

لقد صرت فى الدنيا غيباً مرءاً   فأعقب نسلى من اداة

زمرة المفسدين الذين تنكروا لإرادة الله وأغفلوا حكمته
فى خلق النوع البشرى وطال حسابى عليها وحجاجى فيها
وكان لا بد من العقاب ففزعت إلى الروح الشريفة المحمدية

فان تحكمى بالجور في وفى أبى   فلى تحكمه فى ساقى وفى ابنى

وتارة كان بعد ولادة الوالد لولده جنايه منه عليه كقوله :

ليدمم والداً ولد ويعتب   عليه فبئس عمرى ماسعى له

وقوله

هـــذا جناه أبى على   وما جنيت على أحـــد

وظاهر أن الذى أثار هذه الخواطر فى نفسه ما كان يتصوره من أن الشقاء فى هذا العالم لازم ضرورى من لوازم النوع الانسانى ولا خلاص له منه الا من طريق العدم المحض وان اسناده الجنايه الى الوالد بولادة ولده ليس على ظاهره بل أراد به الامعان فى تصوير هذا الشقاء وبيان ضرورة اتصاله بالانسان وأنه لو لم يولد لما كان شقيا وقد أوضح غرضه هذا توضيحا بينا فى قوله :

ألا تفكرت قبل النسل فى زمن   به حلت فدرى أين تلقـــه
ترجو له من نعيم الدهر ممتنعا   وما علمت بأن العيش يشقيه
شكا الأذى فسهرت الليل وابتكرت   به الغماه الى شمطاء ترقـــه
وأمه تسأل العراف قاصده   عنه السدور لعل الله يشفيه
وأنت أرشد منها حين تحمله   الى الطبيب يداويه ويسقيه
ولو رقى الطفل عيسى أو أعيد له   بقراط ما كان من موت يوقيه

مستشفعاً بها لا أريد رد القضاء ولـكن أريد اللطف فيه ،
فتعلق محمد صلى الله عليه وسلم بقوائم العرش الالهي وقال :

اللهم إنك تعلم أن عبدك هذا عاش فى تلك الدار كارهاً لها متبرماً بها متسخطاً عليها حابساً نفسه فى كسر بيته فراراً من أهلها يترقب فراقها فى جميع آنائه وفيناته حتى لو رأى الشمس طالعة لتمنى ألاّ يرى مغربها ولو رآها غاربة لتمنى ألاّ يرى مشرقها ، وقد قضى قضاؤك الذى لا مردّ له ولا محيص عنه أن تعاقبه على ما اجترح من السيئات فى دار العمل فأسألك بقلمك النورانى الذى تمحو به فى لوحك ما تشاء وتثبت أن تقى جسمه الذى طهره فى الحياة الدنيا بالزهد فى شهواتها ولذائذها والصبر على آلامها وأهوالها من عـذاب النار[1] وأن تجعـل عذاب قلبه فداء عـذاب جسمه فعاقبهُ

(١) كان أبو العلاء يعتقد ما يعتقد جميع الموحدين أن ما لقيه فى هذه الحياة من عناء وشقاء وما أخذ به نفسه من الزهد في العيش والرغبة عن لذائذ الحياة وأنعمها مدخر له أجره في دار الجزاء كما يظهر من مثل قوله

بإرجاعه إلى تلك الدار التي كانت جحيمه ومستقرّ عـذابه وحسبهُ من العقاب أن يلقى فيها آخراً ما لقى فيها أولاً (إنك بعبادك لطيف خبير)

فقبل الله شفاعة نبيه وقضى أن أعود إلى الدار الأولى لأقضى فيها من الأيام بعدد ما قضيت فيها من السنين وقد علم سبحانه وتعالى أنى كنت فى العهد الأول أحمده على العمى كما يحمده غيرى على البصر فردّ إلىّ بصرى لتنفذ مشيئته فى عقابى وتعذيبى فله الحمد على سرائه وضرائه

هـذه قصتى قصصتها عليك وهذا أول يوم من الأيام التى سأقضيها فى داركم هـذه فاكتم علىّ أمرى حتى ينقضى أجلى وكن لى خير معين على هموم الحياة وبأسائها فقد اغتبطت بك مـذ رأيتك وعلمت أن الله ما قيضك لى إلا وهو يريد أن يخفف عنى العذاب مرة أخرى

أأخشى عذاب الله والله عادل وقد عشت عيش المستضام المعذب

وقوله

أسجن فى الدنيا كما هو عالم وأدخل ناراً مثل قيصر أو كسرى

فما أتمَّ قصته حتى ابتدرتُ يديهِ لثماً وتقبيلاً وعلمت أنى قد أحرزت فى بيتى كنزاً لا أعدل به كنوز الأرض ظاهرها وباطنها وشعرت بما أضاء بين جوانحى من سرور ما كان يكدره علىَّ إلا خوف انقضائه

ثم مازلنا نتحدث حتى كادت تحترق فحمة الليل فوضعت يدى فى يده وعاهدته على كتمان سره ثم ودعته وتركته فى خلوته على أن نلتقى غداً

اليوم الثانى

ما كنت أجهل قبل اليوم رأى الشيخ فى الطعام وما يحب منهُ وما يكره ولكننى ظننت أنهُ بُعث بطبيعة غير طبيعته ورأى غير رأيه فقدمت اليه فى طعام العشاء دجاجات ربلات [1] كنت أعددتهنَّ للضيفان من قبل ، فلما أخذ بصرُه المائدة صار ينظر اليها مرة وإلىَّ أخرى ثم قال ما إسم

(١) الربل الكثير اللحم

هذا الطعام الذى تقـدمه إلىّ ، قلت انهنّ دجاجات لم يكن للخادم الصغرى عندى شأن غير رعايتهنّ والقيام عليهنّ والحدب بهنّ ، فكانت تؤثرهنّ بأفضل ما تؤثرها به من طعام وشراب وتنزلهن من نفسها منزلة الواجد من أمه حتى امتلأن واكتنزن[1] واستدرن للذبح ، وقد كنت أُبقى عليهنّ كلما طرقنى طارق إبقاء على الفتاة أن ينفجر صـدرها حزناً على أترابها الصغيرات ، أما اليوم فلم أرَ من ذلك بدّاً فذبحتهنّ إكراماً لك فسال من دموع الفتـاة عليهنّ أكثر مما سال من دمائهنّ

فوجم الشيخ ثم أطرق إطراقاً طويلاً سمعته يهينم[2] فيه بهذه الكلمات

وارحمتاه ، ألا تزال هذه المُدى موكلة بهذه الأعناق ، ألا يزال الحيوان الناطق ينكر على الحيوان الصامت حتى حسه ووجدانه ويأبى الاّ أن ينظمه فى سلك الجمادات الصم

(١) اكتنز اللحم اجتمع وصلب (٢) الهينمة الصوت الخفى

لأنه صامت لا ينطق وأخرس لا يبين[١] ، ربما كان زقاء الديك ، وقوقأة الدجاجة ، وصرصرة البازى ، وهديل الحمام ، وزقزقة العصفور ، وثغاء الشاة ، ومواة الهرة ، وخواء الثور ، وحنين النيب[٢] بكاء بغير دموع ، وشكوى بغير لسان ، وربما كان يكتم ذاك الذبيح فى نفسه من الوجد والبرحاء مالو استطاع أن يبين عنه لأبكى العيون دماء وفجر الصخر عيونا

ثم رفع رأسه إلىّ وقال : أما سمعت الدجاجات يقلن لك شيئاً عند ما أردت ذبحهنّ ، قلت لا يا مولاى ومتى قلن للناس شيئاً فيقلن لى ، فنظر إلىّ نظرة شزراء لا أنسى سهمها الواقع فى قلبى ما حييت ثم قال ، أما لو أن الله منح ذابح الدجاجة من نور البصيرة ما منحه من نور البصر لسمعها تقول له

---

(١) من كلام ابى العلاء فى احساس الحيوان بالالم قوله فى احدى رسائله (وقد علم ان الحيوان كله حساس يقع به الألم) وقوله (ولم يزل من ينتسب الى الدين يرغب فى هجر ان اللحوم لأنها لا يتوصل اليها الا بايلام حيوان يفر منه فى كل أوان)

(٢) النيب جمع ناب وهى الناقة المسنة

مهلا رويداً أيها القاتل السفاك لا تدنُ منى ولا تمـددْ يدك إلىّ فلا شأن لك معى ولا ترة [١] لك عندى

أنا صاحبة الحق المطلق فى حياتى وأنا لا أريد أن أموت ولا رغبة لى فى فراق الحياة لأن ورائى أفراخاً صغاراً هنّ إلى حياتى أحوج منك إلى مماتى . وليس من الرأى أن أكل أمرهنّ اليك من بعـدى لأنك شره طماع لا يشبع بطنك ولا تهدأ مُديتك

أنت لا تملك أن تعطينى الحياة فلا تملك أن تسلبنى إياها

كل ما تستطيع أن تمنّ به علىّ أنك كنت تطعمنى وتسقينى فهل تعلم أنك ما كنت تطعمنى إلاّ فتات مائدتك ولا تسقينى إلاّ غُسالة يديك وأنك ما كنت تصنع ذلك رحمةً بى ولا إحساناً إلىّ بل لتهيء لنفسك ما يسد شهوتك ويطفىء لوعتها ، وهل تعـلم أنك أنت الذى سجنتنى فى أقفاصك وحلت بينى وبين رزق الله أطعمُه أنّى ذهبت وأين حللت من

---

(١) الترة الثأر

حيث لا يساومنى فيه مساوم ولا يحاسبنى عليه محاسب

أمن أجل تلك الخُشارة (١) القذرة والجرعة الكدرة تسلبنى حياتى وتفجع بى أفراخى ولا ذنب لى ولا لهنّ عندك إلاّ أنا . كنا زينة بيتك ولعبة أطفالك وحماة آلك من بنات الأرض (٢) وهوامها ورسل الفجر المنير اليك

لا تظلم السبع بعد اليوم ولا تنقم منه وحشيته وافتراسه فكلاكما وحش وكلاكما مفترس لا فرق بينك وبينه إلاّ أنه لا يحسن الذبح والطبخ كما تحسن فهو يبقر البطون بأظافره وأنت تفرى الأوداج بمُداك ، لا بل إن جريمتك أكبر من جريمته وعذرك أضعف من عذره لأنه يفترس ليشبع بطنه وأنت تفترس لترفّه نفسك ولأنه يعجز عن الاحتيال لقوته وأنت على ذلك من القادرين (٣)

---

(١) الخسارة فضالة المائدة (٢) المراد بنبات الأرض الحشرات التى تخرج من بطنها

(٣) فضل أبو العلاء الحيوان على الانسان فى كثير من كلامه كقوله :

سبت بالكلب فأنكرته والكلب خير منك اذ ينبح

استضعفتَني فبرزت الىّ فهلاّ برزت لشبل الأسد، أو ديْسم الدب ، أو فُرعل الضب ، أو حرش الحية ، أو هيَثْم النسر ، أو ناهض العُقاب ؟ (١)

ما أخبثك أيها الانسان عاجزاً ، وما أظلمك قادراً ، وما أشقاك بنفسك وأشقى العالمين بشقائك

ذلك ما كان يسمعه الذابح من ذبيحته لو أن الله وهبه أذناً كالآذان وبصيرة كالبصائر ولكنّ الناس لا يعلمون

هيه يا صاحب الدجاجات حدثنى عنك ألم يكن لك فى جميع ما تنبتُ الأرض من بقلها ، وقثائها ، وفومها ، وعدسها ، وبصلها ، منادحُ لاكرامى والقيام بحقى . وأنت تعلم أنى رجل سلخت فى دنيا كم هذه من حياتى الأُولى نيفاً وأربعين سنة لم أذق فيها لحم الحيوان ولا ثماره ولا نتاجه فحميت نفسى حتى عسل النحل وبيض الدجاج وألبان ذوات الأثداء وأقنعتها

وقوله: أقل منهم شراً ومضرية ما ركبوا فى السرى وما ذبحوا
وقوله :خير من الظالم الجبار شيمته ظلم وحيف ظليم يرعى الذبحا
(١) هذه فروق نتاج تلك الأنواع من الحيوان

بالبلسن طعاماً والبَلَس حلوى[1] لأنى كنت أعلم أن النبات طعامى الذى لا يلائمنى غيره ولا يشبهنى سواه وأن لحم الحيوان إنما خلق للشفاه الغليظة ، والأنياب العريضة ، والأظفار الحادة والجلود المزأبَرة[2] ، والأعضاء المتوثبة ، والهامات الضخمة ، وكنت أرى أن أكلة اللحوم إنما يخادعون أنفسهم فيها ويجترّونها إلى طبائعهم اجتراراً لأنهم لا يأكلونها إلاّ إذا عالجوها بالطبخ والصف[3] والتقديد والشى والقلى ومزجوها بالخضر والتوابل والأبازير والأقزاح[4] مزجاً يكاد يخرج بها عن جوهرها إلى جوهر النبات حتى إذا نزل بهم عارض مرض نزعوا عنها وبرئوا الى الله منها وفزعوا الى النبات فى طعامهم وشرابهم وعقاقيرهم كأنما يطلبون شفاءهم فى الرجوع

---

(١) البلسن العدس والبلس التين ومن كلام أبي العلاء :

تقنعنى بلسن يمارس لى فان أتتى حلاوة فبلس

(٢) الثوب المزأبر الذى له زئبر وهو ما يظهر من درزه (٣) الصف تشريح اللحم عراضاً (٤) التوابل وما يليها ما يطيب به المطبوخ من الأشياء اليابسة

الى غذائهم الطبيعى الذى خلقوا له

وأعجب ما كنت أعجب له من أمرهم أنهم كانوا ينكرون علىّ رأيى فى ترك ذلك الطعام ويمعنون فى مُساءلتى عنه وحجاجى فيه وحملى عليه ويلحون فى ذلك إلحاحاً شديداً حتى ظننت أنهم قاتلىّ من دونه [1] كأنما يزعمون فى ضوضائهم هذه أنهم انما يأكلون لحم الحيوان بإسم الشريعة الدينية لا بإسم القرم والجم [2] أو أن الله تعالى أنزل عليهم قرآناً ألاّ يقيم لهم يوم القيامة وزناً ولا يقبل منهم صرفاً ولا عدلاً إلاّ إذا قدموا عليه يبطون بجر [3] مكتظة بلحوم الحيوان

---

(١) كتب ابن أبى عمران الى أبى العلاء حملة رسائل يسأله فيها عن سبب اقتناعه عن أكل اللحم ويبكته فيها تبكيتاً مؤلماً ويعرض عليه أن يحمل بعض الأمراء على أن يرسل اليه ما يكفيه مؤونة ذلك احراجاً له واعناتاً وأبو العلاء يومئذ فى أواخر حياته ومنتهى شيخوخته فقد ضعفت شهوته عن اللحم وغيره ووهنت قوته عن المناظرة والجدل حتى قال فى بعض أجوبته عن تلك الرسائل (ولو مثل بحضرته السامية لعلم أنه لم يبق فيه بقية لأن يسأل ولا أن يجيب وقد عجز عن القيام فى الصلاة فانما يصلى قاعداً والله المستعان) (٢) القرم والجم شهوة اللحم (٣) بجر جمع أبجر وهو الممتلىء

تتقدم بين أيديهم فى منصرفهم من الحساب لتفتح لهم أبواب الجنان ، وكأنهم فرغوا من أداء ما افترض الله عليهم أن يؤدوه وترك ما أمرهم أن يتركوه فلم يبق بين أيديهم من أبواب العبادة إلاّ باب التورّع عن أكل اللحم مخافة أن ينقلب المباح بإعراضهم عنه حراماً كما ترك النبى صلى الله عليه وسلم صلاة التراويح بعد أدائها مخافة أن تنقلب سنتها باستمراره عليها فريضة (١)

وأحسب أنْ لو كنت فيهم من أكلَة السُّحت أو الميتة والدم ولحم الخنزير أو أموال الناس بالباطل لأوسعوا لى فى صدورهم من العذر ما لم يوسعوا فى ترك مباح ما تركته نقمة على الشريعة أو تبرماً بها أو تمرداً عليها ولكننى كنت امرءا جزوعاً يزعجنى منظر الشرائع الحيوانية على مائدتى لأنه يذكرنى بمنظر الذبيحة وارتياعها وولهها بين حبل الذابح

(١) من كلام أبى العلاء فى الذين يحملون بصغائر الذنوب ويغفلون كبارها :

يعيب أناس أن قوما تجردوا لحمامهم نعب العيون الشوازر
لقد سعدوا ان كان لم يجر عندهم من الوزر الا تركهم للمآزر

وسكينه وكنت فقيراً لا أملك فى كل عام من الرزق إلا نيفاً وعشرين ديناراً لا يتسع مثلها لمثل ما يتسع له عيش الناعمين المترفين[١] وما كنت أجد السبيل إلى غيرها إلاّ من طريق الكدية والتكفف أى بقبول صلاة الأمراء وصدقات المحسنين. وقد علم الله من شأنى أنى رجل لو علمت أنى إن أذلتُ ما صان الله من ماء وجهى على عتبة أمير أو قدم وزير، أمطرت السماء علىّ ذهباً، واستحالت الحصباء تحت قدمى درّا ما فعلت ضنًّا بنفسى على هذا الموقف المستوبَل وإيثاراً للرضاء بقضاء الله وقدره فى قسمة أرزاقه بين عباده[٢]

(١) من كلام أبي العلاء في سبب امتناعه عن أكل اللحم قوله فى بعض رسائله (ومما حثنى على ترك اللحم أن الذى لى في السنه نيف وعشرون ديناراً فاذا أخذ خادمى بعض ما يجب، بقي ما لا يعجب، فاقتصرت على فول وبلسن، وبعض ما لا يعذب فى الألسن) ومن كلامه الدال على انه كان فقيراً معوزاً قوله :

واتهامى بالمال أوجب أن يطلب منى ما يقتضى التمويل
ويقول الغواة خولك الله كذبتم لغيرى التخويل

(٢) كان أبو العلاء غاية في قناعته وانفة نفسه وقد ظهر ذلك

فلم أرَ خيراً من ترك طعام لو اشتهيتهُ لما قدرت عليه
ولو قدرت عليه لما اشتهيتهُ من حيث لا يكون للتحريم
والتحليل ولا للايمان والزندقة فى ذلك مدخل

في حالة معيشته واعتقاله بيته وانزوائه عن الناس مع رغبة الامراء فيه والحاح الكبراء عليه فى البروز اليهم والكون معهم فضلا عما كان لايزال يهتف به من ذكر القناعة في شعره كقوله :

الحمد لله قد أصبحت فى دعة أرضى القليل ولا أهتم بالقوت

وقوله

من مذهبي أن لا أشد بعصة قدحى ولا أصغى لشرب معوج
لكن أقضى مدتى متقنع يعنى وأخرج بالقليل الأروج
هذا ولست أود انى فائم بالملك في ثوبى أغر متوج

ولما اضطر أن يخرج الى أسد الدولة صالح وهو بظاهر المعرة ليطلب منه اطلاق جماعة من الأسرى عنده قبل صالح شفاعته وأطلقهم ولكنه جزع بعد ذلك لهذه الضراعة جزعا ظهر في قوله :

تغيبت في منزلى برهة ستير العيون فقيد الحسد
فلما مضى العمر الا الأقل وحم لروحى فراق الجسد
بعثت شفيعا الى صالح وذاك من القوم رأى فسد
فيسمع منى سجع الحما م وأسمع منه زئير الأسد
فلا يعجبنى هذا النفا ق فكم نفقت محنة ما كسد

وما زال المتورعون من السلف الصالح يتركون ما هو لهم حلال مطلق من لذائذ هـذه الحياة وشهواتها ويجزعون من ملامسته والدنو منـهُ جزعَهم من اجتراح السيئات ، وانتهاك الحرمات ، فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يجيع نفسه من غير عوز وكانت عائشة رضى الله عنها تقول إن رسول الله لم يمتلئ قط شبعاً وربما بكيتُ رحمةً له مما أرى به من الجوع فأمسح بطنه بيـدى وأقول نفسى لك الفداء لو تبلّغتَ من الدنيا بقدر ما يقويك ، فيقول يا عائشة إخواني من أولى العزم من الرسل قد صبروا على ما هو أشـدّ من هذا فمضوا على حالهم فقدموا على ربهم فأكرم مآبهم وأجزل ثوابهم ، وكان يقول شرار أُمتى الذين يأكلون مخ الحنطة (١) وعلا عمر رضى الله عنه ولدَه عبـد الله بن عمر بالدِرة (٢) إذ دخل عليه فرآه يجمع فى طعامه بين الثريد والشواء ، وكان بعض الصالحين

(١) مخ الحنطة خالصها (٢) الدرة السوط يضرب به وكان في يد عمر بن الخطاب رضى الله عنه درة لا تكاد تفارق يده

يَعد الجمع بين الخبز والملح شهوة فبتجنبها ، وكان بعضهم يعجن دقيقه ويجففه فى الشمس ثم يأكله قائلاً كسرة وملح حتى يتهيأ فى الآخرة الشواء ، ومنهم من لم يأتدم قط فى حياته لا بالجوذاب(١) والكباب ولا بالخل والزيت

فهل كان واحد من هؤلاء بَطِرًا بنعمة الله أو محرماً ما حلل الله ؟ لا فما كل من أبغض حلالاً حرَّمه ولا كل من أحب حراماً حللهُ فقد اعتقد صاحب أبى حنيفة بحل النبيذ فلما أريد عليه قال لو قطعت إرْباً إرْباً ما حرمته ، ولو قطعت إرْباً إرْباً ما شربته ، وعلم النبي صلى الله عليه وسلم بحل الطلاق ثم قال أبغض الحلال إلى الطلاق بل لو تبينتَ لعلمت أن قاعدة التحريم والتحليل فى الشرائع الدينية مصادرة النفوس فى ميولها وشهواتها والنفوس لا تنفر إلاّ مما حلّ لها ولا تشتهى إلاّ ما حرم عليها

فويل لى من هؤلاء الناس شركتهم فى دنياهم فقالوا

---

(١) الجوذاب طعام يتخذ من سكر ورز ولحم

شره طماع ، وصدفت لهم عنها فقالوا زنديق ملحد ، فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون[١]

وما وصل من حديثه إلى هذا الحد حتى بلغ منهُ الجهد أو كاد فتفصد جبينه عرقاً واستسر حديثهُ حتى ما يكاد يبين فرثيت له مما به وأمرت برفع المائدة من بين يديه وقدمت له مقترحه من الطعام فلبثنا نأكل صامتين حتى فرغنا فأردت أن أُرفِّه عليه ما ألمّ به من الهم فقلت له يا مولاى إن للحيوان اليوم شأناً غير ذلك الشأن الذى تعرفه له من قبل فقد ذهب كثير من الناس مذهب الرفق به والإحسان إليه واجتمع فى كل مدينة من مدن العالم قوم من الراحمين المحسنين يأخذون أنفسهم بمناظرة المدارج والسبل والأسواق العامة فاذا وجدوا من يحمل على دابته فوق ما تحتمل أو يَسوطُها

(١) من كلام أبى العلاء فى عدم رضاء الناس عنه حتى فى زهده عما فى أيديهم :

حورفت فى كل مطلوب هممت به حتى زهدت فما خليت والزهدا

سوطاً عنيفاً [١] رفعوا إلى الحاكم أمره أو رأوا حيواناً هزيلاً أو مهيضاً [٢] حملوه إلى مكان خاص بمعالجة أمراض الحيوان فعالجوه إن وجدوا الى الرجاء فيه سبيلاً وإلاّ قتلوه رحمة به وإشفاقاً عليه

قال لقد أحسنوا فى الأولى وأساءوا فى الأخرى ومن لهم بعلم ما استتر وراء حجب الغيب من كوامن الأقدار فى تحديد الآجال ، وها نحن نرى فى كل يوم مريضاً يبل بعد إشرافه وبكاء الباكيات حوله وصحيحاً يخترم فى اجتماع قوّته واستكمال فتوته وغليان ماء الشباب فى وجهه كما تخترم الثمرة الغضة من غصنها الناضر فهلا وكلوه إلى منيته تأتيه هادئة مطمئنة حيث يسوقها القدر إليه [٣]

ما أحسب هؤلاء الراحمين الذين تحدثنى عنهم إلاّ

(١) ساط دابته سوطاً أى ضربها بالسوط (٢) المهيض الكسير

(٣) من كلام أبى العلاء فى عجز العالم عن ادراك الغيب :

وجدت الغيب تجهله البرايا فما شق هديت وما سطيح

مرائين مصانعين ، ولا هذه الرحمة التى ينتحلونها لأنفسهم إلاّ حبالة من الحبائل نصبوها لاصطياد العقول ، واختتال النفوس ولا أنهم أرادوا بما فعلوا إلاّ أن يقول الناس عنهم إنهم رحموا الحيوان فأحرى أن يرحموا الإنسان ، فمثلهم كمثل المرائين فى الدين الذين يتورعون عن التمرة حلالاً تذرُّعاً إلى البدرة حراماً

يا بنى آدم دعوا النوق فى مراحها ، والشاء فى زروبها ، والوحش فى كناسه ، والضبّ فى جحره ، والذئب فى وجاره ، والقطا فى أفاحيصه ، ولا تزعجوا العصافير فى أعشاشها ، ولا الحمام عن محاضنها ، ولا اليعاسيب عن خلاياها ، ولا الأسماك عن مسارحها[1] ، وجنبوها فخاخكم وشباككم ، وقتركم وزباكم[2] ومداكم وشفاركم ، فإن لها نفوساً كنفوسكم ، ووجداناً كوجدانكم ، ورجاء فى الحياة كرجائكم ، واعلموا أن الله

(١) هذه فروق أماكن تلك الحيوانات (٢) القتر جمع قترة بضم القاف وهو الناموس الذى يبنيه الصائد ليستتر عن الصيد والزبى جمع زبية بضم الزاى وهى حفرة تحفر فى قمة الجبل لصيد الاسد

تعالى ما أغرى بعضكم ببعض ولا سلط قويّكم على ضعيفكم ولا أجرى هذه الينابيع من الدماء بين أحيائكم إلا بعد أن ضريتم[1] بهذه اللحوم ضراء السباع بفرائسها ، وقطعتم الى المتعة بها ما شئتم من الحلاقيم والغلاصم والأوداج والأباهر[2] فارحموها ترحموا أنفسكم واعصموا دماءها يعصم الله دماءكم ، إنكم إلى الرحمة محتاجون ، وإلى الله راغبون[3]

(١) ضري الوحش باللحم اعتاده وألفه (٢) الغلاصم جمع غلصمة وهي اللحمة بين الرأس والعنق والاباهر جمع أبهر وهو عرق يخرج من القلب الى سائر الشرايين اذا انقطع مات صاحبه (٣) للمعرى كلام كبير في الرفق بالحيوان والنهي عن ايذائه ومطاردته وذبحه وأكل لحمه والانتفاع بألبانه وثماره كقوله في النهي عن ضرب الدواب

لقد ساءني مغدى الفقير بجهله على العير ضرباً ساء ما يتقلد
يحمله مالا يطيق فان وني أحال على ذي وترة يتجلد

وقوله يخاطب الحمامة ويؤمنها من غدره وختله

لك النصح مني لا أعاديك خاتلا بمكر ولكني أغاديك مكرما
اذا ما حذرت الصقر يوماً فحاذري أخا الانس أياما وان كان محرما
يصوغ لك الغادي قلادة هالك من الدم تخفي وجدك المتضرما

وقوله في النهي عن صيد الوحش

لا تطرد الوحش فما يلبث الـــمطرود في الدنيا ولا الطارد

ثم سكت بعد ذلك سكوت المجهد المتعب وكان الظلام قد أظلنا بجناحيه فشعرت أن سنة من النوم قد رنّقت (١) فى عينيه فانسللت من بين يديه وتركته فى مضجعه على أن ألقاه غداً

وقوله فى النهى عن نقطيع لحم الحيوان المذبوح وقت اختلاجه وقبل مفارقته الحياة

روح ذبحك لا تعجله ميتته فتأخذ الشحم منه وهو يختلج

وقوله في الاعتراض على صيد الاسماك

جاروا على حيوان البر ثم عدوا على البحار فقالوا الصيد ما فيها .
لم يقنع الحى منها ما تقنعه حتى أجار أناس أكل طافيها

وقوله يبكى على الطائر المقتول

وابك على طائر رماه فتى لاه فأوهى بمهره الكتفا
أو صادفته حبالة نصبت فظل فيها كأنما كتفا
بكر يبغى المعاش مجتهداً فقص عند الشروق أو نتفا
كأنه فى الحياة ما ورع الغصن فغنى عليه أو هتفا

(١) يقال رنق النوم فى عينيه اذا خالطهما كأنه مأخوذ من ترنيق الطائر أى تحليقه ورفرفته بجناحيه

﴿ اليوم الثالث ﴾

أصبحت فى اليوم الثالث فاذا الشيخ قد فارق خلوته الى حديقة المنزل فافترش ترابها، وتوسد أعشابها، وأنشأ يردد النظر بين أزهارها وأنوارها، ويبسم للعصافير تتنقل بين أنجمها [1] وأشجارها، ويصغى إلى سرار الحديث بين حصبائها ومائها، فعرفت المدخل الى قلبه والوسيلة الى سروره وغبطته فاقترحت عليه البروز إلى ضاحية البلد ليرفّه عن نفسه ما ألمّ بها من الحزن والألم. فخرجنا يتوكأ على يدى مرة وعلى عصاه أخرى حتى وصلنا إلى وادٍ أفيحَ يهتز بصنوف الأشجار، وأفانين الأزهار، ويتراءى فى ألوان من النبات؛ مشتبهات وغير مشتبهات، من هائج وعميم، وبارض وجميم [2]، وكروم

(١) الأنجم جمع نجم بفتح النون وهو ما نجم من النبات على غير ساق

(٢) الهائج من النبات الذى اصفر ويبس والعميم منه ما عم الارض والبارض أول ما يبدو من النبات فاذا تحرك قليلا فهو الجميم

وأعناب ، وسنابل وأعشاب ، وتفيض أرجاؤه بالجداول والغُدران ، والقنيّ والخلجان ، مطّردات ومنعطفات ، ومجتمعات ومفترقات ، يفضي أُولاها إلى أُخراها ، ويتصل أقصاها بأدناها ، ويعطف كبيرها على صغيرها ، وقويّها على ضعيفها ، فكأنها صلال رقشاء قد فرّت من حرّ الظهيرة إلى هذا الروض الأريض تبترد بين روابيه وأكماته ، ومصاعده ومنحدراته ، فهي تنقبض وتنبسط ، وتنساب وتتمعج[1] ، وتقبل وتدبر ، وتقوم وتقعد ، وتتواثب وتتراجع وتتواصل ثم تتقاطع ، وكأن حفيف أوراقه ، وخرير مائه ، وتغريد أطياره ، وضجيج نواعيره ، وعجيج سائمته أنغام مختلفات يتألف من مجموعها لحن بديع يسمعه السامع فيخيل اليه أنه هابط من أبواب السماء ، أو أن سكان الالمب[2] فوق عروشهم يغنون ، وسكان الأرض بين أيديهم يستمعون

---

(١) تمعجت الحية تلوت في سيرها وتثنت (٢) الالمب خرافات اليونان مجمع آلهتهم ويقولون ان لتلك الالهة ساعات يشربون فيها في مجتمعهم هذا ويطربون

هنالك وقف الشيخ أمام هذا المشهد المؤثر وقفة الحائر المشدوه ، وقد ملكت عليه مشاعره وحيل بينه وبين نفسه فجمد فى مكانه كأنه نُصب من الأنصاب ووقفت وراءه أعجب لجموده وسكونه حتى فنيت كما فنى فى مشهده الذى بين يديه فلم أرجع الى نفسى حتى سمعتهُ يقول :

للمليك المذكرات عبيد وكذاك المؤنثات إماء
فالهلال المنيف والبدر والفر قد والصبح والثرى والماء
والثريا والشمس والنار والنـ ـثرة والارض والضحى والسماء
هـذه كلها لربك ما عا بك فى قول ذلك الحكماء

ثم التفت إلىَّ وقال : كل الناس يطلبون الحقيقة وكلهم عاجزون عنها لأنهم يطلبونها من صحائف التاريخ والمؤرخون يصانعون ويدهنون ، أو من أفواه الفقهاء والفقهاء تجار يرتزقون ، لا هداة يرشدون ، أو من خطرات عقولهم وقد أفسدها عليهم القائلون والكاتبون (١) والحقيقة موجودة

(١) كثيراً ما نقم أبو العلاء على الرواة والقصاص أخبارهم التى

ولـكنهم لا يعرفونها لأنهم لا يعرفون الطريق اليها ، قلت وأين تجدها ، قال فى هذه الأودية الفيحاء ، تحت تلك القبة الزرقاء ، بين ذلك الظل والماء

هنا يرى الانسان ربه فى الغريسة يُلقى بها غارسها فى

يضعونها من عند أنفسهم ويدونونها في كتبهم مصانعة للعامه واستهواء لقلوبهم وطلباً للربح منهم كقوله

ويقال الكرام قولاوما فى العصر الا السخوص والاسماء
وأحاديث خبرتها عواة وافترتها للمكسب القدماء
غلب المين مند كان على الخلق وماتت بغيظها الحكماء

وقوله في تكذيب ما ورد على ألسنتهم من أخبار المعمرين فى التاريخ القديم

وادعوا للمعمرين أموراً لست أدرى ما هن فى المشهور
أتراهم فيما تقضى من الايام عدوا سنيهم بالسهور

وقوله في تكذيب القصاص الذين يزعمون أن أول من شاب من الرجال هو سيدنا ابراهيم عليه السلام

ما أقبح المين قلتم لم يسب أحد حتى أتى السيب ابراهيم عن أمم
كذبتم ونجوم الليل شاهدة ان المشيب قديماً حل فى اللمم

وقوله لعمرى لقد فضح الاولين ما كتبوه وما سطروا

التربة فاذا هي نبتة زاهرة مستوية على سوقها تعجب الزرّاع ، ويراه في الحبة الدقيقة في الصرة المستديرة في النواة الصغيرة التي لا تلبث أن تأخذ مكانها من مغرسها حتى تصير نخلة سحوقاً تملأ الأرض خيراً بجذوعها وسعفها وجريدها وقنوانها وعثاكيلها وطلعها وبلحها وبسرها ، ويراه في الكواكب الماثلة في السماء ، والأسماك السابحة في الماء ، والأجواء المملوءة بالهواء ، والليل إذا يغشى ، والنهار إذا تجلى ، فيمتلئ قلبه يقيناً صافياً رائقاً لا تعبث به المناظرات ، ولا تشوّه جماله المجادلات ، ولا يحتاج بعده إلى متكلم يعلمه النظر ، ولا فقيه يلقنه الجدل ، فلا دليل على الله غيره ، ولا هادي اليه سواه(١)

---

(١) كان أبو العلاء من أشد الناس بعضاً للمناظرات الدينيه لاعتقاده انها تورث الاحقاد والاضغان فضلا عما تلقبه أحياناً من الشكوك في نفوس الضعفاء ، وكان يكره من المتناظرين ان المنافسة وحب الغلب كثيراً ما يحملهم على الخروج عن الحق وانكار البديهيات كما يظهر ذلك من

هنا يرى الانسان السائمة تأكل العشب والعشب يأكل التراب والتراب يأكل السائمة فيستحيل الجماد نباتاً والنبات حيوانا والحيوان جماداً فيعلم أن المواليد الثلاثة مادة واحدة تتلون ذراتها وتتشكل جواهرها ويعلم أن هذا الانسان الفاخر بنفسه والمدل بعظمته واقتداره ربما كان بالأمس

مثل قوله .

لولا التنافس فى الدنيا لما وضعت ... كتب التناظر لا المغنى ولا العمد
قد بالغوا فى كلام بان زخرفه ... يوهى العيون ولم يثبت له عمد
وما يزالوا في شأم وفى يمن ... يستنبطون قياساً ماله أمد
فذرهم ودناياهم فقد شغلوا ... بها ويكفيك منها الواحد الصمد

وقوله :

ملل غدت فرقاً وكل شريعة ... تهدى لمضمر غيرها اكفارها

وقوله :

علم الفتى النظار ان بصائرا ... عميت فكم يخفى اليقين وكم يعم
لو قال سيد عضا بعث بملة ... من عند ربى قال بعضهم نعم

وقوله :

هذا الفتى أوقح من صخرة ... يبهت من ناظره حيث كان
ويدعى الاخلاص في دينه ... وهو عن الالحاد فى القول كان
يزعم ان العشر ما نصفه ... خمس وان الجسم لا فى مكان

صفيحة [١] ملقاة على جانب قبر ، وربما يكون فى الغد جلدة بالية فى ذوابة [٢] نعال [٣]

هنا يرى الانسان الأرض الصلفاء يمر بها الماء وتلق فيها البذور فلا تلبث الشمس أن تجفف ماءها والريح أن

(١) الصفيحة الحجر العريض (٢) الذوابة من النعل ما أصاب الارض من المرسل منها على القدم (٣) ردد أبو العلاء هذا المعنى الخاص بتغير المادة وتنقلها كثيرا فى كلامه فمن ذلك قوله

مضى الانام فلولا علم حالهم لقلت قول زهير أية سلكوا
فى الملك لم يخرجوا عنه ولا انتقلوا منه فكيف اعتقادى أنهم هلكوا

وقوله :

وما يدريك والانسان عمر وقد يدرى خليلك وهو دار
لعل مفاصل البناء تضحى طلاء للسقيفة والجدار

وقوله :

فلا يمس فخارا من الفخر عائد الى عنصر للفخار للنفع يضرب
لعل اناء منه يصنع مرة فيأكل فيه من أراد ويشرب
ويحمل من أرض لأرض وما درى فواهاً له بعد البلى يتغرب

وقوله فى داليته المعروفة :

رب لحد قد صار لحداً مرارا ضاحك من تزاحم الاضداد
ودفين على بقايا دفين فى طويل الازمان والآباد

تعصف بذورها فيعلم أن الحقائق الدينية لا يمكن أن تستقر في قلوب الأشرار إلى أن تبلغ شغافها وأن الناس ما اختلفوا إلاّ لأنهم جاحدون ، وإلا اقتتلوا إلاّ لأنهم ملحدون

هنا يرى الانسان الشمس طالعة من مشرقها مصفرة اللون متقاربة الخطوات مخافة أن تطير اليها رشاشة سوداء من مآثم هذا العالم ومخازيه ثم لا تلبث أن تأخذ مكانها من كبد السماء حتى تنحدر إلى مغربها هاربة فتنغمس في ماء البحر قبل غروبها لتغسل عن جرمها الأبيض المشرق ما ألمّ به من تلك الأدران والأوحال ، ويرى الليل مقبلاً يقطب وجهه ويزوي ما بين حاجبيه ويربدّ شيئاً فشيئاً حتى يسودّ غضباً على هذا المجتمع البشري فيما يقترفه تحت ستاره من المفاسد والشرور ، ولا يزال مادّاً يديه بالدعاء إلى الله تعالى أن يعجل أوبته إلى مستقره حتى يستجيب له ويداول بينه وبين النهار ، ويرى الكواكب قد كمنت وراء ستر الظلام ثم أطلّت بعيونها على هذا العالم الأرضي مرغمة لتنفس عن رفيقها

الليل بعض ما خالط قلبه من الهمّ والكمد فلا تلبث أجفانها أن تطرف انغلاقاً وانفتاحاً مخافة أن يصيبها سهم نافذ من سهام الأشرار التى تتطاير يَمنة ويَسرة وصعوداً وهبوطاً فلا يقوم لها شىء إلا أتت عليه

هنا يرى الانسان الحقيقة فى هذا العالم عارية الجسم ويسمع صوتها واضح النبرات من حيث لا يحجب بصرَه تكلُّف المتكلفين ، ولا خداع الخادعين ، ولا يصد سَمَعَهُ قرع النواقيس ولا صياح المؤذنين

فقلت حسبك يا مولاي فقد نال منك أجيج هذه الرمضاء وإنى أرى فى رأس هذا الوادى رجلاً أحسبه فلاّح هذه الأرض فامض بنا اليه عله ييسر لنا ظلة نفيء اليها وجرعة باردة نفثأ بها هذه الصارّة [1] ، فمشينا اليه حتى بلغناه فرأيناه مكبًّا على تربته يفلحها ويقلب عاليها سافلها وقد شرست يده وشثنت قدماه وزأبَرَ صدرُه [2] ، وأفرغ قرص

---

(١) يقال فثأ القدر اذا سكن غليانها والصارة العطش (٢) شرست اليد اذا غلظ ظهرها من برد فتسقق وشثنت القدم اذا خشنت وغلظت وزأبر الثوب اذا خرج له زئبر وهو ما يظهر من درزه

الشمس فى رأسه جعبة سهامه فتصبب عرقاً حتّى سالت منه
على قدميه قطرات كقطرات البخار تسيل على جوانب القدر
المضطرم فحييناه بتحية حيّا بأحسن منها وأفضينا اليه بطلبتنا
فأشار بيده إلى كوخه وكان منه على بعد كثب فاذا عريش
من عيدان القصب مسجج [١] قد ارتفع فوقه سقف من جذوع
الأشجار واعتمد على أُسيطينة [٢] من اللبن الأسود وامتدت
أمامه صُفّة مستطيلة واستدار به نؤى يمنع عنه مسيل الماء ،
فدخلناه فلم نرَ فيه إلاّ رِثة [٣] من المتاع لا تكاد تزيد على
جوالق للخبز اليبيس وخُلقان من القُمُص والأبراد وقدر
وأُثفية وجرة مملوءة ماء وحَشية [٤] مفككة تضطرب فى
جوفها حشوة من الليف اضطراب الجنين فى جوف الحامل ،
فشربنا حتّى ارتوينا وأخذنا من تلك الحشية مضجعنا وما زلنا
على حالنا تلك سكوتاً لا نتكلم حتّى جاء الرجل وقد مال

---

(١) يقال سجج الحائط اذا طلاها بطبقه رقيقه من الطين (٢) أسيطينة تصغير اسطوانة (٣) رثه المتاع بكسر الراء ساقطه (٤) الحسية الفراش المحسو

ميزان النهار يَقزل[1] فى مشيته ويحمل فأسه على عاتقه ويجر وراءه ولدين صغيرين له بين الثامنة والعاشرة فجاس وجلس ولداه بين يديه وأنشأ يلقى الينا معاذيره ويتوجع لعجزه عن إكرامنا وإسعافنا بما نحب فعذرناه ثم جرى بينهُ وبين الشيخ الحديث الآتى : وكنت أترجم بينهما لأنهما لا يكادان يتفاهمان

الشيخ ـ من يملك هذه الأرض

الفلاح ـ هى لسيدى ومولاى أطال الله بقاءه وأتم عليه نعمته صاحب هـذا القصر الذى تراه ، وأشار إلى قصر نخم يرفرف بأجنحته فى هـذه البقعة الخضراء ، رفرفة الحمامة البيضاء ، فى القبة الزرقاء

الشيخ ـ أراك تدعو له وتتمنى له الخير والسعادة فاملك سعيد بجواره مغتبط بمكانك منه ولعله يمدك ببره وإحسانه ويغدق عليك من نعمته ما يطلق لسانك بحمده والثناء عليه

الفلاح ـ حسبى من سيدى أن أرى وجهه مرة فى كل

(١) قزل به فرل وهو أقبح العرج

يوم أو يومين ممتطياً فرسه الدهماء فى ركب من أصحابه وحاشيته مارًّا بهذه الأجمات الملتفة يتنزه ويتروح ويطارد الثعالب والذئاب مطاردة الشجاع المستقتل ثم يعود إلى قصره مسروراً مغتبطاً بمصبحه وممساه

الشيخ ـ إنما أسألك عن أياديه عندك وصنائعه لديك لا عن منازهه وطرائده وملذاته وشهواته

الفلاح ـ وهل يوجد فى باب النعم جليلها ودقيقها نعمة أجل قدراً وأسنى قيمة من أن أكون عبداً مملوكا لسيد كهذا السيد رفيع الجاه ، جليل القدر ، واسع النعمة ، تطأطئ بين يديه رؤوس العظماء ، ويختلف بين حضرته كبار الأمراء

الشيخ ـ أيها الرجل ما عن هذا أسألك إنما أسألك هل يسلم عليك سيدك هذا إذا مرّ ببابك أو يخلو بك أحياناً ليتعرّف همّك وما تهتف به نفسك من رغباتك وحاجاتك

الفلاح ـ الحق أقول يا سيدى إنى ما سمعت فى حياتى بأعجب من سؤالك هذا ، ومتى كان السيد يخاطب عبده إلاّ

بالأمر والنهي أو يرفع اليه طرفه إلاّ بالنظر الشزر أو يلامس يده جسمه إلاّ للتأديب والتهذيب ، ولقد تمرّ بي وبعيالي الليالي ذوات العدد ولا نكاد نجد من الخبز المخشوشب ما يملأ بطوننا فلا أجد في نفسي من الحزن والألم ما أجد من نسيان سيدي إياي بضعة أيام أو إغفاله أمري ونهيي وزجري وتأديبي ، وقد أعدّ لي حفظهُ الله وأمتعني بدوام رعايته وعنايته عصيًّا غلاظاً يتعهدني بها من حين إلى حين كلما نسيت أمراً من أوامره أو قصرت في رعاية غرض من أغراضه فأغتبط بذلك الاغتباط كلّه لأني أعلم أني منه على ذكر[1] وأني قد نزلت من نفسه منزلةَ من لا يهون عليه إغفاله وإطراحه وإلقاء حبله على غاربه

الشيخ ـ وأين أم هذين الولدين

الفلاح ـ ماتت رحمها الله في سبيل خدمة سيدها فقد

(١) الذكر التذكر

كنا يوماً نمتح[1] على حافة بئر فزلقت أقدامنا وانبتَّ بنا الحبل فسقطنا ، أما هى فاستأثر الله بها وأما أنا فانكسرت رجلى وقدر الله لى الحياة فما أسفت على شىء أسفى على أن لم أكن قد لحقتُ بها فأكون قد هلكت فى سبيل خدمة سيدى كما هلكتْ ليترحم علىّ كما ترحم عليها ويأمر بدفنى فى مقبرة أجداده كما أمر بدفنها

الشيخ ـ ربما كنتَ قانعاً من إحسان سيدك اليك وعطفه عليك بما تعود به على نفسك وعيالك من غلة هذه الأرض وثمراتها

الفلاح ـ لا والله يا سيدى ما أعلمُنى نازعت سيدى نعمتَه وسعادته فى قفيز بر ، أو حفنة تمر ، إلاّ أن تسقط بين يدى تمرة أعلمُ أنه لا يأبه لها فتكون قسمة بينى وبين ولدى أو أحتطب من أطراف هذا الوادى بضعة أعواد من الحطب أُشعلها تحت قِدرى وأستغفر الله مما سهوت عنه أو أخطأت فيه

---

(١) متح الماء متحاً نزعه

وهنا رأيت أبا العلاء كأنما يحاول أن يكاتمني دمعةً تترجح في مقاتيه فأشرت اليه بالقيام فقمنا ومشينا صامتين لا ينطق ولا أنطق حتى بلغنا المنزل وقد نزل ستر الظلام فقلت أرجو يا مولاي أن أكون قد بلغتُ ما أردتُ لك في مخرجك هذا من السرور والغبطة ، قال ما نغّص عليّ يومي إلاّ منظر ذلك الرجل الأبله المسكين في صغر سنه وسقوط همته وذلة جانبه ، وما أحسب إلاّ أن الظلم قد ألحّ على نفسه حتى قتلها وسلبها حسها ووجدانها ، فأصبح لا يعرف لنفسه حياة ذاتية مستقلة عن حياة ذلك الانسان الذي يسميه سيده (١) فهو لا يفرح إلاّ لفرحه ، ولا يغتبط إلاّ باغتباطه ، ويرضيه

---

(١) ما كان أبو العلاء يرى لأحد فضلا على أحد الا بالفضائل النفسية وقد ردد هذا المعنى كثيراً في كلامه كقوله :

أسر ان كنت محموداً على خلق ولا أسر بأني الملك محمود

وقوله :

وأقصاني عن الرؤساء كوني وكونهم لخالقنا عبيدا

وقوله :

وان أفضل من تعظيمهم رجلا صفرا من الحكم التعظيم للحجر

منه كل شيء حتى سوء مجازاته إياه على إخلاصه اليه وتعبُّده له بضربه وتعذيبه وتقتير الرزق عليه وكذلك يفعل الظلم في نفوس المستضعَفين

ثم تركني وانحدر إلى مخدعه وهو يهتف بهذه الكلمات

يحسن مرأى لبني آدم وكلهم في الذوق لا يعذب
أفضل من أفضلهم صخرة لا تظلم الناس ولا تكذب

*

الاربعون (١)

الآن وصلت إلى قِمة هَرَم الحياة ، والآن بدأت أنحدر فى جانبه الآخر ، ولا أعلم هل أستطيع أن أهبط بهدوء وسكون حتى أصل إلى السفح بسلام ، أو أعثر فى طريق عثرة تهوى بى إلى المصرع الأخير هُوِيًا

سلامٌ عليك أيها الماضى الجميل ، لقد كنتَ مَيْداناً فسيحاً للآمال والأحلام ، وكنا نطيرُ فى أجوائك البديعةِ الطلقةِ غادين رائحين طَيَرَانَ الحمائم البيضاء ، فى آفاق السماء ، لا نشكو ولا نتألم ، ولا نضجر ولا نسأم ، بل لا نعتقد أن فى العالَم هموماً وآلاماً ، وكان كلُّ شىء فى نظرنا جميلاً حتى الحاجةَ والفاقةَ ، واحتمال أعباء الحياة وأثقالها ، كان كلُّ

(١) كتب المرحوم المؤلف هذه الرسالة بعد بلوغه الأربعين من حياته وكأنما كان يتنبأ بدنو أجله . رحمه الله وبرد ثراه

مَنْظَر من مناظِرك قد لبِس ثوباً قشيباً من نسيج الزَّهْر الأبيض فأصبح فتنةَ الأنظار وشَرَك الألباب !!

وكان يُخيَّل إلينا أن هذا الزَّوْرقَ الجميل الذى ينحدرُ بنا فى بُحَيْرَ تك الصافيةِ الرائقةِ سيستمر فى طريقهِ مُطَّرداً متَدفِّعاً لا يعترضه معترضٌ ولا يَلْوى به عن طريقه لاوٍ إلى مالا نهاية لاطراده وتدفُّعه

وكان كل ما نعالجُ فيك من آلامٍ وهمومٍ أن يكون لنا مأربان من مآرب الحياة ، فنظفرَ بأحدهما ويفوتَنا الآخر . أو غرَضان من أغراضها، فنصلَ إلى القريب ، ونبيتَ دون البعيد .

وكان كل ما يستذرف الدمعَ من أعيننا هجرُ حبيب أو طلعةُ رقيب ، أو أرَقُ ليلة ، أو ضجرُ ساعة ، أو نظرةُ شَزْرٌ يلقيها علينا بغيض ، أو نفثةُ شَرٍّ يرمينا بها حقُود ، ثم لا تلبث مسراتُنا ومباهجنا أن تطرد تلك الآلامَ أمامها كما يَطردُ النهر المتدفقُ الأقذارَ والأكدارَ بين يديه ، وتَسلَمْ

لنا الحياةُ سائغةً لا كدر فيها ولا تنغيص

سلام عليك أيها الشباب الذاهب ، سلام على دَوْحتك الفينانةِ الغنّاء ، التي كنا نمرح في ظلالها ، مَرَح الظباء العُفْر في رملتها الوَعْثاء ، ننظر إلى السماء فيُخَيّل إلينا أنها مَغْدى ومراحٌ لنا ، وإلى الآفاق البعيدة فيخيل إلينا أنها مَجْرى سوابقنا ومَجَرّ رماحنا ، فكأن العالم كله مملكتنا الواسعة العظيمة التي نسيطر عليها ، ونتصرف في أيّ أقطارها شئنا

أبكيك يا عهدَ الشباب ، لا لأنى تمتعتُ فيك براحٍ أو غزَلٍ ، ولا لأنى ركبتُ مطيّتك إلى لهو أو لعب ، ولا لأنى ذقتَ فيك العيش باردَ الهواء كما يذوقه الناعمون المترفون بل لأنك كنتَ الشبابَ وكفى !!

أَبكيك لأنى كنت أرى فى سمائك نجمَ الأمل لامعاً مُتَلألئاً يؤنسنى منظَرُه ويطربنى لألاوه ، وينفذُ إلى أعماق قلبى شُعاعه المتوهّج الملتهب ، فلما ذهبتَ ، ذهب بذَهابك فأصبح منْظَرُ تلك السماء منظرَ فلاةٍ موحشة مظلمة لا يُضيئها

كوكب . ولا يلمع فيها شعاع

أجَلْ . لم أتمتع فيك بمُتْعة من المُتَعِ ، ولا بلذّة من الملاذّ ، ولا نلتُ فى عهدك مأرباً من مآرب المجد أو الجاه ، ولكنى كنت أؤمل وأرجو . وبذلك الأمل كنتُ أعيش وتحت ظلال ذلك الرجاء كنت أهنأُ وأنْعَم

أما اليوم وقد بدأتُ أنحدر من قِمّة الحياة إلى جانبها الآخر فقد احتجبَ عنى كلُّ شيء ولم يبق بين يدىّ مما أفكر فيه إلا أن أُعِدّ عُدتى لتلك الساعة الرهيبة التى أنحدر فيها إلى قبرى

مضى عهدُ الشباب وبدأت أختلفُ إلى الأطباء الثلاثة طبيب العيون ، وطبيب المعدة ، وطبيب الأسنان ، وتقاربت خُطُواتي فأصبح فرسخي مِيلاً ، وباعى ذراعاً ، ونعى الناعون إلىّ كثيراً من أصحابى وأترابى . أى إنهم نعوا إلىّ نفسى ورأيتُ أصدقائى الذين نشأتُ معهم فى طريقى فأنكرْتُ استحالةَ حالهم ، واغبرارَ وجوههم ، وتجعُّد خدودهم ، وابيضاضَ

شعورهم ، فعلمتُ أنى أولهم وانهم يُنكرون منى ما أُنكر منهم ودعالى الداعُون بالقوّة والنشاطِ ، وطولِ البقاء ، وحسْنِ الختام ، أىْ إنّ قوتى فى هُبُوط ، ونشاطى فى اضمحلال ، وسلامتى فى خَطَر ، وحياتى على وَشْك الانحدار إلى مَغْرِبها ، ومَرَرْت بمجامع الشبان الحافلة بالقوة والنشاط والمَرَح والسرور فخُيّل إلىّ أنى غريبٌ عنهم لا صلةَ لى بهم ولا شأن لىَ معهم ، وأنى أعيش فى عالَم غير العالَم الذى يعيشون فيه وانتقلت من النظر فى شأن نفسى ، وشأن مستقبلى إلى النظر فى شأن أولادى ، وشأن مستقبلهم ، لأن مستقبلى أصبح ماضياً وغداً أصبح أمس لا رجعةَ له إلى الأبد وسمعت كلمة « الجدّ » يهتِفُ بها أحفادى الصغار ، فلم أُنكرها ولم أبتَئِس كأنى معترف أنها الكلمةُ التى يجب أن أسمعها . ونصحنى الناصحون بالاقتصاد والتدبير إبقَاءً على مصلحة أولادى الفقراء ، كأنهم يقولون لى إنك مُوشِك أن ترحَلْ

فأعدَّ لمن وراءك من أهلك وبنيك ما يُغنيهم عنك يوم يفقدون وجهك ، وهدأت نفسى بعد ثورتها وجماحها ، فأصبحت سَمْحاً كريماً ، عفُوًّا غفوراً ، لا أبغض أحداً ، ولا أحقد على أحد ، ولا أُقابل ذنباً بعقوبة ، ولا إساءة بمثلها ، كأنى أقولُ فى نفسى . مالى وللعالَم ولما يحويه من خير وشرّ ، وأنا مفارقُه وشيكا ، إن لم يكن اليومَ فغداً ، وأخذت أتحدّثُ عن الماضى أكثر مما أتحدثُ عن الحاضر . لا لأن الأول أجملُ من الثانى ، بل لأن الشبيبةَ أجملُ من الشَّيخوخة ، وذكرتُ الجلسةَ البسيطةَ التى كنتُ أجلسها أيامَ الطلب فى غرفتى العاديّة الصغيرة بين زملائى الفقراء البسطاء ، فبكيتُها ورثيتها ولم تُنسنى إياها جلستى اليوم فى منزلى الأنيق الجميل بين خير الناس أدباً وفضلاً ومجداً وشرفاً ، لأن الأولى كانت فى سماء الأحلام الحلوة اللذيذة ، أما الثانيةُ ففى أرض الحقيقة المرة المُؤْلمة ، وكنت أنْعَمُ فى صباىَ بكثير من الملاذّ الوهمية الكاذبة ، فكنت أجد فى نفسى غِبْطَةَ

عظمى حينما أجلس لمطالعة قصة ألف ليلة وليلة ، أو سيرة سيف ابن ذى يَزَن ، أو حروب عنترةَ ، أو وقائع أبى زيد ، أو أساطيرِ الجن والشياطين ، وحين آوى إلى مضجعى فأرى فى منامى رؤى بديعة يجتمع لى فيها جميعُ ما أحب وأشتهى من مطامع الحياة ومآربها ، وملاذّ العيش ومباهجه ، وحين أختلف إلى مقابر الصالحين ومَزَارات الأولياء وأقف موقف الضَّرَاعة أمام حَلَقات أبوابهم ، فأشعرُ بسكينة فى قلبى يبعثُها الأمل ويُزْجيها الرجاء ، والآن وقد حُرِمت ذلك كله منذ الساعةَ التى عرفت فيها أن أساطيرَ الأولين أكاذيبُ وأباطيلُ ، وأن الرؤى والأحلامَ هوسٌ وجنونٌ ، وأن الأولياءَ والصالحين أحياءً أكانوا أم أمواتاً ، فى شاغلٍ بأنفسهم عن غيرهم لا يستطيعون نفعاً ولا ضَرًّا ، أى اننى شقيتُ حين علمتُ ، وكنت سعيداً قبل أن أعلم ، وكان كلُّ ما أفكر فيه أن أشيِّدَ لى بيتاً جميلاً أعيش فيه عيشَ السعداءَ الآمنين فى مدينة الأحياء . فأصبحت وكل ما أفكر فيه الآن أن

أبني لي قبراً بسيطاً يضم رُفاتي في مدينة الأموات، وكنت أدهَشُ لبلاغة البليغ، وذَلاَقة الخطيب، وبراعةِ الشاعر، وقدرة الكاتب الصائغ، ونبوغ المبتكر، وأطرب لكل عظيم وجليلٍ مما أرى ومما أسمع، فأصبحت لا أدهش لشيء ولا أَعجبُ من شيء لأنّ مرآةَ نفسي قد صَدِئت فلا ينطبعُ فيها غيرُ الكوكب الفَخْم العظيم، وأين ذلك الكوكبُ فيما يقع عليه نظري من كواكب السماء ونجومها

ما أنا بآسف على الموتِ يوم يأتيني، فالموتُ غايةُ كل حيّ، ولكنّني أرى أمامي عالماً مجهولاً لا أعلم ما يكون حظّي منه وأتركُ ورائي أطفالاً صغارًا لا أعلم كيف يعيشون من بعدي ولولا ما أمامي ومَنْ ورائي ما باليت أسَقَطْتُ على الموت أم سقط الموتُ عليّ !!

ليَكُنْ ما أراده الله أما ما أمامي فالله يعلم أني ما أَلْمَمْتُ في حياتي بمعصيةٍ إلاّ وترددتُ فيها قبل الإلمام بها، ثم نَدِمتُ عليها بعد وُقوعها، ولا شككتُ يوماً من الأيام

فى آيات الله وكتبِه، ولا فى ملائكتِه ورُسلِهِ، ولا فى قضائه وقَدَرِه، ولا أذعنتُ لسلطان غير سُلْطانه، ولا لعَظَمةٍ غيرِ عظمته، وما أحْسَبُ أنه يحاسبُنى حساباً عسيراً على ما فرطت فى جَنْبه بعدَ ذلك، وأما مَنْ ورائى فاللهُ الذى يتولّى السائمةَ فى مَرْتَعِها، والقَطاةَ فى أُفْحُوصِها، والعُصفُورَ فى عُشِّه، والفَرْخَ فى وَكْرِه، سيتولّى هؤلاء الأطفالَ المساكينَ وسيبسُطُ عليهم ظِلَّ رحمته وإحسانه

وداعاً يا عهد الشباب، فقد ودّعتُ بوَداعك الحياةَ، وما الحياةُ إلا تلك الخفقَات التى يخفِقها القلبُ فى مَطْلع العُمُر فاذا هدأتَ فقد هدأ كلُّ شىء، وانقضى كل شىء

يا عَهْدَ الشَّبابِ وكنتَ تَنْدَى
على أفياءِ سَرْحَتِكَ السلامُ

—**—

(تم الجزء الثالث من النظرات)

فهرس الجزء الثالث من النظرات

(تم الفهرس)